زهير الهيتي

أيام التراب

رواية

مكتبة سومر

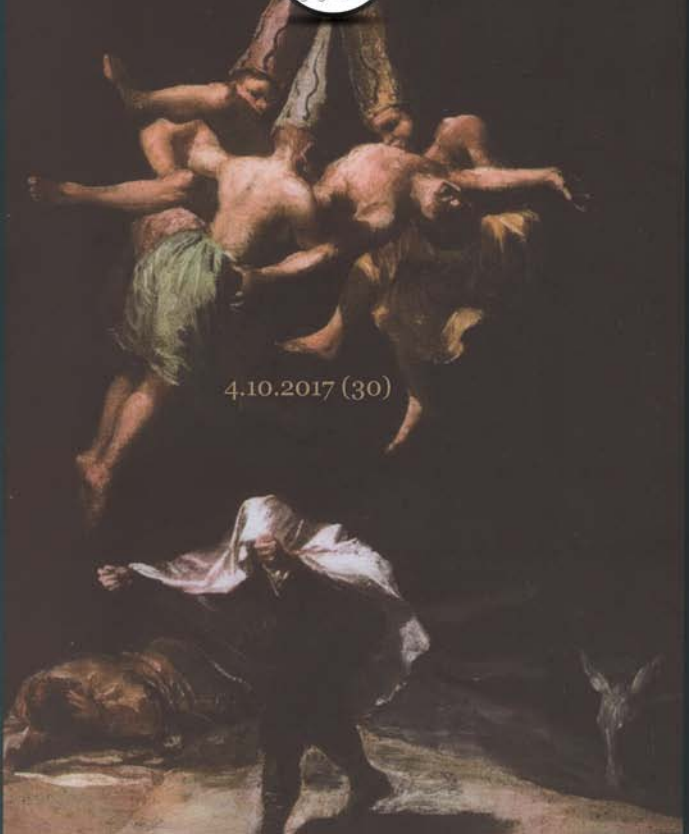

4.10.2017 (30)

التنوير

زهير الهيتي

أيـــام التـراب

Telegram: Somrlibrary

الكتاب: أيام التراب / رواية
المؤلف: زهير الهيتي
عدد الصفحات: 272 صفحة

الطبعة الأولى: 2016
الترقيم الدولي: 978-9938-886-82-5
رقم الناشر: 16/411-49

جميع الحقوق محفوظة لدار التنوير ©

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الاول –
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة–وسط البلد–19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –
الدور 8 – شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

Telegram: Somrlibrary

زهير الهيتي

أيـــام التراب

رواية

التنوير

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

إلى أمل...

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

الهذيان

(ماكس إرنست)

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

بالأمس، عند الساعة السابعة مساء، نَبحَ «جيفارا»، تعويذتنا في مدينة اللصوص، بطريقة هستيرية اضطرتني لِنَهرِه بقسوة لا أحبُ استعمالها معه، لكي يهدأ ولو على غير إرادتهِ، لكنه ظلَّ متوتراً ومُستفَزاً على نحوٍ غريب لا يلجأ إليه إلا مع اقتراب خطر الغرباء من قصرنا الأثري الكبير شبه المهجور، حيث لم يعد أحد يسكنُ هنا سوى أخي سلوان وأنا، بعد أن رحل الجميع وغَيّب الموت قسماً كبيراً ممّن كانوا يقيمون هنا، تاركين وراءهم أشباحهم وكماً كبيراً من الذكريات وأرواح لا تهجع..

كان «جيفارا» قبل ليلة الأمس مصاباً بحالة من الخمول البليد التي تظهر عليه بين الحين والآخر والتي لا نعرف لها سبباً، فهو الحفيد الثالث لكلب أتى به جدي إسماعيل باشا من آخر سفارة عمل بها في برلين قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، وهو من فصيلة ما يُعرف عندنا بـ«الكلب الذئب».. له عيون جميلة فيها شيء من الحزن النبيل غير المُتشكّي.. أمي كانت تُحبه كثيراً وعنها ورثنا، أنا وأخي، هذا الحب، فهو صديقنا الوحيد في مدينة لم أعد أثق بأحد من سكانها!

جدّي كان حريصاً على مُزاوجة كلبه «بلوندي» الذي جاء به صغيراً من برلين بأخرى من فصيلته للمُحافظة على نقاء العنصر، حيث كان من أشد المؤمنين بذلك.. تماماً كطبقتنا البرجوازية التي لا يُسمح لأحد منها بالاقتران من شخص ينتمي لعائلة ليست ذات نَسب أو تاريخ عريق.. وقد فشلت في إيجاد زيجة مناسبة لـ«جيفارا»، وبهذا يبدو أن قَدره مُرتبط بشكل وثيق بقدر أسرتنا التي توشك على الانقراض هي الأخرى.

عندما يشعر بخطر مُحدِق بنا تختفي من عينيه تلك النظرة الحزينة النبيلة وتحل محلها شراسة تُحيله إلى مخلوق مُخيف، غريب حتى عليّ أنا.. رغم ذلك تبقى علاقتنا حميمة نحتاج إليها في زمن كهذا ومدينة كهذه، صارت ملعباً لأولئك الذين لا يجمعنا بهم أيّ شيء..

مُنذ أن تمّ سَحل ساكني قصر الزهور الملكيّ، صرنا مُعتادين على تلقّي موجات الترهيب «بالطرق القانونية». وقد حاول الكثيرون من قراصنة السلطة الذين توالوا على حُكم هذا البلد، الاستيلاء على قصرنا الواسع المُثير لأطماع الآخرين، والذي يقع ضمن مساحة خضراء شاسعة تمتد على أكثر من ألف متر مربع، حيث صفوف أشجار الليمون والبرتقال والمشمش والنخيل النادر الثمر، بالإضافة إلى الزهور الغريبة التي كانت جدتي مريم قد جلبتها من أمريكا اللاتينية وآسيا، ولا يوجد لها مثيل في طول البلاد وعرضها. أمّا البناء الذي يعود تاريخه إلى أواخر القرن

التاسع عشر والذي أشرفَ على بنائه المعماري البريطاني بريان كوبر قبل أن يشتهر ببنائه للمقبرة الملكية في منطقة الأعظمية، فهو عمارة فريدة تجمع الطرازين الغربي والشرقي في تناسق مُدهش أبدعته مُخيلة المهندس المُغرم بالشرق..

المشكلات كانت تأتينا تارةً عن طريق إغراء مادي وتارة أخرى بالتهديد الصريح الفجّ، أو حتى بمحاولة إغراقنا في متاعب مع دوائر الدولة.. سُبل رخيصة لم تفلح جميعها في زعزعتنا عن مكاننا التاريخي الذي تحوّل مع مرور الزمن إلى علامة دالّة وسط الحيّ الذي توسّع بشكل كبير وسريع، وارتفعت فيه البنايات التي راحت تحلّ محل الفلل والبيوت المستقلّة، حتى أصبح يقال: «خلف قصر الباشا الكبير أو بعده بشارعين».. وهكذا.

يوم ذاك كان أبي هو من يتصدى لهم بما تبقّى له من نفوذ ومعارف وطاقة راحت تنفد مع توالي الصدمات.. فما زال هناك قسم ضئيل من سكان هذه المدينة يكنّون حباً واحتراماً «للطبقة الارستقراطية»، أو «حاشية الملك» كما أصبحنا نُعرف بعد الانقلاب العسكري الدموي الذي قام بسحل الملك الشاب، مع عائلته وبعض رجالات حكمه، في شوارع المدينة بطريقة وسَمتْ تاريخ البلد بالبربرية إلى الأبد.. لا أعلم إن كان إطلاق هذا اللقب علينا هو نوع من التشفّي أو الاحتقار أو أي شيء شرير آخر، في الحقيقة لم أُبدِ اهتماماً لا في الماضي ولا الآن في تقصّي أفكار الرعاع، أو إخضاع أفعالهم المُتطرّفة في العادة للمنطق، فقط

اعتدتُ على تحسّس الكلمات الموجّهة إليَّ لمعرفة مقدار الغلّ أو الكراهية التي تختبئ خلفها.

بعد وفاة أبي، تولّت أمي مهمة الدفاع عن آخر «حصون التمدّن»، كما كانت تقول عندما تحكي عن قصرنا وتاريخ عائلتنا البغدادية الأصيلة التي تمتد جذورها إلى العصر العباسي الثاني على الأقل.. في المُحصّلة النهائية بقينا نحن وذهبوا هم، ولم يستطيعوا فعل أي شيء.. أما الآن، بعد الاحتلال الذي لا تفارق رائحته العفنة أنفي، فإن الوسائل قد تغيّرت نهائياً، حيث أصبح كافياً إرسال ظرف يحتوي على طلقة نارية مع رقم يُحدِّد عدد الأيام الممنوحة لكَ لتغادر بيتك وإلا فإن التصفية الجسدية هي ما ينتظرك.. الكلمات لم تعد مُهمة أو ضرورية لصياغة التعبير أو توضيح الغرض في مدينة استوطنها الأمّيون والتي أصبح فيها للموت وسائل متعددة تُمجِّد تسلّطه النهائي.. مدينة لم تمنح الشرعية لأحد بعد حوادث السحل إياها.. فشارك الجميع في رسم خارطة الفوضى الدموية لعلهم يُصيبون الناس بفقدان طوعي للذاكرة.. أما نحن، بقايا الشرعية، فقد كُنّا ولا نزال القَيِّمين على الحدود الفاصلة ما بين التمدّن والبربرية.. ولكي يسود الظلام الفكري الأبدي كان لا بد من تواطؤ الجميع لتطهير ذاكرة المدينة من بقايا الأسر والسلالات التي لم تخضع لسلوك القطيع ونمطية فكره الرثّة، لهذا قرروا التخلّص منّا نهائياً..

في تمام الساعة السابعة من مساء الأمس، وبعد النباح الهستيري لـ«جيفارا»، داهمني إحساس بأن شيئاً سيئاً على وشك الحدوث،

ولم يكن حدوث أمور مأساوية أو مفاجئة خارج التوقّعات في مثل تلك الأوقات التي يمكن فيها توقّع أيّ شيء فيها.

في الصباح عندما دخلت عليّ مملوكة، مُدبّرة المنزل، لمحتُ الهلع على وجهها الذي أعرف خارطته جيداً..!

لم تنطق بكلمة بل كانت تحمل ظرفاً بأطراف أصابع يدها اليُمنى بتقزّز واضح كما لو كان في داخله فأر ميت.. يكاد تنفّسها المتقطّع يتناسق مع خطواتها الحَذِرة وهي تقترب منيّ ببطء يُنذر بالشر المُستطير كما في أفلام هتشكوك!

مملوكة هي التي أشرفت على تربيتنا مُنذ طفولتنا، لهذا أعرفها جيداً. لا تتكلّم كثيراً، وإن فعلت فلأمر جَلل، خصوصاً بعد وفاة أمي، حيث أصبحت أكثر صمتاً وعيناها بدأتا تنوءان تحت حمل قلقٍ مُزمن. منحت نفسها صلاحيات أكبر في ما يخص حياتنا، كأنها كانت تريد أن تعوّضنا فقدان الوالدين، وصارت أكثر احتضاناً لسلوان، وجاهزة دوماً لتلبية أيّ طلب نطلبه منها..

لكن تغيرات بدأت تطرأ عليها مؤخّراً، إذ صارت أحياناً، وهي في المطبخ تطهو لنا وتدخّن سجائرها الملفوفة يدويّاً بشراهة، كعادتها، تُدمدم مع نفسها بصوت مَسموع وتُطلق لعنات تتناثر هنا وهناك كما القنابل التي ألقيت على هذه المدينة، وتقذف بلعناتها أناساً بعينهم، لا نعرف عنهم شيئاً، تشتمهم بأشنع الألفاظ التي كانت تُضحكنا، لأننا لم نعتدْ على تداول مثل هذه الألفاظ التي نعرفها ولكنها لم تجرِ أبداً على ألسنتنا في حياتنا اليومية.. فلُغة

الحوار بيننا مُختلفة، أنيقة، خالية من الأخطاء ومن الكلمات التي لها أنياب ولا تمتّ إلى لغة الآخرين بصلة. نُحافظ على نقائها حفظاً لتميّزنا، ونجعل منها درعاً نحتمي خلفها من الابتذال المُحيط بنا. لغتنا هيَ الشفرة السرية التي من خلالِها نتعرّف على بعضنا البعض نحن أبناء الطبقة المُندثرة.. لقد نشأنا على قواعد صارمة سواء في ما يخصُ الحديث أو التصرّف. ممنوع إطلاقاً تداول كلمات تتخطى حدود الأدب والاحترام.. في الواقع كنا نحرص على هذا «القاموس» الأخلاقي الصارم، الذي نتداوله مع معارفنا القلائل وأقاربنا الذين يندثرون، نخاف عليه من الاندثار لكي لا نفقد هويتنا.. فبعد الانقلاب العسكري الأول والذي تلته انقلابات أخرى أكثر همجية، هاجر الكثير من معارفنا أو غيّبهم الموت، فتقلّصت دائرتنا اللغوية.. الأخلاقية. أما هذه الأيام، وبعد أن تجرّعنا بقايا كأس الذل: الاحتلال، فقد ضاقت الدائرة أكثر، بل يمكن القول إنها اقتصرت فقط على الأفراد المتبقّين من العائلة.

عندما نخرج من القصر ونضطر للاختلاط بالآخرين، نسمع لُغةً مُختلفةً فيها الكثير من الكلمات البذيئة والنابية. دائما كانت تُدهشني قدرة الآخرين على تمرير مثل هذه القذارة على ألسنتهم بدون إحساس بالذنب أو الضّعة، أو حتى بالحَرج! عندما أسمع كلمة من تلك الكلمات ينتابني إحساس غير مريح، كالتصاق الأوساخ بي، أحسّ بأنها أوساخ تُريد أن تُحوّلني إلى واحدة منهم، لكن ما إن أعود إلى القصر وألتقي بدائرتي المُختارة من البشر

حتى يعاودني الشعور بالنظافة من رُقيّ اللغة التي نستعملها والتي أصبحت عملة نادرة في شوارع المدينة. لغة التخاطب عندهم لم يعد فيها أيّ أثر للاحترام..

لغتنا تمنحنا حدوداً ديموغرافية واضحة المعالم، فالمدينة العريقة التي شيّدناها والتي نعيش فيها مُنذ سبعة أجيال، باتت تُلاعبنا لُعبة السراب المُخادع، تمنحنا هوية اعتقدناها راسخة ولكنها ليست كذلك! الريفيّون المُتكاثرون في المدينة يرون فينا أقلية يجب الخلاص منها لكي لا يبقى شيء يُذكّرهم بكونهم طارئين. كما يبدو أن خيارنا الذي تبعناه بِوَلهٍ وحِرفية في الانحياز لأسلوب حياة مُخالف لما اعتادت عليه الغالبية، قد جلبَ لنا العداء غير المفهوم، وصيّرنا أهدافاً سهلة في وسط يتصرّف تجاهنا على نحوٍ عدائي لا يُطاق..

أبي كان أكثرنا تأثراً وحزناً من التبدل الديموغرافي، خصوصاً عندما يُناديه أحدهم باسمه المُجرّد أو استعمال ضمير المُتكلم «أنت». لقد كان يعتبر أسلوب التخاطب هذا نوعاً من الإيذاء الجسدي، فأنا لم أسمعه أبداً وهو يُكلم غريباً إلا بضمير الاحترام «حضرتكم» مهما يكن وضع هذا الشخص أو نَسَبه.. لقد كان ودوداً، لكنه في الوقت نفسه كان صارماً من حيث حفظ المسافات بين البشر، ويؤمن بأن انحدار البشر يبدأ بانحدار لغة التخاطب في ما بينهم، فلكي يرتقي البشر، لكي يصبح المرء إنساناً، عليه أن يجمع معارف وعادات وينمّي أحاسيس غير تلك التي تمنحها

الطبيعة لكل مخلوقاتها، وإلا فإنه سيتحوّل إلى وعاء يتمتّع بالحياة لكنه لن يصل أبداً إلى درجة إنسان..

كان يعتقد أيضاً بأن وجودنا في هذه المدينة ستنهيه أحداث أكثر غدراً من تلك التي أنهت حياة ساكني قصر الزهور الملكيّ، أحداث لا تُبقي ولا تذَر، وربما تكون أكثر مأساويةْ. لم يكن والدي ليتصوَّر انقراضنا بأنين خافت، وليس كما توقّع بصراخ مُدوٍّ، كما أشهد الآن! وأن الكمال الإنساني الذي كُنّا نؤسّس له داخل سُلالتنا ذات الظهور السبعة قد انهار بشكل مُريع.. وكان من حظّي التعيس أن أكون الشاهدة الأخيرة على هذه النهاية التي بتُّ أراها قريبة..

اقتربت مني مملوكة وناولتني الظرف، وعلى شفتيَّ ارتسمت ابتسامة مُرتجفة لم أستطع إيقافها، ليقيني من شر مُستطير آتٍ، كما فجيعة بَشَّرَ به عواء «جيفارا» ليلة البارحة.. ما إن وضعت الظرف في راحة يديّ حتى شعرت بثقله، تكوَّرت أصابعي على المادة الصلبة التي في داخله، فخمّنتُ على الفور محتواها.. فتحت المغلّف وأخرجتُ منه رصاصة نحاسية اللون ذات حِزٍّ أحمر يطوّق ذؤابتها، أو الجزء القاتل منها. كانت ملفوفة بورقة مُخطَّطة انتُزعت على عجل من كرّاس مدرسيّ ما، وقد رُسم عليها الرقم سبعة..7 فقط! كانت نذيرُ شؤم، باردة، وضعتني بسرعة أمام جدلية الموت الذي لم أكن مُستعدة له..

مكثنا، أنا ومملوكة، نتبادل النظرات وقد تجمّدنا لفترة امتدّت،

مليئة بالعجز.. استعضنا بلغة العيون عن لغة اللسان التي عطّلتها الدهشة المُرةَ، ورسمت من حولنا هالة صَعّبت علينا إخراج الكلمات المُناسبة، أي كلمة تُنطق ستُزيد الموضوع تعقيداً. حتى الأنفاس باتت محسوبة على ميزان الدهشة الممزوجة بالشؤم.. رسالة القتلة واضحة ولا لبس فيها.. خياران لا ثالث لهما.. الرحيل أو التصفية الجسدية..

انتبهت إلى أن مملوكة لا تزال واقفة أمامي تنتظر منيّ شيئاً ما! ابتسمت لها باللطف الذي استطعتُه بصعوبة وسألتها عن الإفطار! أعادت رأسها إلى الوراء بطريقة عفوية وكأنها تتقي إهانة.. لكنها كالعادة لم تُعقّب بل استدارت نحو المطبخ بسرعة، وبدأت بإعداد الإفطار لنا.. أخي سلوان وأنا.

أحسست بالخدر اللذيذ وأنا جالسة في الشُرفة المُطلة على الحديقة التي طاولها الإهمال وغابت عنها الزهور النادرة التي تفانت الأجيال التي سبقتني في رعايتها بعد أن اضطررت إلى تقليص عدد العاملين في الحديقة لأسباب اقتصادية، واقتصر العمل فيها على شخص واحد هو جواد زوج مملوكة..! ويعمل فيها أحياناً أخي سلوان. ذلك أن ما تحتاجه الحديقة لتبقى على نضارتها لم يعد ممكناً.. لم أكن أتصوّر أن اقتراب الموت يُشعر المرء بحنين غريب إلى الراحة! هذا الحنين أبعد الخوف فلم أشعر به، يبدو أنه أجّله..

أول شيء فكرت به، هو أخي سلوان، فتصاعد قلق عاصف غير قابل للسيطرة حول مصيره الذي رَسمَ علامات استفهام كبيرة

أمام عينيّ! فهو نقطة ضعفي، لم يخطر على بالي أبداً أني سأكون المسؤولة عنه، لكني أصبحت بالفعل كذلك! بعد أن فقد عقله هناك في الجنوب البعيد، وهو ما بات مُتعارَفاً عليه في جلجلة آلام البلد بـ«طريق الموت»، هذه التسمية التي أستمدّها من هذياناته التي يكررها منذ أن عاد إلينا بأعجوبة لم نعرف كيف حصلت، فقد كان جندياً في عِداد جيش مهزوم تم سحقه ملحمياً في معركة تحرير صحراء النفط.. عاد إلينا ولم يعد.. ترك عقله هناك، على الطريق ما بين البصرة والناصرية، وآبَ مُحمَّلاً بالكوابيس المُرعبة مُخلّفاً وراءه كل ما هو إنساني، ثم بدأ يروي ولا يتوقّف، وبهذيان يهدرُ كشلال أسود، ما عاشه ورآه في ذاك الطريق الملعون..

الطلقة لا تزال على الطاولة الزُجاج بجانب إناء كريستال فيه ورود جورية مُختلفة الألوان والأحجام جمعتها قبل يومين من الحديقة، وصارت في طريقها إلى الذبول، وجهاز راديو ترانزستور صغير يتسلّل منه صوت نسائيّ نشاز لم أتمكن من التقاط جملة مفيدة منها بدون أخطاء لغوية، ومجموعة أوراق بيضاء مُرتبة وفوقها قلم حبر من نوع باركر كان يخص أبيّ وكنت دائماً حريصة على استعماله وملئه بالحبر بين الفترة والأخرى حماية لهُ من الجفاف كأنني أنتظر أن يعود أبي رغم يقيني أن الأموات لا يرجعون! وصينية نحاس مُزركشة عليها ثماني كؤوس زجاج ملونة جئنا بها ذات يوم من سوق خان الخليلي بالقاهرة.. أنظر

إلى كل ذلك وشعور بالنفور الطاغي يُسيطر عليّ بما يكفي لإغراق هذه المدينة المنحوسة ومَنْ فيها..

أفكّر بحيرة أين الشجاعة في إرسال تهديد إلى امرأة تعيش وحيدة مع أخيها المجنون وإنذارهما بالتصفية الجسدية! وراء هذه الطلقة الجبانة تختفي عِصابات من أشباه الرجال، أولئك الذين لا يتحدّثون لغتنا المُنتقاة. جبناء، كذّابون، يتحدّثون طوال الوقت عن البناء ولا يعرفون سوى لغة الهدم. أما كان الأجدر بهم أن يأتوا إلى هنا وأن يطلقوا تهديدهم في وجهي من غير مواربة!

إن المدينة، أي مدينة، عندما تخلو من الأبطال الحقيقيين تصبح ملعباً للكاذبين الذين يتحدّثون برطانة عن صناعة التاريخ. وبغداد كذلك مُنذ أن سفحت شرعيتها على إسفلت شوارعها. والآن لا تبدو أكثر من بركة آسنة. لهذا لم يعد أحد يخجل مما يرتكبه بحقّها وحق تاريخها وأهلها! صارت تعيش، ونعيش، من دون أبطال حقيقيين، ويحكمها مدّعون.. إنها التفاهة الكبرى، تفاهةٌ مخلوقاتها مُفزعة، كابوسية، تريد العودة بنا إلى أيام القرود!

وضعت مملوكة أمامنا الإفطار المُكوَّن من البيض المسلوق ونوعين من الأجبان مع سلطة خُضار طازجة، بالإضافة إلى الحليب الساخن والشاي.. تناولناه بصمت.

مُنذ أن عاد سلوان من تلك الرحلة العجيبة، المُسماة خدمة العَلم، وهو يُصرّ على ارتداء القمصان البيض المُتشابهة فقط.. كل يوم قميص أبيض، البياض الناصع الصادم نفسه. لم يعد قادراً

على وضع الملابس المُلونة على جسده، يرفض بإصرار أي شيء آخر.. هل يبحث بإصراره هذا عن النقاء الذي فقده هُناك؟ هل يحلم باستعادته؟ ولماذا يُصرّ على تزرير الأكمام والياقة مهما بلغت درجة الحرارة، سواء في الليل أو في النهار! لماذا ينام بثيابٍ بيض ويستبدلها بأخرى مُشابهة عندما ينهض! هل يُريد أن يمنع شيئاً ما من الدخول إلى جسده فتكشفه الملابس التي عليه! أشياء كثيرة مُلغّزة عاد بها من هناك لم تكن من عاداته على الإطلاق قبل أن يذهب في رحلة خدمة العَلم والجنون.. ترك هناك براءته، وأمانيه، ورغباته، وطموحه.. وعاد إلينا باللون الأبيض المُحايد المُحيّر!

أثناء الأكل لم يتفوه بأي كلمة. فقط ابتسامة غريبة ارتسمت على مُحياه الذي يحمل خليطاً من الوسامة الغابرة وعلامات الجنون.. أعرف هذا النوع من الابتسامات التي اعتدت عليها وأسمّيها «بوابة الهذيان»، فهو سيظلّ ينظر نحوي باستحياء ويتحيّن الفرصة المُلائمة. كلما رأى أن الفرصة ملائمة يبدأ بالسرد ويروي تفاصيل من كوابيسه التي لا تنتهي. وبحكم ممارستي لهذه اللعبة النفسية معه أعرف كيف أتهرَّب. صحيح أنني أشعر بالحزن عليه لأنه يُحس بنوع من الراحة بعد أن يسرد كابوسه، إلا أنني لا أستطيع أن أصغي إليه كل يوم. التفاصيل التي يُحب الإيغال فيها تصيبني بالسوداوية وتتركني مُحطّمة. لم أكن قادرة على مجاراته لذلك استعجلت النهوض عن المائدة واتجهت إلى الصالة الكبرى

التي كانت مُخصصة للضيوف الذين لم يعودوا يأتون، وأصبحت مهجورة مثل كل شيء في هذا القصر الذي نعيش فيه بصمت في غالب الأحيان.. أم لعله هو الذي يحيا فينا!

أين ذهب أولئك الذين كانوا يملأون الحديقة وردهات القصر؟ أتأمل الحديقة التي راح اليباس يأكل نضارة أشجارها.. أرى أطياف أولئك الذين ملأوا ذاكرتي كأنها تذبل وتيبس هي الأخرى! أين ذهبوا؟ مُنذ احتلال المدينة وانفجار العنف الأعمى اتسع الفراغ وها هو يهدد بابتلاعنا!

الصالة كبيرة جداً، يقسُمها إلى قسمين، صف من الأعمدة المصبوغة بألوان الطيف الشمسيّ، عددها تسعة أعمدة كُل عمود لهُ لون مُختلف.. القسم الأكبر من الصالة مُخصَّص لجلوس الضيوف، والأصغر قاعة طعام. الصالة كبيرة، تتسع لأكثر من مائة مدعو. في الماضي، الذي يبدو لي الآن سحيقاً، كان جدي إسماعيل، المُحبّ للسهر وإحياء الحفلات، شبه دائم الإقامة فيها، لم يكن يُحب الجلوس في غرفة المكتبة التي كان يحرص على مقتنياتها حرصاً شديداً، فهي تحتوي على المئات من الكتب والمخطوطات التي جمعتها أجيال من الأسلاف، فيها مكان خاصّ للمخطوطات غير المُحقَّقة والكتب النادرة، مغلّفة بطريقة فنّية تحفظها. كلّ وارث يحرص على إضافة شيء لها ويحرص على الحفاظ عليها، والآن جاء دوري!

أنظر إلى الراديو الكبير الذي يرقد الآن تحت شرشف أبيض،

أنظر إليه بخوف وأرى فيه دليلاً على حالة الخراب التي وصلنا إليها. أرى خبوّ لمعان خشبه المهاغوني ومفاتيحه العاجية، فترتسم أمامي صورة جَدّي وحوله ثلّة من أصدقائه المقرّبين الذين كان يدعوهم في الخميس الأول من كل شهر إلى وليمة يتلوها ذلك الصمت الخاشع للاستماع إلى حفلات كوكب الشرق السيدة أم كلثوم، والتي كانت تذاع على الهواء مباشرة من إذاعة «صوت العرب» في القاهرة.. كانوا ينادونها «السيدة»، اختصاراً واحتراماً، فلا أحد يدعوها باسمها المُجرَّد.. وكان ذلك طقساً لا يحتمل المَساسَ به أو التخلّف عنه منذ أن دخل ذلك الراديو القصر..

يجلس الرجال في القسم الأكبر من الصالة، يدخّنون السجائر التي يُشكل دُخانها فوق رؤوسهم سحابة رمادية تميل أطرافها إلى الزُرقة الخفيفة، أحياناً أراها وأشمُّ رائحتها لغاية الآن! يحتسون الويسكي الاسكتلندي المُعتَّق وبعضهم كان يُفضل العَرق المحلّي، يبادلون «السيدة» الآهات التي ينقلها الأثير، يبدون تسامحاً معها كونها غنّت لجمال عبدالناصر ومجلس قيادة ثورته التي أطاحت بالمَلكية، وهم جميعهم مَلكيّو الهوى والولاء، فلا أحد يُريد إفساد متعة الاستماع إلى هذه السيدة صاحبة الصوت الساحر التي ساهمت في صياغة هوية عربية جديدة مُمتدة من سواحل الأطلسي لغاية بحر العرب.. بل امتدّت أبعد من ذلك!

النساء كنّ يعملن بدأب لإعداد ما لذَّ وطاب من الطعام ووضعه بأناقة على المائدة الكبيرة المصنوعة من خشب الأبنوس الغامق

في القسم الثاني من الصالة، يختلسن النظرات الجسورة ويسترقن السمع عبر الأعمدة التسعة الملونة وعلى شفاههنّ ابتسامات الرضا والخبث الأنثوي..

أنظر الآن إلى ألوان الأعمدة وقد حالت، وذهب الجميع إلى أرض اللاعودة.. لكن الهمسات، والآهات، ورائحة الطعام، وسحابة الدخان الرمادية المُزرقّة ظلت عالقة في فضاء الصالة.. وحدي أنا من يتمتع باستعادة تلك اللحظات والاستئناس برفقة تلك الأشباح التي كانت تتحدّث عن العلم والفنّ والفلسفة...

كُنّا صغاراً، ندخل إلى الصالة تسلّلاً، فقد كان الدخول إليها من المُحرَّمات، حفظاً لأثاثها الثمين الذي أشرف على أدق تفاصيل اختياره جدي إسماعيل وجدتي مريم بما يملكان من ذوق رفيع وحسّ بالجمال زادت في تهذيبهما الأسفار، لأن جدّي كان يعمل في السلك الدبلوماسي كسفير وممثّل للملك، ومن الأوائل الذين ساهموا في إرساء دعائم الدولة الفتية.. في الحقيقة لم يكن مجرّد أثاث عادي، بل عبارة عن مجموعة مُتراكمة من التفاصيل والذكريات والتاريخ، لا يستطيع قراءتها سوى من عُمّدَ بالأسرار في هذا القصر العريق. أحياناً يحلو لي أن أفكك شفرة الأشياء فتبدو مثل رواية مليئة بالحنين وبالتفاصيل المدهشة عشت وعرفت كل جملة وفاصلة فيها..

نحن في العائلة نتوارث شعوراً غامضاً، يصعب فهمه! هو أننا حَملة رسالة يجب علينا أن نكافح لإيصالها، من أهم عناوينها

التمدّن، وتثبيت قِيَم الجمال، والصدق، والرُقيّ... أما لمن يجب إيصالها فهنا يكمن الغموض، لا أحد مّنا يعرف ذلك! المهم أننا كنا نؤمن بذلك، ومنحنا هذا الإيمان شعوراً بالتفوّق، وبالسعادة، وبالفخر لكوننا حَمَلة هذه الرسالة الغامضة، التي يبدو لي أنها لن تصل إلى أحد!

كان أكثر ما يشدنيّ إلى هذه الصالة، ولا يزال، عدا الذكريات الجميلة، وتلك الحوارات الغنيّة عن العلم والفلسفة، وصوت «السيدة» الذي رسمَ على جدرانها صوراً وعوالم بهيجة ولم يغادرها، هي تلك اللوحات السبع المُعلَّقة على جدران قسم الجلوس، والتي اقتناها جدي خلال العديد من سفراته إلى دول كثيرة، وكانت مثار نقاشات شائكة عن قيمة ومعنى الفن... والأرجح أنني بتأثير من تلك اللوحات اخترت دراسة الفنّ.

اليوم وبعد استلامي رسالة التهديد أصابني قلق عليها، لم يكن ليخطر على بالي أبداً، أن أرفعها أو أغيّر مكانها.. الراديو والمكتبة والأثاث.. وهذه اللوحات فوق كل شيء، هي من الثوابت في صالة القصر. إنها هنا أحسّ بأنها تنتمي إلى هذا المكان، والى الأبد! كانت سبباً رئيسياً في حياته، إن اقتُلعت من مكانها مات القصر، وإن مات القصر ستموت معه.. لهذا قررت أن أكتب هذه الحكاية، فالكتابة فعل بقاء، كما أؤمن، في زمن القبح.. وهذا بالضبط ما أريد فعله لكي أحصّن نفسي من الخوف الذي بدأت استمع إلى خطواته البعيدة المُقتربة بعزم. أريد أن أشغل نفسي لأُبعد صوت

تلك الخطوات ولأهرب من نظرات مملوكة الجَزِعة، التي من عادتها أن تدخل إلى المطبخ ولا تخرج منه إلا لقضاء حاجة مُهمة، أما اليوم فهي تخطرُ أمامي بين الحين والآخر وشفتاها مزحومة بالأسئلة التي تنتظر الإجابات مني.. وكأني أعرف ما عليّ فعله!!

اللوحات السبع، موزعة بتناسق جميل على الجدران، وتبعث بِمُجملها على التأمل والحزن الذي لم أكن أشعر به في السابق، أما الآن فهو يبدو لي حاداً كنصل سكين ويبعث فيّ الشعور بالعجز التام وقلة الحيلة أمام عصف الخراب الذي بدأ يجتاح كل شيء جميل تَبقّى في هذه المدينة..

لماذا هذه اللوحات بالذات ولماذا تلك المواضيع الشائكة التي تُثيرها؟

في العادة، يُعلّق الناس على جدران بيوتهم لوحات لا تكون إشكالية تثير مخاوفهم من الأسئلة الوجودية المُقلقة، أو تثير مواضيع فلسفية. هل كان جدي يشعر بالارتياح وهو يجلس مع ضيوفه وينظر إلى لوحة «جزيرة الأموات» لبوكلين! أو يتأمل المخلوقات الغريبة لماكس إرنست التي تحاول التهام القديس أنطونيوس!.. وأو يفكّر في سالومي كما تصوّرها كارافاجيو وهي تشارك والدها في ذبح النبي يوحنا الذي يبدو مستسلماً لقدره، مضرَّجاً بدمائه على الأرض، وتحمل السلة التي ستضع بها رأسه لترقص في ما بعد الرقصة الأشهر في التاريخ...

أين المنطق في اختيارات جدي..!

لم يخطر على بالي أو بال أي من إخوتي طرح مثل هذه الأسئلة في السابق، لا أحد يذكر متى عُلّقت تلك اللوحات على الجدران، فهي دائماً موجودة، وأصبحت مع مرور الوقت جزءًا من عمرنا الذي مرّ من تحت إطاراتها المُذهَّبة، وطبعت ذاكرتنا وهويتنا الثقافية بملامحها.. أما السرّ أو الذوق وراء هذه الاختيارات فهي علامات استفهام ذهبت مع أصحابها إلى القبور، هل كان جَدي مَن اختارها، أم زوجته، جدَّتي؟ ولماذا هذه بالذات؟ هل تناقشا قبل شرائها وجلبها من أماكن بعيدة إلى هنا لتُعلَّق على جدران بغدادية؟

لقد غاب كل الذين كان يمكن أن أطرح عليهم مثل هذه الأسئلة، وربما لم يعد مهمّاً البحث في الأسباب، المهم عندي أنني كنت، ولا أزال، أشعر بالارتياح والألفة كلما جلست وسطها، كما أعرف أن وجودها في حياتي هو الذي حفّزني على اختيار دراستي الأكاديمية للفنون الجميلة وبالذات الفنون التشكيلية منها، رغم معارضة أمي التي لم ترَ في تخصّصي ما يليق بتاريخ عائلتنا التي قدّمت العديد من الأطباء والديبلوماسيين والمُستشارين وغيرها من الاختصاصات العُليا في القانون والهندسة.. عدا المؤسسة العسكرية التي نأى رجالنا عنها بعدما لوّثت أيديها بالدم الملكيّ الطاهر!

لكن الجميع شهد لي بامتلاك موهبة التنقيب عن الجمال في اللوحات الفنية وغيرها. وموهبتي هي التي ساعدتني على

العمل كمستشارة في مركز صدام للفنون الذي انهالت عليه معاول الغوغاء بالإبادة بعد الاحتلال بحجة التخلص من الاسم! أمي كانت الوحيدة التي ترى في كل ذلك انتقاصاً من مكانتنا الاجتماعية، وحتى عملي كانت ترى فيه تصرّفاً لا يليق لإيمانها بضرورة تفرّغ المرأة لإعداد أجيال تحافظ على قيَم العائلة، وتكون، كما كانت هي في حياتها، حارسة للتقاليد والعادات لطبقتنا الآخذة في الاندثار! عندما اخترت أن أعمل لم نكن بحاجة مادية للعمل، فما استطعنا المحافظة عليه بعد التأميمات التي واظبت عليها الحكومات البدائية المُتتالية، كانت تكفي وتزيد عن كل احتياجاتنا، لكنني كنت أريد أن أعمل في المجال الفني، وربما لرغبة دفينة في معارضتها، ومُخالفة لرأيها. فهي كانت ذات مزاج مريض، يتراوح ما بين العصبية والتشكّي، في كلامها دائماً دلالات غير مفهومة أو مُلغّزة لم يكن من السهل عليّ التقاط ذبذباتها للوهلة الأولى على الأقل..

لقد منحتني دراستي للفنون التشكيلية القدرة على تحمّل قسوة وتَصحُّر الواقع والرقص بحرية في أحلام يقظتي على قمم الأعالي.. أشعر الآن بأنني الحلقة الأخيرة في تاريخ هذا القصر، وتُشعرني هذه الصالة بالأمان وهذا ما أحتاج إليه حالياً..

لو فتحت الباب الآن، ربما سأجد مملوكة خلفه، تحاول التنصّت عليّ لعلها تستمع إلى صوت بكائي.. لم أبكِ مُنذ زمن بعيد.. لا أذكر متى بكيت.. بالأحرى لا أريد أن أتذكّر..

منذ أن تسلّمت ذلك المغلّف وأنا أحسّ أنني تحت المراقبة المشدّدة لعيني مملوكة. أراها طوال الوقت، ومن دون مبرّر تتحرّك هنا وهناك، وكلما مرّت بي تنظر إليّ تلك النظرة المتسائلة..

لم أكن بمزاج الحديث عمّا يعنيه ذلك المغلّف.. فكلانا تعرف. ولم أكن أريد أن أفكّر في الخطوات اللاحقة، أقلّه الآن. همّي محصور في الكتابة.

أما لماذا أكتب كل هذا ولمن؟ لا أعرف.. هل أريد تدوين النهاية المأساوية لعائلتنا! لكن لماذا؟ هل سيهتم أحد لذلك؟ لا أظنّ، لا أكاد أعرف أحداً في هذه المدينة التي تريّفت إلى حد لم يعد ينطبق عليها اسم المدينة إلّا لجهة تعداد السكان الذين يحتشدون في انغلاق يصعب اختراقه. أصدقاؤنا ومعارفنا الحقيقيون هربوا، هاجروا، ماتوا.. لا أحد. مع ذلك أريد أن أكتب. أريد أن أواجه خوف الحاضر بذكريات الماضي. أتساءل لماذا دائماً يكون الماضي أجمل من الحاضر؟

في الماضي البعيد، كان الحيّ الذي نسكن فيه من أرقى وأعرق أحياء العاصمة، لكنه تغيّر بسرعة طوفانية هادرة، المدينة كلها تغيّرت.. في السابق كُنا نعرف الجيران، كما كانت أمي تُردد، الآن لا نعرف مَن الذي يسكن إلى جوارنا، بل الأحرى هم يعرفوننا ويعرفون بعضهم وينظرون إلينا كأننا الغرباء. إنني أحاصَر بعيون عدائية كلما خرجت من القصر أو عدت إليه، إنهم عالم آخر لا نعرف خرائطه، يطلقون علينا، بحسب ما تنقله مملوكة، ألقاباً شتى

لا غرض منها سوى النيل من مكانتنا. لقد تحوّلت منطقة البتاوين إلى مركز تجاري ناشط ليل نهار، مبانيها القديمة الجميلة كقصرنا دلائل نوستالجية تشير بوضوح إلى ماضٍ ذهبيّ زائل والى حاضر بائس..

في إحدى المناسبات قالت لي زميلة في الجامعة، وتسكن أيضاً في الحيّ نفسه، إنني «أرستقراطية»، قالتها وكأنها تُهمة عليّ الخجل منها! يعود كل هذا الهذر إلى أواسط القرن الماضي، عندما استعار بعض الأميين مفردات من القاموس الشيوعي العالمي وراحوا يعمّمونها بلا وعي حقيقي لمدلولاتها الاجتماعية الخطيرة، ويطلقونها ككرات النار ضد مَنْ هم مثلنا.. أبي قال لي ذات مرة: «إن العراق استطاع خلال أعوام قليلة أن يؤسس أكبر حزب شيوعي في الشرق الأوسط، لكن أيّاً من هؤلاء لم يقرأ كتاب «رأس المال» لماركس، لأنه ببساطة لم يكن قد تُرجم آنذاك إلى اللغة العربية، بل تُرجمت مُقتطفات منه وبطريقة بدائية مُستعجلة تفتقر إلى الدقة، لهذا نشأ عندنا أكبر حزب شيوعي أمّي!

تتابعت علينا موجات الكراهية، واستُهدفت العوائل ذات التاريخ العريق، وتوالى حكم الأميين وأشباه المثقفين.. أصبحنا كريشة خفيفة الوزن تقذفها موجة انقلابية عاتية إلى ظهر أخرى من دون امتلاك القدرة على الاندماج.. أصبحت الشرعية جسماً طفيلياً، طائفة سرية.. الانقلابيون هدفهم السلطة، وكل همّهم أن يُذوّبونا في حسائهم الرخيص، وتعليمنا كيفية التأقلم داخل الأوساط العدائية..

الكثير منّا خارت قواهم وسقطوا على طريق الآلام.. كان من السهل علينا الهجرة وكانت أختي رباب أكثرنا تحمساً للفكرة، تطرحها بين الحين والآخر على أبي، لكنه كان يرفض طلبها بحزم ويُذكّرنا بأننا نعيش على أرض الآباء والأجداد ولا يمكننا أن ترك كل ذلك من أجل حفنة من الرعاع استولوا على السلطة بالقوة! بعد هذا القول الفصل، تتنكّس الرؤوس ويخيّم علينا جوّ من الخيبة، يشمل حتى أبي نفسه الذي لا أشك الآن بأنه صار يفكر بالهجرة مثلنا قبل أن يفاجئه الموت، فالأمر أبعد وأعمق من «حفنة رعاع» كما كان يدّعي..

لا يُمكن لأحد العيش بالفضيلة والمُثل العليا وسط كل هذه الفوضى الأخلاقية، كلنا يعلم بأن الأمور في هذه المدينة قد وصلت إلى الدَرك الأسفل، ولا أمل بمعجزة تُخلّصنا.. نحن أناس ننتمي إلى "زمن جميلٍ مضى"، الجميع يُريدون إهالة التُراب عليه ودفنه.

اللوحات السبع الموزعة على جدران الصالة بطريقة جميلة وموحية أثّرت كثيراً في مزاجي أو ربما هي شكّلته.. فها أنا، وربما بتأثير مما حصل، أختار أن أمضي معظم وقتي الذي ينفد في هذه القاعة أكتب وأتأمل هذه اللوحات على أن لها دلالات على ما آلت إليه أحوال أسرتنا.. أجلس اليوم أمام لوحة ماكس إرنست التي تحمل عنوان «محاولة القديس أنطونيوس». لوحة تُمثّل القديس الذي التفّ بعباءة حمراء، وتُحاصره من كل الجهات المخلوقات الجهنمية المُختلفة الأشكال والأحجام وتحاول

افتراسه، وتمزيقه، وانتزاع آخر قبس من إيمانه وإطفاء شُعلة حياته. وهو يبدو مقاوماً ومستسلماً في الوقت نفسه. الرسام يتركه لمصيره، غير واثق... تجربة رهيبة، تدفع المُتأمّل للتفكير بثنائية الخير والشر واقتتالهما الدامي الطويل، بالمعركة الأزلية التي بدأت بين قابيل وهابيل، والمُستمرة لغاية هذه اللحظة التي أدوّن فيها ذاكرتي، أو حكايتي، أو وصيّتي.. أو أي مُسمّى آخر أسمّي به كتاباتي.. فها هي المخلوقات البشعة نفسها خارج القصر تُمزِّق بعضها البعض وتدفعني للتساؤل بيأس، ما لي أنا وكل هذه القذارة!

في البدايات القديمة كنت أخاف إطالة النظر إلى هذه اللوحة، لكني تعلمت أن أنظر إليها من مَنظور مُختلف.. صرت أرى فيها الأمل.. أمل مُتجدّد، أو وَهمٌ مُتجدّد، انتصار الإرادة الخيّرة وهزيمة الشر المُطلق.. من يعرف!

الآن أدرك أنه مهما أشحت بوجهي عن معالم القبح المُحيطة بي فهو موجود هنا وهناك، خلفي وتحتي ومن حولي وأدرك أنه يُحاول ابتلاعي.. إلا أني أحب التمسّك بالأمل.. ولوكان وهماً!

من عاداتنا في القصر، أن نقوم كل أوّل يوم خميس من الشهر بعملية تنظيف كاملة، وفي هذا اليوم تجتمع العائلة كلها. لم يعد الأمر كما كان، فعدد العاملين هنا اقتصر في النهاية على مملوكة التي كبرت في العمر وأصبح من المستحيل عليها تنظيف غرف القصر الثماني عشرة إضافة إلى الصالات وغرفة المكتبة، على الرغم من استعانتها بابنة أختها التي نسيتُ اسمها الآن.. كما اعتدنا

أن نطبخ في ذلك اليوم ما هو مُميَّز ولذيذ، وأن نحرق أعواد البخور العُماني، ونرشّ الماء في كل الشرفات لتتصاعد رائحة المكان، ونُشذّب الزهور، ونملأ المزهريات، ونرتدي الملابس الجميلة، ونتعطر.. ليس لأحد معين، بل لنا، لذكرياتنا، لتقاليدنا، للماضي الذي نعيش فيه أكثر من الحاضر. نحتفي بأنفسنا، نوهمها، ولو لأمسية واحدة، بأننا لا نزال سادة هذه المدينة التي فقدت عقلها.. نُسمّيه يوم «القبول».. ونجمع الأحبّة الباقين.

اليوم تأتي أختايَ، رباب وبلقيس مع أطفالهما وزوجَيهما. نمارس جميعاً ترف التذمّر والشكوى من الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية، فكل شيء في هذه المدينة البائسة لا يُعجبنا.. رباب وبلقيس تصلان أولاً، ويلحق بهما بعد ساعات الزوجان والأولاد، بعد أن نكون نحن الثلاثة قد أتممنا تحضير المائدة.. سنجلس كالعادة في الصالة الصغرى، ليس هنا في الصالة الكبرى، فنحن قد قطعنا هذه العادة منذ وفاة والدتنا، ربما لكي لا نشعر بالحزن المُكثَّف، أو أننا نتحايل عليه بالهروب من الأماكن المليئة بالذكريات، لهذا صرنا نجتمع في الصالة الصغرى بعد وفاتها.. سلوان سيحاول قبل أن نبدأ الأكل إعادة مقاطع من كوابيسه الدائمة التي لا تنتهي والتي أدت به إلى التوَهان ما بين العقل ونقيضه، وحُكم عليه أن يبقى في تلك المنطقة الرمادية إلى الأبد كما قال لنا طبيب العائلة قبل أن يُهاجر إلى اسكتلندا.

سلوان غير قادر على استيعاب أن ما مَرّ به هناك على «طريق

الموت» من أهوال قد انتهى.. بالنسبة له لم ينتهِ أي شيء، أحياناً أتساءل إن كانت تلك الأهوال قد انتهت بالنسبة لنا.. لي؟ لا أملك إجابة أكيدة.. فهو لم يتمكن من الذهاب مع الكابوس إلى مداه الحالك، فاستقر في أرض الجنون المُطلق..

ظلَ يتأرجح بين الحدَّيْن القاطعين للعقل والجنون.. يُعذّبنا وهو يحاول أن يروي بانفعال وصدق حقيقيين، أن القطط هناك تأكل الجثث وتتكلّم، وأن الكلاب الضالة تنهش الرؤوس والأطراف، أما الضباع فهي تبحث بين أشلاء الجنود عن أنصاف الأحياء لأنها كما «أخبرته» تتمتّع بخطف بريق الحياة من هؤلاء؟! بالتأكيد سنحاول كلنا، بطرق مُختلفة، تتراوح ما بين اللطف والزجر، التأثير عليه لكي يؤجّل رواية كابوسه إلى ما بعد الأكل، وعندها يسكت المسكين على مضض ويخطف بحزنه آخر أمل لنا بنسيان التعاسة. ولكونه يجد في الإعادة تنفيساً عمّا يشعر به من ضغوط عقلية، سيجد في النهاية طريقة ما للبدء من جديد. إنه يفعل ذلك بشكل يومي، وعندما نتهرَّب منه جميعاً ومملوكة أيضاً، يجلس أمام «جيفارا» ويروي له بكل جدّية. المهم أن يجد من يصغي إليه وإن كان كلباً ذا عيون حزينة وجميلة لم ننجح بالعثور له على أنثى تليق بسلالته.. التفاصيل تزداد وتنقص بحسب تململ المُصغي إليه. هو لا ينظر مباشرة في عيني مُحدثه، عيناه تهربان إلى حيث لا يُمكن الإمساك بهما. هل يخشى سلوان أن نتهمه بالجنون أو الكذب أو المُبالغة، أم إنه لا يريد أن يرى بعينيه ضجرنا من حلمه

الأسود الذي لا ينتهي! عندما عاد لنا بهذه الحالة أصبحت كلماته سريعة على غير عادته، يتجمّع على زوايا فمه زَبد أبيض لا يشعر به ولا يتوقف قليلاً لالتقاط الأنفاس بل يواصل الكلام، حتى يراودني الاعتقاد بأنه سيختنق بالكلمات المُندفعة من فمه والتي لا أعلم من أين تأتي وبكل هذا الدفق الهائل. يمطّ رقبته إلى الأمام الأعلى فتبرز عروقها بشكل مُنفر ويبدو مُخيفاً.. عندها يُصبح شخصاً آخر.. ليس أخي الذي أعرفه.. تتشابك أصابع يديه في حجره وكل يد تريد تكسير أصابع الأخرى.. انهار فيه حائط صدّ الكلمات ففقد القدرة على التوقف، يُكرر ويُعيد إلى ما لا نهاية، فيصبح النظر إلى وجهه يتطلّب شجاعة بدأت تتضاءل عندي..

الشيء الوحيد الذي يحدُّ من طاقة هذيانه الجبارة، طريقة اهتدى إليها بنفسه: التنظيف! في البدء كُنت أشعر بالحرج بل بالخجل كونه يُشارك مملوكة أعمال التنظيف، حاولت أن أمنعه من ذلك، لكنيّ اكتشفت بدوري أن العمل البدني المُضني يمتص طاقته ويحدّ من اندفاع هذيانه، يجعله أكثر هدوءاً وأقل كلاماً.. فهو يُفرغ شحنات جنونه وغضبه بفرك الأثاث وتلميعه، بشطف البلاط وتشذيب الأشجار. أثناء قيامه بهذه الأعمال التي لم نعتد عليها نحن، يُكلّم نفسه بصوت مُدمدم وكأنه يتحدث لغة أجنبية لا أعرفها، يحرص على أن يكون جيفارا بالقرب منه، وعندما يحل الظلام ينام كما الطفل حتى الصباح بقميصه الأبيض المُزرَّر وبطريقة واحدة لا تتبدل، فهو ينام على ظهره من دون أن ينقلب إلى

اليمين أو اليسار.. أتسلل أحياناً إلى غرفته للاطمئنان عليه فأشعر بالحزن الجارف كونه يبدو كمن يستعد للموت بهذه الوضعية التي لا تتغير!

لقد حاولت طوال هذه السنين أن أحقق اتصالاً بعينيه عندما يتحدّث معي، وهو يفعل ذلك كثيراً، لكنه كان ماهراً في التهرب إلى حيث لا يُمكن أن أصل أنا! أشعر بالعجز والخيبة والقهر كوني لا أستطيع شيئاً سوى الإستماع لهذيانه وأنا أفكر بأشياء أخرى. أشعر بالغضب لأنه فقد عقله في حرب تافهة، أدارتها عقليات مُتعفّنة. كُل الحروب تافهة، ومن المُجحف أن يدفع المرء ثمن غباء الآخرين وتفاهتهم..

يا إلهي ما كان أجمله قبل الحرب وهو يُفيض ألَقاً وحيوية وذكاء. شابٌ بالغ الأناقة والكياسة. حُلم فتيات العوائل الراقية سواء في هذه المدينة أم هناك، في المهجر حيث المُنتظرات. كل واحدة منهنّ تتمنى لو قَطعت أصابعها لقاء وصاله، أما الآن! يا إلهي كيف أستعيدك يا سلوان.. على الأقل لتحمل عني عبء الخاتمة!

أحياناً، كأطياف مسروقة من أرض الجنون، تعود إليه تلك الملامح الإنسانية التي فقدها، فيتجلّى لي أخي سلوان الذي أعرفه كشخص قادم من ضباب كثيف، لا أعرف متى ولا كيف يُمكن لي الإمساك بتلك اللحظة الباهرة الخاطفة، آخر مرة حدَثَتْ عندما كنا نأكل معاً قبل بضعة أيام حساء الخُضار الذي يحبه. ربما السبب أنه

مَنْ اعتنى بتلك الخضار في الحديقة! للحظة بعد الرشفة الأولى، أغلق عينيه وارتسمت على شفتيه ابتسامة جاءت من بعيد لكني أعرفها، بانَ عليه الرضا وانسحبت علامات الجنون العدوانية التي احتلّت ملامحه، فعاد إليه الجمال المفقود، اتسعت ابتسامته الساحرة التي كانت تُسعدنا جميعاً كونه الأخ الوحيد بين الإناث الأربع.. تلك الثواني الخاطفة تجعلني أتشبّث بأمل أوهى من خيوط العنكبوت. أتساءل، ربما لم يتمكّن الجنون من الاستيلاء عليه بالمُجمل. ما زال في أعماقه شيء يقاوم، لا أعرف ما هو، لكنه يقاوم...

كابوس الهذيان يبدو كدمامل قبيحة تنبت وتتجمع في عقله إلى أن تتهاوى قدرته على المُقاومة. لا مفرَّ لهُ من تقيؤ الكابوس. لا يهُم عندها من يكون المُستمع إليه، سواء كنت أنا أو مملوكة، أو الكلب «جيفارا» أو حتى الببغاء «بافاروتي».. يشعر بعدها ببعض الارتياح، وأعرف أنها هدنة، فمعركته مع الكوابيس لا تنتهي. إنها كصخرة سيزيف.. هل هذا عقاب إلهي! لكن ما الذي جناه سلوان حتى يستحق عقاباً مثل عقاب سيزيف الذي تحدّى الآلهة!

لم أفكر مرّة في السابق أن أستمع إلى كابوسه المُرعب حتى آخره. لا أستطيع ذلك، هل يأتي كل هذا القيح من مُخيّلته؟ أي مُخيلة هذه القادرة على اختراع كل هذا الكم الكبير من الهذيان العاصف.. لم أكد أنتهي من كتابة هذه السطور حتى ارتفعت عيناي كمَن تلقت نداءً غامضاً لأعيد تفحص لوحة ماكس إرنست!

كيف استطاع هذا الفنان أن يُجسد كل هذه المخلوقات البشعة المُخيفة في لوحته.. من أين أتت؟ هل عانى كما يعاني سلوان من الهذيان الجنوني هو أيضاً؟ أو ربما لأنه يهودي استطاع الإفلات من المحرقة الرهيبة؟ هل نجا فعلاً أم إن لوثة القتلة وأشباحهم ظلت تطارده حتى الممات؟ هل يستطيع سلوان أن يتخلّص في النهاية، كما بطل اللوحة القديس أنطونيوس، من كل هذه المخلوقات المُرعبة التي كانت تريد أن تُغيّبه في الجحيم، أم إنها ستنتصر عليه؟ أعرف أن أخي ليس قديساً لكنّي رغم ذلك لا أكفّ عن المقارنة بينهما، والأمل بأنه سينجو من المَهلكة التي نُصبت له..

أفكّر، ولو لمرّة واحدة، أن أستمع إلى كامل هذيانه، أن أُبادرَ أنا إلى ذلك. لم أكن بحاجة للبحث عنه أو استدعائه، فهو سيأتي بكل الأحوال بعد أن ينهض «جيفارا» من أمامه مُتثاقلاً يهزّ ذنبه بضجر ولا يستجيب لتوسلات سلوان للبقاء معه مُستمعاً وفياً..

ما إن يتحرّك «جيفارا» مبتعداً حتى أسمع صوت خطواته، بطيئة، مُترددة.. سيطرق الباب بخجل، ويدخل قبل أن يسمع صوت ندائي. يجلس أمامي ويضع يديه على الطاولة بكل هدوء، يُرسل نحوي نظرات مُستطلعة بعيون مُبتسمة قلقة، كأنه يسألني إن كنت على استعداد للإصغاء إليه. ولمجرّد أن أبادله الابتسام تتحرّك عضلات فمه بِهمّة لقذف سيل من هذياناته التي قال لنا طبيبه – الذي هاجر أيضاً – إنها سترافقه إلى الأبد..

لقد قررت اليوم أن أكتب كل شيء، فالتهديد الذي وصلني

أيقظ في داخلي فوضى مشاعر أريد أن أسجّلها لسبب لستُ على يقين واضح منه، ربما لكي أتخلّص من ضغط الخوف من التهديد، ربما لأنّي الأخيرة من سلالة في طريقها إلى التلاشي، وربما لأن مُذكرات جدّتي مريم التي قرأتها بعد رحيلها تبدأ بعبارة «أريد أن أكتب لأشعر بالتحرر».. لم تذكر ممّن كانت تريد التحرر، لكني أجد طمأنينة بالسير على خطواتها..

كيف يُمكن أن أكتب ذلك التاريخ! كيف أشعر بذلك التحرّر، من دون ذكر كوابيس سلوان التي أصبحت في النهاية كوابيسنا نحن الذين لم نسِرْ على «طريق الموت»!

لقد حَدسَ ما إن رآني أنني بمزاج يسمح له بالبوح، اتسعت ابتسامته ومالت زاوية فمه اليمنى نحو الأسفل بطريقة مُبهمة، كانت الابتسامة مختلفة.. خفق قلبي بسرعة أملاً في أن يكون هناك تغيير ما في التفاصيل التي اعتدت عليها، أو باستعادة بريق الحياة من تلك العتمّة التي ابتلعته، أم تراه يحتقرني..؟ يحتقرنا..؟ لأننا لم نكن على مستوى تلقّي الحقيقة التي يؤمن هو بها بعد أن عاد من هناك مُتمسّكاً بها!

لم أنطق بحرف، بل نظرت مُباشرة في عينيه الزائغتين ومنحته ابتسامة مُرحّبة أوحت له بأنيّ على استعداد كامل للإصغاء لكل ما يود البوح به.. وبقدر ما كنت مستعدة للاستماع إليه حتى يتوقّف، بدا هو مستعداً لسرد حكايته بعيداً عن تكرار تلك الحكايات غير

المفهومة التي طالما كان يكرّرها وكأنها صور في ذهنه لأشياء ليس من المهم للآخرين أن يفهموها.

استعاد فمه شكله الجميل، واختفت الابتسامة لتحلّ محلّها صورة جادّة مضى زمن لم أرَها على وجهه.

«هل تعرفين أنه خلال الحرب تتراجع رهبة الموت ويحل محلها هدوءٌ شديد، هدوءٌ يجعلنا نتصالح مع الموت، بل نتمناه وهو يقترب منا حين يكون هو الخلاص الوحيد، يَطردُ ظلالنا ليُصبح هو الظل! إنه هنا، بيننا، فينا، نلمحه بين الشظايا والقذائف، نسمع زعيقه مُتداخلاً مع أصوات الطائرات، تشي حركاتنا الانفعالية وغير الخاضعة للمنطق باقترابه، نلمحه خطفاً في أفكار رفيق سلاح يبدأ بالصلاة مستسلماً، أو راجياً.. نقترب منه فيبدو لا مبالياً، يمحو أحلامنا المُتناثرة على طول المسافة المُمتدة ما بين بيوتنا التي أتينا منها وبين الصحراء التي سنموت فيها.. ويمنحنا حلم تمنّي الخلاص!

هناك كنت أصرخ بطريقة غريبة تجعلني أنا نفسي أرتعب منها، لم يكن صراخاً، بل هو عواء حيوانيٌّ كامن في أعماقنا السحيقة، يُمكن أن نُسمّيه رعباً نقياً مُجرَّداً من أي لمحة إنسانية! لو أردت إعادة مثل تلك الأصوات لما تمكّنت من ذلك، رغم أنها لا تزال تدوّي في أذنيّ، كان صُراخاً لا يمكن أن يصدر عن مخلوق إلّا في تلك اللحظة، تلك اللحظة التي لا تتكرر إلا في حالة استدعاء حيوانية كامنة ومُتجذّرة في أعماقنا..

كان جسد الجندي المُحتضر غير البعيد عني، يحاول عبثاً المُقاومة وهو يرى اقتراب الضِباع البُنّية اللون المُرقّطة ببقع سوداء وتسبقها رائحتها النتنة من عنقه. كان يقاوم بحركات غريزية غير مفهومة رغم جُرحه النازف، فهذه المخلوقات التي من المعروف عنها أنها تأكل الجيَف، غيّرت من عاداتها.. لم تعد تقرب الأموات، فهؤلاء في كل مكان من تلك الصحراء.. صارت تبحث عَمّن لا يزال فيه رمق من الحياة، صارت تُكمل متعتها بالقتل قبل الافتراس!

لقد تحوَّل الجندي المسكين إلى عينين جاحظتين لا أكثر، لم يعد قادراً على العواء مثلي، ولا على طلب النجدة في تلك الصحراء المُمتدة إلى أفق لا مفرَّ منه سوى إلى السماء. مساحات شاسعة من اللاشيء وكأنها أوجدت خصيصاً للموت، وممّن يطلب النجدة! لا شيء هناك سيمنع اقتراب الضِباع المُرقطة وغير المبالية بأحد.. نظرَ نحوي باستجداء فقرأت في عينيه الجاحظتين رغبته الواضحة بالموت السريع. أدركت ذلك عندما توقفت حركاته الغريزية غير المفهومة.. رأيت ذلك في عينيه المتوسّلتين بسكون.. في ملامحه التي بدت هادئة مطمئنّة إلى أني سأقوم بالمهمة..».

صمت للحظات. أغمض عينيه، ثم أكمل:

«لم أتردد في إشهار سلاحي الذي مُنحته لقتال عدو لا أعرفه.. وأطلقت النار عليه، وعلى الضِباع.. أليس هذا ما كان يرنو إليه، الموت السريع؟ خلّصته.. أو ربما قتلته بدافع أنانيتي، فالحقيقة

أني لم أرد فقط تحقيق أمنيته وإنقاذه من نهش الضواري وهو يتنفس الهواء، بل لأني أردت أن أجنّب نفسي رؤية هذا المشهد المروِّع! كنتُ أريد أن أطلق النار على مصيري أنا، هل تفهمينني يا غصن البان؟ قطعت الطريق على الضباع بأن نزعت منه ما كان يثير غريزتها.. وقفت في وجهها علّها تخاف منّي.. منحته احتمال تحوّله إلى شهيد.. فلو افترستنا الحيوانات لن نكون شهداء، لكن لو قتلتنا طلقة أو قتلنا طيّار قادم من شيكاغو أو كاليفورنيا نصبح شهداء على الفور.. أليس هذا صحيحاً يا غصن البان؟».

استفقت من رعب المشهد الذي رواه للتو على وقع ذلك السؤال العويص. ولم تخرج الكلمات من فمي. لاحظ ارتباكي فأكمل:

«هل تعرفين أني كنت أحتمي بكم في الأوقات التي أضعف فيها!.. كنت أقوم باستدعاء أكبر قدر ممكن من الذكريات عنكم، لأنها تُشعرني بالحماية، تبني من حولي جداراً واقياً دافئاً، ففي ذاك اليوم الغريب الذي تحوّل إلى دهر، إلى زمان ومكان خارج قياسات الزمان والمكان التي أعرفها.. كانت الذكريات ملجأي.. وحدها ما يبعد عني الرغبة بالموت.. كنت أرى الموت راحة.. خلاص من ذلك العذاب الذي أعانيه لأسباب تافهة. كنت على يقين من أن اختفاء الذكريات في مثل تلك اللحظات يعني الاستسلام للموت. لهذا أغرقت نفسي فيها.. أدق التفاصيل، أحلاها وأكثرها مرارة. لطالما استحضرت الأموات، الذين

فقدناهم، وعشت معهم. ضحكت وبكيت وتكلّمت وصرخت ووافقت ورفضت... شيء واحدٌ كان يقلقني، لم أستطع تذكرهم في بيتنا. دائماً كانوا في مكان غائم. لذا عدت إلى البيت..

لم أعرف في حياتي أهمية الأسماء، وبأنها أول ما يستقبل الإنسان وآخر ما يرافقه إلى النهاية. من حلقة الاسم الذي نُعرف به في حياتنا، تكبر دائرة الذكريات المرتبطة بهذا الاسم، وبموت الإنسان يموت الاسم ويصبح مُجرَّد طيف من الماضي في ذاكرة الأشخاص الذين يعرفوننا، والذين سيموتون بدورهم بالتدريج.. كنت أريد منح تلك الذكريات، التي حرصت على جمعها من الزمن القديم، فرصة التألق للمرة الأخيرة، أن أراها تتوهج في سماء الصحراء كمجموعة مُبهرة من الشهب النارية، تخطف الأبصار.. ولتعم بعدها السكينة الأبدية. كانت الذكريات تمنحني شعوراً بأني فعلاً كنت موجوداً ولست حدثاً طارئاً في الحياة، وإلا ما معنى أن أكون موجوداً!

الغريب أنني وأنا أستعرض تلك الذكريات في رعب تلك الصحراء في ذاك الوقت العصيب، لم أحسّ بأي مشاعر عدائية أو تقزز أو خجل أو إنكار.. لا شيء! فاقتراب الموت يمنحنا مُتعة الغفران. شعرت بحب لجسدي المُمَدّد وتمنّيت عدم فقدانه في الصحراء.. تمنّيت لو حصل ومتّ أن تأكلني الجوارح والوحوش حتى آخر قطعة فلا يخدش جسدي الممزّق جمال الصحراء الأخّاذ وصمتها المُهيب الذي كنّا نُشوّهه بحماقة.. فوجودنا

نحن والحيوانات التي تتبع حركتنا، وحطام الآليات المتفحمة، والأسماء والجثث الكثيرة... كنت أراها كقِمامة لا تزول.. كنت أرى أننا في المكان الخطأ، وأننا لا نمتّ بصلة لبهاء الصحراء الغامض.. كنت على يقين أن الحيوانات، والشمس، والريح، والرمال.. وحتى الصمت، سيتولّون إزالتنا وتصحيح الأخطاء لكي يعود البهاء إلى حيث ينتمي فلا يبقى أيّ أثرٍ منا..

كلنا نملك شريط ذكريات نَستحضره ونختار صوره في عبث إلهي جميل.. قلت لنفسي إن كل شيء زائل وكل جسد إلى نهاية.. سأترك جسداً موزعاً في بطون الحيوانات البرية، أشلاء مُتناثرة تفصل بينها المسافات وكأنها لم تكن أصلاً.. وسوف تذروني الريح في الاتجاهات الأربعة، وتمنيت أن يكون قَدَر قلبي أبعد ما يكون باتجاه الشمال الذي طالما أثارني وأشعل نار الشوق بي..

الحمّى راحت تهاجمني على شكل موجات عنيفة تهز جسدي المُتراخي كما ريشة تعصفُ بها زوبعة أثارتها جياد آلهة غابرة. آلهة كانت في يوم ما تمرح هنا في هذا الجزء من العالم الذي شهد ميلاد كل شيء.. يوم كانت الآلهة تعيش بين مخلوقاتها.. وتتكلم معها. الآن أشعر بها، أجل الآلهة كانت قريبة مني!

الألم، الذكريات، موجات الحمى، عدائية الطقس، ظلُّ الموت الذي لا يُفارق، معارفي، تاريخي، أمنياتي التي لم أحققها، الآلهة التي عاشت هنا.. كل ذلك مكنني من امتلاك قدرات خارقة أو ربما تلبستني روح إله مُعذَّب.. في السابق كنت أعتقد بأن عقل الإنسان

هو الذي يحدد مساره، لكم كُنت على خطأ، كلنا على خطأ يا غصن البان.. حواسي بدأت بالتضخم، حتى صارت تقودني في النهاية، وليس عقلي. لقد أصبح سَمعي أقوى حتى صرت أظن أن أذنيّ كبرتا، وبصري الضعيف الذي أتعبني طوال عمري، أصبح حديداً، وأنفي قادراً على تمييز الروائح على نحو جعلني أشمّ رائحة أيّ جسم يقترب مني قبل أن أراه! باتت حواسي تتيح لي أن أسمع أصوات الحيوانات التي تفترس جثثنا، وأسمع قرقعة الأطراف تحت أسنانها والعظام التي تُطحن تحت أنيابها.. استلقيت على ظهري لأمتّع نفسي للمرة الأخيرة بمنظر السماء الزرقاء عندما أيقظت حواسّي كلها سُحابة هائلة من التُراب خطفت انتباهي وانتباه كل الكائنات المُتربّصة بالأموات والأحياء منا. وكان غراب كبيرٌ ينعق بالقرب مني، يلمع ريشه الأسود المدهون بزيت الآلهة مع كل حركة يأتي بها.. لم أكن أعرف أن النعيق المُبهَم هو لغة يتفاهمون بها في ما بينهم! لم أدرك ذلك إلّا عندما وجدت نفسي قادرةً على تفكيك ألغاز هذه اللغة.. فعندما حلّق الغراب فوقي ودار عدة دورات بطيئة، كتلك التي ما زال يمارسها منذ آلاف السنين، قال كأنه يوجّه كلامه لي: «إنها الجرذان..».

اقشعرّ بدني وأنا أغوص في كوابيس سلوان، مشاعر مُتضاربة بالحنو والشفقة والرغبة في الصُراخ بوجهه لإسكاته لأني لم أعد قادرة على الإصغاء إلى النهاية التي لا تلوح في الأفق.. لكنني كنت أريد أن أدوّن ما يقوله، أشعر بأني مسؤولة عن ذلك! لقد أصبحنا

كلنا جزءاً من كابوس هذا البلد الذي لا ينتهي، نتحرّك في داخله، نقوم بأدوارنا، ننام، نتكاثر، نتعبّد، نتذمّر، نتمنى.. لكننا في جوفه!

«لا أكتمك يا غصن البان أني، رغم كل الألم كنت بحالة أقرب إلى الفرح، فها هي الآلهة تمنحني قدرتها.. وها أنا أفهم لغة الطيور التي ظلت عصيّة ومُبهمة على بني البشر منذ أيام سيدنا سليمان الحكيم! أردت أن أرفع رأسي قليلاً لأتأكد من مجيء الجرذان وأنهم فعلاً المُسبب لهذه السُحابة الهائلة من التُراب.. لم أستطع، لكني رأيت عدداً كبيراً من القطط التي اتخذت من سطوح الآليات المُحطَّمة مواقع لها تتحرّك عليها بأناقة مُدهشة وهي ترفع رؤوسها باهتمام وتكوّر أجسادها وتموء بشكل مُخيف من جراء التحفّز والاضطراب. كانت القطط تنظر باتجاه السحابة الكبيرة وتظهر استعداداً للانقضاض على قطيع الجرذان القادمة من مستنقعات المُدن القريبة ومزابلها ومقابرها المُهملة.. قط هَرِمٌ رمادي اللون أصدر مواءً مُميزاً وصرخ ببقية القطط: «حذار من القيام بأي حماقة، هذه ليست مثل الجرذان التي تعرفونها وتعودتم على اصطيادها، إنها وحوش كاسرة قادرة بعضة واحدة على إهماد أنفاس الواحد منا، تجنّبوها فهي قذرة، مفترسة، وبدائية.. تتحرّك بأعداد كبيرة جداً.. لا نريد خوض معركة غير مضمونة العواقب..». ماءت القطط وأكّدت تلقّيها للأوامر كما استعدادها للقتال.. لم أكن أتنفس، خوفاً من جذب انتباه الحيوانات..

البرد بدأ يتسلل إلى أطرافي التي أصبحت كالرخام ويواصل زحفه

نحو قلبي، مع ذلك كان العرق يتصبب من جبيني. سمعت صوتاً شبيهاً بأصوات البشر، لكنه ليس بشراً! صوت يبدو آتياً من جبل بعيد ويتمدد على مدى الصحراء.. إنه نوح يصرخ بحزم: «الطوفان قادم.. خاطئون من لا يؤمنون به». كان الصوت صدى الصرخة الأبدية التي أطلقها نوح هنا في هذه الأنحاء منذ آلاف السنين.. صرخة لا تتبدد في الفضاء ولا تضيع في العدم.. كانت تتردد في نفسي: (الطوفان.. الخلاص!).

تداخلت في عقلي الأزمنة، هل جاء الطوفان..؟ هل أنا أسمع وقع ذبذبة صوته الهادر المُنذر الذي يدوّي مُنذ الأزل.. ظل جسدي ينتفض بتأثير الحمّى التي لا ترحم والعرق المالح ينزل على شفتيَّ المُتيبّستين..

رائحة النتانة تُعلن عن اقتراب الضِباع مُجدداً.. أحدهم كان يتحدث والآخرون لم يكونوا يُعيرونه اهتماماً حقيقياً.. كان يحدّثهم عن روعة وليمة الأجساد النابضة بالحياة، ولذة اللحم الطازج الحار.. تساءلت عمّا إذا كان هناك أحياء غيري؟ تمنيت لو أن بقربي رفيقاً يمكن أن يؤدي لي الخدمة التي أديتها لذلك الجنديّ! كانت الرائحة تقترب مني أكثر فأكثر.. تمنيت لو يمسكني من رقبتي فيحوّلني إلى جثة بقضمة واحدة.. يقولون إن عضّة الضبع قادرة على تفتيت العظام.. لكن لا، سأطلب منه.. سأرجوه أن يبدأ برقبتي.. اقتربت الرائحة أكثر.. كان ضبعاً كبيراً مخيفاً صغّر عينيه الصفراوين ومطّ رأسه وكشّر عن أنيابه.. خلفه كان ضبع آخر صغير يسأله: «هل هو حيّ أم ميت؟». قلت: «بل أنا حيّ وأنا وليمتكم

ولست خائفاً، فقط أطلب موتاً سريعاً صرت أشتاق إليه».. عندما سمع الضبع الكبير كلماتي وقف في مكانه، نظر إليّ ثم استدار نحو الصغير ودفعه إلى الخلف!!

غبت عن الوعي.. أفقت على صوتٍ قبيح جداً كاد يُثقب أذني وهو يصرخ في القطيع الهائل القادم من أعماق الجحيم: (إنه خائف، طوّقوه، أعلم يقيناً، بالإحساس الذي وهبنا إياه الرب حتى نتنبأ بالزلازل والسفن الغارقة، أن هذا الإنسان خائف فطارِدوه بلا هوادة، سيقاوم، انقضّوا عليه بأسنانكم، أدموه، فمنظر دمائه سيزيد من فزعه).. سمعت عواءً وحشيّاً لجندي لم يُهزم بعد وما زال يبحث عن نجاة.. صوت مُرعب لا إنساني... رأيته يقع مستسلماً ويتلقى باستكانة مؤلمة عضات الجرذان التي تثقب الحديد.. حاولت أن أرفع رأسي لأرى ما الذي يحدث بالضبط، لكن قواي لم تُسعفني، فهوى رأسي على الأرض الصلبة ورحتُ أتوسل إلى إله الجرذان أن يأخذ روحي بطريقة أكثر رحمة..

مئات الجرذان كانت تنهش جسد الجندي وهو يئنَ ومقاومته تتلاشى.. كانت أعدادٌ متزايدة من الجرذان تحوّل جثته إلى مُجرد هيكل عظمي وسط بركة من الدماء بدأت باحتلالها أسراب من النمل الفارسي الذين صاح أحدهم: «اختزنوا ما تستطيعون من لحوم الجيش المهزوم». تساءلت: لكن أين أنت يا سليمان الحكيم؟ أيّ مهمة أوكلتها إلى جيشك هذا؟

الغراب الذي كان أول مَنْ فهمت كلامه، قال لصاحبه الذي

تلطخ منقاره بالدماء وهو يزدرد قطعة من اللحم كان يرفعها إلى الأعلى ثم يفتح منقاره على نحوٍ سريع وأنيق لتدخل إلى جوفه شاعراً بالسعادة.. (اللعنة.. لماذا تأخر سربنا، أين الغربان الأخرى، ستفوتهم الوليمة؟).. ردّ الغراب الآخر (الموتى في كل مكان، لقد تحول الجنوب كله إلى مقبرة)».

كانت التعابير على وجه سلوان تنقله من حالة حزن إلى أخرى. فكرت أن اقترح عليه هدنة أو أي شيء آخر ليوقف سيل تلك الهلوسة المُخيفة، لكنه لم يكن يبالي بأي حركة أقوم بها، حتى صرت أظنّ أن إنصاتي ما عاد يهمّه.. يريد أن يُفرغ ما في رأسه من صورٍ تضغط عليه ولا شك.

لكني، من جهتي، كنت أريد أن أواجهه. أقول له إن هذه هوامات ناتجة عن الحمّى. تخيّلات تأتي من ذلك المكان الذي طالما شغلك. إنما خفت أن أُبعده عنّي إن فعلت. فضّلت أن أحتمل وأتركه يكمل عسى يصل في حكايته إلى مكان طالما بحثت عنه ولم يقدّم لي جواباً: كيف خرجت من هذه المحنة يا سلوان؟

«القط الرمادي المُتكاسل قام من مكانه مقوّساً ظهره كأنما يجري تمرين تحمية للمعركة القادمة. التفت إلى الوراء، وبدا كأنه يعبّر عن سعادته من منظر تلك الأعداد من القطط التي كانت تنتظر منه إشارة البدء للقيام باستعراض للقوى. سرب لا نهاية له. انتشى وهو يُطلق مواءً يشبه صرخة عجوز شمطاء تمتهن خطف الأطفال لتعيش على دمائهم، تعالى بعدها المواء الموحَّد الرهيب من بقية

القطط. انطلق الموكب المهيب خلف ذلك القط الرمادي كطابور الساحرات في جهنم..

كان يوماً غريباً لكن لا أحد يريد أن يُصدقني، يوماً لا ينتمي إلى زماننا، بل يبدو وكأنه انبثق من الماضي السحيق..

عادة يكون الألم إشارة إلى الحياة، فالأموات لا يتألمون كما تعرفين. لهذا كنت سعيداً بآلامي التي عندما تهدَأ قليلاً أشعر بالقلق وتلاحقني أسئلة غريبة عن المكان الذي سأذهب إليه؟

سحب ضبع جثة كانت غير بعيدة عني، فشعرت بأني أتقدّم خطوة في طابور الموتى، أيقنت بأني في النهاية سأقف في أوّل الصف!. تذكرت أيام كان أبي يأخذنا معه إلى سوق المواشي التي كانت تقام بصورة عشوائية في كل أرجاء المدينة مع اقتراب عيد الأضحى! هل تذكرين يا غصن البان؟».

«....»

« الحيوانات التي كانت تقف في طابور الموت، تعرف أنها ستُذبح! ونحن نعرف، ونعتبر أنه لا بد أن تُذبح حتى ترتوي المدينة من الدماء ويُشبع سكانها نهمهم للحوم.. وهي أيضا تعرف بأنها قد خسرت معركة البقاء ويتحتم عليها الآن الوقوف في الطابور.. هكذا كان شعوري.. لكن مَن الذي نظّم لنا، نحن الذين نقف في الصفّ في تلك الصحراء البديعة، طابور موتنا..؟».

كنا نسمّي تلك الحيوانات «الأليفة» أضحيةً. أضحية نقدّمها

لنغسل ذنوبنا! وكلما كبر الحيوان المُضحَّى به، كلما غسلت دماؤه الغزيرة الذنوب الكبيرة.. هل تعرفين أن البابليين عندما كان يحل بهم الجفاف أو الطاعون أو يهدد وجودهم عدو قادم من وراء الحدود، يُكثرون من الذبائح وبوتيرة سريعة حتى تصل رائحة الدماء إلى أنوف الآلهة الساكنة في السماوات العليا، فيستجيبون لتضرّعات رعاياهم وينقذونهم من مصيرهم الأسود.. هذا ما فكرت به عندما كنت هناك، على «طريق الموت». كنت هناك في تلك البقعة الجغرافية التي مُورست فيها تلك الطقوس مُنذ آلاف السنين. كُنّا بالقرب من «أور» التي تسمى الآن بذلك الاسم القبيح «الناصرية»!.. لكن يبدو أن الآلهة قد هجرت مرابضها القديمة ورائحة دمائنا لم تعد تعنيها!.. العدم هو مصيرنا.. أليس كذلك؟».

كانت الكلمات تندفع من فمه وكأنها قد حُبست مُنذ زمن بعيد وتنتظر الإفلات. يتكلم بطريقة سريعة غير طبيعية، بل تبدو في كثير من مقاطعها الصوتية، غير إنسانية! كان مثل آلة اتوماتيكية بلا مشاعر وبلا إحساس لا تميّز قوّة أو ثقل الكلمة أو وزنها أو حتى أهميتها.. هذرٌ محيّرٌ في قسوته وعدم إنسانيته. وأنا أكتب الآن ما يسرده عليّ أُصاب بإعياء وتردد.. لأول مرة أشعر بالخوف من بقائي وحيدة معه في تلك الصالة الكبرى التي بدت لي أنها تشبه متحفاً أو مقبرة تُخيّم عليها هيبة اللوحات السبع التي لم نعرف سر تعليقها من قِبل جدنا أو جدتنا على هذه الجدران! هل أنا فعلاً مع أخي الذي أعرفه منذ الولادة، أم مع غريب قادم من مكان مجهول

لا أعرفه! عندما كان يتحدّث وتزوغ عيناه في البعيد، يُطاردني سؤال مُرعب.. من يكون هذا الشخص الجالس أمامي الآن؟

«كنت أرقب ذات عيد، ثوراً كبيراً يُصرّ أبي على شرائه كل عام، وهو يُذبح من قبل القصّابين الذين يتفجر من عيونهم غضباً غير مفهوم بالنسبة إليَّ، رغم أن المسكين قد استسلم بدعة من آمن بالقدر ولا يُبدي أي رغبة في المُقاومة، عيناه الكبيرتان الدامعتان تبحثان عن الخلاص في عالم آخر لا نراه.. يتلونَ عليه الآيات بضجر وعجلة وأحياناً يختصرون..

من بلعوم الثور يصدر صوتان مُتوازيان، الأول ينطلق من فمه المُزبدة برغوة بيضاء، والثاني من رقبته نصف المجزوزة حيث يتصاعد منها بُخار دمائه الحارة المُراقة بغزارة على إسفلت الشارع ويصبغه باللون الأحمر القاني.. عندها ترتسم علامات الفرح البربري على وجوه الجميع في حين يهمد جسد الثور مستسلماً لإيقاع الموت».

لم تعد لديَّ القدرة على مُقاومة الغثيان المُتصاعد في داخلي، ولا على الإصغاء لكل هذه التفاصيل اللانهائية. قلت له إنني أقترح أن نؤجل بقية الحكاية إلى الغد. لم أستطع أن أسأله السؤال الذي يلحّ عليَّ عن نجاته.

«لقد كان سبب تقاطر الحيوانات علينا هناك بهذه السرعة وبالطريقة الغريبة من الجهات الأربع، هو رائحة الدم المُراق! رائحة بقايا الجيش المهزوم! وكان عليّ أن أتقبّل، أو الأحرى

أستسلم لمصيري كأضحية! كان عليَّ أن أكون الثور المُضحَّى به! ولم أكن لأعارض.. لكن ما كان يجعلني أتراجع كلما هممت بالاستسلام هو السؤال الذي ينخر في رأسي: أضحية من أجل ماذا؟ أمن أجل أن ينتصر ذلك الجيش المهزوم؟ كيف ذلك وقد مات معظم رفاقي، وهم يفرّون في تلك الصحراء، من الجوع والعطش، أو من رصاص أولئك الأوباش الذين راحوا يلاحقونهم بتهمة الفرار؟؟ كان المنظر غريباً وشاذّاً.. تحالف تلك الحيوانات مع كل أولئك الذين راحوا يلاحقوننا في الصحراء! جيوش من كل مكان في الدنيا جاءت لتحرّرنا فلاحقتنا وأعملت آلاتها الفظيعة قتلاً وتمزيقاً في أجسادنا؟ قيادة تصرّ على أن موتنا هو النصر على الغزاة الطامعين وبالتالي لنمت جميعنا؟».

هل تعلم يا سلوان أنك قد قصصت علينا جميعاً هذه الحكايات لعدة مرات، هل تعرف هذا؟ لكنك لم تخبرنا ولا لمرة واحدة كيف نجوت من تهلكة الحيوانات التي أجبرتنا على أن نُعيد اكتشافها، فحتى كلبنا الوفي «جيفارا» بدأ يُشعرني بشيء غير مريح عندما يُطيل النظر نحوي، وتنهال عليَّ أسئلة لم أكن أفكر بها من قبل، تبدأ بسؤال «ماذا لو كان هناك؟»، أعني على طريق جثث الجيش المهزوم، هل كان سيشارك في عملية تمزيق الأشلاء وهو الكلب المُتحضّر! ماذا عن ببغائنا الأبيض الجميل «بافاروتي» الذي جلبته جدتنا من البرازيل، والذي أمضت أختنا رباب سنوات طويلة لتُعلمه كلمة «مرحباً» وهي الوحيدة التي يجيدها من قاموس

البشر! هل يُمكن أن يتصرّف كما ذاك الغراب اللعين الذي حدثنا عنه سلوان وهو يقذف قطع اللحم في الهواء ثم يفتح منقاره ليزدردها ويتذمر؟ هذا شيء لا يمُكن أن أتخيله أبداً..

كانت عيناه مفتوحتَيْن على اتساعهما.. لا ترمشان.. كانت ملامحه تشير إلى الانزعاج وأنا ألمّح لعدم مصداقية حكايته. صمته ونظرته جعلاني أفكّر في احتمال أن يكون على حق.. أحياناً يكون من السهل علينا دفن رؤوسنا في الرمال وإدارة ظهورنا للحقيقة عندما تدق بإلحاح على أبوابنا.. لكني كنت مُصرّة على السؤال الذي طالما تجاهله: «لماذا لا تُخبرنا كيف نجوت؟ كيف سأقبل حكاياتك المتكررة، التي يصعب تقبّلها إن لم تخبرني مَنْ أنقذك من تلك التهلكة؟ أو كيف أنقذت نفسك وأنت غير قادرٍ على الحركة؟».

استمرّ محدّقاً بي. تحوّلت نظرته إلى ما يشبه العتاب.. وقال: «ما رويته وأكرره، هو بالنسبة إليّ الحقيقة التي عشتها، وسترافقني إلى آخر أيام حياتي، ولكي لا أطيل عليك أكثر، لا أعرف من الذي أنقذني.. لا أذكر..!».

كُنت أشعر بأني قريبة من انتزاع نهاية كابوسه، التي ربما لو تذكرها أو امتلك الجرأة على سردها، سينتهي هذيانه.. لهذا واصلت الضغط عليه رغم تأكدي من أن ذلك يُعذّبه.. أرجوك أخبرني ماذا حصل، كيف خرجت على قيد الحياة!

اكتسى وجهه بتعابير مُتناقضة. زمّ شفتيه وأغمض عينيه. لم

أستطع قراءة ما سيفعله.. لكني كنت شبه متأكدة أنه لم يغضب. في الماضي عندما كان يغضب كنت أرى ذلك بوضوح. كان يكزّ على أسنانه. أما الآن فلم يفعل ذلك.. لم أعد أفهم ماذا سيكون ردّ فعله. قلت له: «أنا أكتب سيرة هذا البيت وأهله، الذين ماتوا وانقطعت سيرتهم، وبات بإمكاني أن أكتبها حتى خاتمتها. رباب وبلقيس صارت لهما سيرة أخرى في بيوت أخرى. لم يبقَ سوى أنا وأنت.. هيا أخبرني». اعتقدت بأن صمته سيطول وفي النهاية لن يقول شيئاً.. لكنه فجأة فتح فمه وراح يتكلم بصوت رقيق مُستسلم..

« كانت الظلمة تزداد في عينيّ، بل في أعماقي. التعب من الحياة وصل إلى آخر مداه، تماماً كالثور الذي ينتظر خلاصه. أصبح مُجرد الوجود على قيد الحياة عبئاً كبيراً، بل صار عذاباً لا يُطاق.. ملامح الأشياء التي اعتادت عيناي على رؤيتها بدأت بالذبول، بالتواري، بالتلاشي البطيء.. السماء، الأرض، المخلوقات المُتوحّشة، بقايا الجيش المُنكسر، كل شيء.. وراح يحلُ محلها أشياء جديدة لم أرها من قبل! أسمع أصواتاً جميلة تترنّم بلحن لم أسمع مثله من قبل، لحنٌ مُريح، مُخدِّر، كشلال ضوء يغسل روحي المُتعبة، مواكب من كائنات شبحية بأعداد مهولة ملأت المكان، أشعر بوجودها الكثيف لكني لا أستطيع أن أحدد ملامحها، أطوالها مُتباينة، يجمعها شيء مُشترك لا أستطيع تسميته على وجه الدقة، أجسادها لا توصف، تبدو كأنها تفتقر إلى الكثافة التي نتمتّع بها

فيخترقها الضوء بين الفينة والأخرى.. أصواتها، موسيقاها، جمالها الغرائبي، الضوء المُبهر الذي تلعب به.. كانت تتوافد من كل مكان ومن اللامكان.. امتلكني يقين بأن هذه الكائنات قادمة نحوي، بل بدأت أنتظرها بلهفة لا توصف، لا بد أنها جاءت لتأخذني معها، أريد أيضاً أن ألعب بالضوء.. كانت هذه الكائنات تجذبني.. فأقاوم الاستسلام لتلك الكائنات المُفترسة من حولي، بل إن جحافل النمل بدأت تحفر الأنفاق تحت جسدي الذي كان يستعد للتحول إلى جثة.. تنتظر مني ألّا أقاوم! المقاومة كانت عبثاً لا طائل منه وتمرّداً على المصير. أن تغفو عيناي ويُسدل عليها الجفن المُتعب إلى الأبد.. هي الإشارة.. التي تعني شيئاً واحداً مُحدداً للمنتظرين.. بدء عملية نهب جسدي، إنهاء مقاومتي. بدا لي أن تلك الكائنات، الشبحيّة المضيئة والمفترسة، تتصارع على مَنْ سيأخذني في النهاية.. لم يعد يهمّني سوى وضع نهاية للألم.. جسدي هو قذارتي التي أريد التخلص منها.. كنت أُمنّي نفسي برؤية سيدنا نوح قبل النهاية، مارداً عظيماً قادماً من عمق الصحراء، رأسه في السماء وأطرافه مغروسة في الرمال، يحمل فُلْكه على كاهله، ويبحث عني..».

عندما صمت للحظات لم أستطع أن أمنع لهفتي الطالعة من قهري، فسألته: «وماذا بعد؟».

«لا أعرف.. بل لم يكن بإمكاني أن أستوعب أو أفكر!.. بدأت أحسّ بأحاسيس لم أكن أعرف أنها موجودة أصلاً فيّ، تتقاذفني

أمواجها العاتية في وهج الصحراء الشاسعة، أحاسيس جعلتني في حالة توقّد تكمن فيها حكايتي.. عمري.. تعيش فيه وتحيا.. لم أعد صاحب القرار.. كنت منهكاً، جائعاً، متألّماً، عاجزاً... فكيف أقاوم؟ بل لماذا أقاوم... استسلمت...».

«لكنك خرجت حيّاً!! بالله يا سلوان أخبرني كيف خرجت حيّاً؟ أرجوك دعني أنهي حكايتنا قبل أن ننتهي أنا وأنت...». أردت أن أقول «برصاصة» لكني صمتت.

قال: «أنت تنتظرين أن أنهي الحكاية بالمقاييس التي تتمسّكين بها.. تظنين أن للحكايات نهايات مفرحة أو محزنة.. تقيسين كلماتي ومدى صدقها بميزان عالمكِ.. لا تقبلين بوجود عالم آخر غيره!».. صمت قليلاً ثم نادى جيفارا. رجوته أن يكمل، أنَ يخبرني حتى ولو كانت تلك الكائنات التي لا أؤمن بها هي التي خلّصته، أو حتى النبي نوح.. رجوته قائلةً: «لكن فقط أخبرني، بعد أن غفوت، أو استسلمت، أين أفقت؟ أين وجدت نفسك؟».

لكنه راح ينادي على «جيفارا» ويبحث عنه، يتهرّب من مواجهة لا يرغب فيها.. لماذا لم تفترسه الكائنات والحيوانات الناطقة؟.. كيف عاد من أرض العبث بحصيلة الجنون والهذيان؟ أعرف أن هذه التساؤلات هي قسوة منيّ، لكن أليس هذا ما نفكر به جميعاً بصمت مُنذ أن رجع من هناك، ألم يكن موته خلاصاً أرحم من عودته الناقصة هذه! لمعت الكلمات كنصل سكين في قلب الظلام.. موته.. خلاصنا!!

حاولت أن أقوم، أن أخنق، أمنية خطرت في خيالي.. موته!

سلوان شديد التعلّق بي، سواء كان يعتقد بأني مُنقذته من هلاك كوابيسه التي تطارده أم لا، لكن ماذا عن كوابيسي أنا، من الذي يستطيع أن يُخلّصني منها؟ ماذا عن المخلوقات الغريبة التي تحاصرنا ليل نهار كما حاصرت القديس أنطونيوس! القصة الدينية كانت رحيمة بقديسها وأنقذته. الحكايات تحتاج دائماً إلى أبطال، لكن ماكس إرنست لم يُخبرنا بالنهاية التي اختارها لقديسه المُحاصر بين الأنياب الفتّاكة في اللوحة، ورحل.. سلوان ليس بطلاً، فالشعوب المهزومة بلا أبطال!

مرات أظن أن كل كلام سلوان عن قدرته الخارقة على التحدّث مع الحيوانات قد تكون صحيحة، فهو يصادق جيفارا ويتحدّث إليه طوال الوقت، و«جيفارا» يقعي أمامه مسترسلاً يهمهم بين حين وآخر أو ينبح نباحاً هادئاً. فلربما كلاهما يهربان من كائنات مُرعبة في لعبة شيطانية لا تنتهي.. توقفت عن الكتابة. كانت بي رغبة في الجلوس الأبله هكذا إلى ما لا نهاية بانتظار شيء لا أعرف ما هو! أحتاج إلى زمن يسير ببطء حتى أتخلّص من حالة البلبلة التي أنا عليها الآن. أحتاج إلى أن أنفض مشاعري بعناية، أن أغسلها بالنقاء الذي بدأ يشحُّ من حولي، وأشطفها من القذارة التي علقت بها.. أعلّقها على حبل تشعُّ فوقه شمس بغدادية حارقة لتُطهّرها من آخر ما علق بها من هلوسات مُخيفة!

الأيام تتساقط في هذه المدينة بلا ضجيج، تموت بسرعة ولا تترك وراءها سوى الرماد. أما الحياة اليومية فهي هشّة، قابلة للكسر، محاطة بالكذب، والخوف.. أنا أنزوي هنا بين أشباح تأتي من ماضٍ سحيقٍ ممحوٍ، فصول أرّخ لها الأجداد وتركوا لنا أن نكمل ما بدأوه.. أن نكتب حياتنا بقدر ما تستحق.

لم تكن بي رغبة لمغادرة الصالة الكبرى، فبين أشباح الماضي أعيش بطمأنينة رغم علمي الأكيد أن مملوكة لا تزال تقف وراء الباب حتى بعد أن ذهب سلوان باحثاً عن «جيفارا».

يبدو أنها لم تستطع أن تصبر أكثر. أعرف أنها خلف الباب. أشعر بحركتها، فهي حين تريد شيئاً تصبح قلقة وتقوم بحركات بتّ أعرفها جيداً. قلقها هذه المرّة شديد ومتوتّر فلم تستطع انتظار استجابتي. نقرت على الباب طرقتين سريعتين ودخلت بشكل عاصف.. وقفت أمامي وفي عيونها الأسئلة العقربية التي تنتظر الإجابة مني! لكنها لم ترَ أمامها سوى كائن مهزوم يشبه كومة أشياء بالية ويضع أمامه قلماً وحُزمةً من الأوراق.. لم تطق صمتي الذي ظللتُ مُتمسكة به رغم عقارب أسئلتها السامة.. الصالة شبه مُعتمة بعد أن سقط النهار كذاك الذي وعدنا فيه كافافيس في رحلته المُضنية للبحث عن أتيكا! عندما لاحظت تمسّكي بالصمت قالت: «عليّ أن أذهب، هل تريدين أن أحضّر لكِ شيئاً؟».

استمرّيت على صمتي. بدت مُتردّدة، مُتوترة، قلقة.. فتحت فمها على استحياء هذه المرة وقالت: «غداً في الساعة الحادية

عشرة سيأتي ضيوف يريدون التحدث معك في موضوع يهمّكِ، كما قالوا، وقد حضروا قبل حوالى الساعة، لكني لم أرد أن أقطع خلوتك مع سلوان.. وعندما امتدت الخلوة قرروا المغادرة وأبلغوني أنهم سيحضرون غداً في الحادية عشرة صباحاً».

تركت الباب وراءها مواربا بعد أن خرجت، لم تغلقه، كأنها تقول لي: «هيا كفى أنتِ الأخرى، اتركي غرفة الأموات هذه». هكذا اعتادت مملوكة أن تُسمّي الصالة منذ أن ماتت والدتي.. لكني ظللت جالسة لا أعرف إلى متى.. لا مبالاة المدينة بالزمن وأهميته بدأيا تتَسللان إليّ، فصِرتُ مثلها مُصابة بالخواء..

Telegram: Somrlibrary

الاختفاء

(آرنولد بوكلين)

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

بالأمس نمت جيداً بعد تناول العشاء مع أخي سلوان على غير المُتوقَّع.. لاعبت «جيفارا» قليلاً كي لا أشعر بالذنب لإهمالي الطويل له، ذهبت إلى الفراش وأنا أشعر بنوع من الخفّة النفسية والجسدية.. لم أفكر بأولئك الزوار الغامضين الذين أخبرتني عنهم مملوكة إلّا عندما لاحظت في الصباح أنها تذرع أنحاء القصر بعصبية واضحة.. أحببت أن أعزو كل ذلك إلى قلقها وخوفها من الرسالة التي كانت كل محتوياتها.. طلقة ورقم! لكن بدا لي أن في الأمر شيئاً تعرفه ولا تريد البوح به إليّ.. فما كان من عاداتها، عندما يقترب منها «جيفارا» أن تنهره وتُبعده وهي التي تهتم عادة بإطعامه وملاعبته لبعض الوقت قبل أن تبعده نحو الحديقة بلطف وتطلب منه، ساخرة، أن يتقصّى آثار الأرواح الشريرة التي تحاول الاقتراب منا ومنعهم من الدخول!

لم تبادلني أي كلمة رغم حرصها على أن تكون بالقرب منيّ، هل كانت تنتظر أن أصارحها بقلقي أو خوفي أو أي شيء آخر! حتى سلوان الذي تُحبّه كثيراً، لم تجلس أمامه قليلاً كما اعتادت حيث تُقرفص وتسند ظهرها إلى حائط الشُرفة الكبيرة المُهملة،

تضع سيجارتها في فمها شبه الخالي من الأسنان، تسحب روح النار وكأنها تُريد ابتلاعها، وتبدو لمن ينظر إليها من بعيد كما لو أنها تُصغي إلى هلوسات سلوان، لكنها في الحقيقة لا تفعل، بل تعتبر أن ما تفعله هو جزء من واجبها تجاهه مُنذ أن عاد أخي من «هناك» من دون عقل..

أحياناً أشعر بتأنيب الضمير لأني لا أعرف عن هذه المخلوقة التي تربّينا على يديها، أي شيء سوى أنها موجودة بيننا بمرتبة تفوق بقية الخدم الذين كانوا يشتغلون عندنا. لكن من هي بالفعل؟ هذا سر لم أسع أبداً إلى معرفته.. بالتأكيد أن أمي، التي ماتت مُنذ زمن بعيد، كانت تعرف عنها أكثر بكثير مما أعرف.. هل كانت سعيدة بيننا وهي لا تتوانى عن تلبية طلباتنا فتسارع إلى تنفيذها؟ لا أعلم. أعرف أنها موجودة في حياتنا على نحو لا يُمكن الاستغناء عنه..

اليوم عندما وضعت الإفطار أمامنا، لم يكن ذلك كما العادة، أسألها عن المربى فتسارع إلى جلبه من دون أي كلمة وتضعه أمامي بشيء من العصبية. عصبيتها تلك جعلتني أتجاوز عن سؤالها عن سبب برودة الخبز، أو طبخ البيض بطريقة لا أحبها، أو عن السُكر الأسمر الذي اعتدت تناوله مع شاي الصباح. هذه أشياء لم تكن تحدث لها من قبل.. حتى رائحة جسدها كانت غريبة هذا اليوم، فلجسد مملوكة رائحة مميزة لا أعرف كيف أصفها، لكنها تُذكّرني بالصبر..

ملامحها، كما أبو الهول، لم تتغير منذ تعلمت عينايَ حفظ

الوجوه والأصوات والأشياء.. فقط تغيرات بفعل الزمن لا نلحظها عادة عند الذين نراهم كل يوم. أتذكّرها جيداً، فهي لم تنجب أطفالاً ولا أذكر أني رأيتها تبادل جواد، زوجها، الحديث الحميمي، بل أحياناً يبدو لي أنها تتعمد إذلاله بإصدار الأوامر له بتشذيب الحديقة أو تلقيح الأشجار المُثمرة.. تُلقي أوامرها بكثير من الجفاء ثم تنصرّف وكأنها تُحدّث رجلاً غريباً، وهو يكون حريصاً على تنفيذ ما تطلبه منه من دون أي كلمة أو اعتراض! لا تأكل معه، بل تحمل له طعامه إلى الحديقة وتجلس إلى جواره، تُدخّن بشراهة من دون أي تبادل للحديث، لم أرها تبتسم له أو تداعبه بنظرة أو حركة.. لا شيء! علاقة غريبة بين زوجين طال زواجهما.. كانت تبدو قاسية معه، على الرغم من أنها لم تكن قاسية مع أحد إطلاقاً.. كانت ترتدي ملابس فيها الكثير من الألوان المُبهجة قبل أن تتحول إلى الأزرق القاتم ثم إلى السواد الكامل، وتكتسح وجهها تقطيبة عابسة مُكثّفة حول زوايا الفم..

أذكر أن جدّي قد أقام مرة، حفلاً ضخماً في الحديقة، دعا إليه الكثير من الضيوف من جنسيات مختلفة. وتمّ نصب مسرح حتى تعزف من فوقه فرقة موسيقية استمرّت تعزف حتى ساعات الصباح الأولى.. رقص المدعوون واحتسوا الشراب وأكلوا من الموائد الطويلة المنصوبة على حواف الحديقة المُضاءة بشكل مبهر..

حدث ذلك بعد عامين من سحل الملك الشاب في شوارع المدينة التي بدأت تشهد صعود البربرية التي راحت تعمّم ثقافة

القتل.. كان جدي يُريد، بهذا الحفل الكبير، إعادة الحياة الطبيعية التي توقّفت بعد هذا الحدث الجَلَل، وتنظيف آثار الدماء التي لوّثت سكان المدينة كُلهم، سواء كفاعلين ومؤيدين أو مُشاهدين ومرعوبين. أقام الحفل على الرغم من أن شوارع المدينة كانت لا تزال تُردّد الصراخ العالي لجحافل الغوغائيين الذين ملأوا الفضاء بشعارات الموت والكراهية والرثاثة الفكرية..

مملوكة كانت هي المُشرف والمنظّم الفعلي لهذا الحفل. كانت حاضرة في كل مكان مُلبية طلبات هذا العدد الكبير من المدعوين، تتحرّك بنشاط كما لو كانت نحلة، وقد شهد لها الكُل بحُسن وكفاءة إدارة هذا الحدث المميّز.. أهدتها أمّي بعد الحفل خاتماً ذهبياً وضعته مملوكة في خنصر يدها اليُسرى ولا يزال في مكانه حتى الآن..

أذكر كيف سحبتنا من أيدينا نحن الصغار وقادت كل واحد منّا إلى غرفته. كنت أنا الأكثر عناداً وشغباً من بقية إخوتي. لقد رفضت الذهاب معها وأصررت على حضور الحفلة إلى النهاية، وهذا لم يكن وارداً بالطبع.. لم تكن قاسية معي، بل حملتني برفق، وبعد أن وضعتني في الفراش قالت لي بدفء لا زلت أحلم به «لا فائدة من العناد يا حبيبتي، يجب أن تنامي الآن وعندما تكبرين ستكونين أنتِ أميرة الحفلات».. أغلقت الباب وغابت، لكن صدى جملتها المُترعة بالوعود بقيَ في أذنيّ. مع ذلك لم

أستطع النوم ليلتها. فبعد أن أُطفأت الأضواء في جناح النوم قفزْتُ من الفراش واتجهْتُ نحو النافذة المُطلة على الحديقة، وكانت غرفتي في الطابق الثاني. أزحت الستائر فغمرتني الأنوار القادمة من الأسفل حيث المدعوّون من الرجال والنساء بأبهى الملابس والمُجوهرات التي تتلألأ حول أعناق السيدات ومعاصمهنّ. كانوا مُقسَّمين إلى مجاميع صغيرة هنا وهناك، يحملون كؤوس الشراب وحلبة الرقص ملأى بأجساد رجال ونساء يتمايلون ويرقصون على أنغام موسيقى رائعة ما زالت ترنّ في أذنيّ، كما ما زالت ذكريات تلك الليلة في بالي.. أردت أن أكبر بسرعة خُرافية حتى أنال شرف البقاء في حفل جَدّي الباهر، وسط هذا الفيض الجذّاب من الأنوار التي كانت تُكثّف الظلمة المُحيطة بالقصر الكبير وتُضفي على غابات النخيل المُحيطة بنا منظراً غريباً.. كانت رؤوس الأشجار تبدو لي كأشباح مخيفة تأتي من مكان خلف تلك الغابات. أشحت بنظري عنها وعدت إلى الحفلة حيث كانَ جدي المُتألق يتحدث مع مجموعة من الرجال وتتوسّطهم امرأة أجنبية نحيلة رأيتها تذهب مع والدي إلى حلبة الرقص.

مع توالي السنوات صرت على يقين حزين، بأنيّ لن أكون أميرة الحفلات كما وعدتني مملوكة، وأن هناك من سيحول بيني وبين اللقب الذي منحتني إياه في تلك الليلة!

كانت الأشباح التي تأتي من خلف غابات النخيل التي تم قطع

معظمها لتحلّ محلّها أبنية خاليةٌ من أيّ ذوق تتكاثر في فوضى بشعة وتحوّل تلك الأيام إلى ذكريات لا أمل في استعادتها.

بالفعل، كانت هذه الحفلة هي آخر حفلة من نوعها، فقد توفّي جدي بعدها بعام ولحقت به جدتي بسرعة غير متوقّعة.. مُنذ تلك الليلة، وأنا لا أزال أتخيل المدعوين، وهم يملأون العتمة الحقيقية بألق افتراضي.. مُنذ ذاك لم أعد شخصاً واحداً، بل اثنين.. غصن البان التي كانت تتوق إلى المشاركة في مثل تلك الحفلة، وأخرى تستعيد الخوف من تلك العتمة المُحيطة بالمُحتفلين كنبوءة سوداء ما زالت تخاف منها. منذ ذاك اكتشفت خطر العتمة التي راحت تتمدد حولنا وتزحف ببطء قاتل.. تخطر على بالي «تيامات» آلهة العمى والظلام في أسطورة الخلق البابلية!

بالنسبة إليّ كانت تلك الليلة آخر الليالي الشهرزادية.. بعد تلك الليلة بعام تعرّفت لأول مرة على الطعم المرّ لمعنى جديد في حياتي: الفقدان.. كان عليّ التأقلم معه والتعوّد على طعمه المتكرّر والذي يزداد مرارة مع كل فقد!

جمعت أوراقي التي كتبتها بالأمس وقبل أن أدخل إلى الصالة الكبرى لمواصلة الكتابة، نَبّهت على مملوكة ألا تدع أحداً يقاطعني. بالتأكيد لم أكن أعني سوى سلوان و«جيفارا».. نظرت مملوكة نحوي ببلاهة وشيء من الاستنكار، ثم نطقت بكلمة واحدة وبنبرة بدا واضحاً فيها نفاد الصبر: «الضيوف».. كانت

الكلمة الوحيدة التي نطقتها هذا الصباح.. تذكّرت الموضوع لكني لم أعره أي أهمية ولا أدري لماذا!

دخلت إلى الصالة وأغلقت الباب خلفي ورحت أقلّب في أوراقي. بعد أكثر من ساعة قررت التوقف لأخذ استراحة. جلست أمام لوحة «جزيرة الموتى» للرسام السويسري آرنولد بوكلين. كنت أتأملها بسرور حين اقتحمت عليَّ مملوكة عزلتي كما الإعصار، ومن دون أن تُكلّف نفسها عَناء الطرق على الباب هذه المرّة. كانت متوترة كأنها تنقل خبراً شديد الخطورة، وقالت بصوتٍ بدا لي مُرتجفاً من شدة الانفعال: «لقد وصلوا».. استغربت سلوكها لكني تغاضيت عنه على الرغم من انزعاجي، فأنا ربان السفينة الغارقة وعليّ يتوقف مُستقبل الجميع هنا..

للقصر قواعد صارمة في الإتيكيت طالما كانت مُتبّعة عندنا. قواعد تراكمت مع الزمن إلى أن صارت أقرب إلى القوانين غير القابلة للخرق من قِبل أي شخص. مُنذ وعينا على هذه الحياة والأمور تسير على هذا النحو. لم يحصل أن قام أي واحد منّا بمناقشة هذه القواعد أو التفكير في تغييرها حتى لو كان بعضنا ينزعج من تلك الصرامة، أو حتى يعترض عليها، كما حصل لي ولسلوان.. ومن لا تعجبه القواعد سيكون مضطراً للمغادرة وهو ما حصل فعلاً في القصر، وتلك حكاية سأعود إليها..

من هذه القواعد أنه بحسب أهمية الضيوف يتم إدخالهم إلى الأماكن التي تتناسب مع أهميتهم وموقعهم الاجتماعي وطبيعة

علاقتهم بسكان القصر. وهذا شيء تعرفه مملوكة جيداً لأنه جزء من عملها ومن غير المعقول أن تخطئه!

فإذا كانوا من أفراد العائلة، يدخلون إلى صالة الجلوس التي اعتدنا قضاء أغلب أوقاتنا فيها، أما المعارف والأصدقاء فيتم اللقاء معهم في الصالة الصغرى، أو حتى في الشُرفة الكبيرة، أو الحديقة إذا كان الطقس مُناسباً.. صديقات أمي كنّ يدخلن عليها في المطبخ الفسيح المُطل على الجُنينة الخلفية التي تطلّ على ذلك الجزء من الحديقة الذي يزرعه جواد بكل أنواع الخضروات التي يحتاجها القصر، وفيها الورود الغريبة ذات الروائح الزكية التي كانت جدتي، ثم أمي، تجمعانها من أقطار الأرض. وفي هذا المطبخ الفسيح المُطل على هذا المنظر الجميل، كانت تتم الثرثرة النسوية، بعيداً من أعين الرجال والأطفال، عن أسرار البيوت والعوائل.. أصدقاؤنا الشخصيون كان يتم اصطحابهم إلى غرفنا الخاصّة.. أما الصالة الكبرى فلم يكن يدخلها أحد سوى الضيوف الرسميين الكبار، وكانت تُفتح في تلك السهرات البعيدة التي كان جدي يُقيمها في أول خميس من كل شهر والتي لم تعد تُقام منذ وفاته.. أبي كان يأخذ ضيوفه إلى غرفة المكتبة التي تحتوي جدرانها على المئات من العناوين باللغتين العربية والانكليزية، والتي لا يزال هواؤها يحتفظ برائحة دخان السجائر وبقايا الأحاديث السياسية، حيث لعب جَدّي قَبلَ أبي دوراً سياسياً كبيراً في هذا البلد، كان عنوانه الكبير رفض الانجرار خلف التيارات

السياسية المتطرّفة سواء اليسارية أو اليمينية. لكن ذلك الحلم الاستقلالي انتهى وسقط البلد في مستنقع الصراعات التي انتهت إلى أبشع أنواع الديكتاتورية ثم الفوضى والخراب!

فوجئت وأنا أنهض لأذهب لملاقاة الزوار في الصالة الصغرى، أن مملوكة تركت الباب مفتوحاً وتصرفت بطريقة تُفسح المجال لدخول امرأتين ورجل!

لم أرتحْ لهذا التصرف الفجّ والغريب، بل رأيت فيه انتهاكاً مؤلماً لتقاليد مرعية في هذا القصر من قبل أن أخلق حتى! وتجاوزاً غير مُبرَّر. خاصة وأن مملوكة تعرف جيداً تلك التقاليد، بل هي التي تحكم، بانضباط، إيقاع استقبال الزوار في القصر إلّا في حالات محددة يتم إبلاغها بها.. هل كانوا يختبئون خلفها وهي تُخبرني عنهم؟ كيف ارتضوا لأنفسهم سلوكاً كهذا.. أن يقتحموا عليّ خلوتي!

أحدثَ تصرفهم هذا عندي نوعاً من الرفض المُسبَق، وعدم القبُول حتى قبل أن أراهم جيداً..

وقفت مشدوهة وأنا أبحث عن عيون مملوكة الزائغة التي تحاشت الاصطدام بعيوني، لتفادي رؤية شرر الغضب من جراء هذا التصرف الأحمق، فمن يكون هؤلاء كي يتُم إدخالهم عليّ في الصالة الكبرى!

رغم شعوري بإهانة تاريخ المكان الذي استقبل شخصيات من طراز نوري السعيد وجعفر العسكري وأدباء من طراز الرصافي والزهاوي وفنانات كعفيفة اسكندر وسليمة مُراد باشا وأعضاء

السلك الدبلوماسي الأجنبي وغيرهم كثيرين! كان عليّ أن أكتم غضبي وأرسم على شفتيّ ابتسامة صارمة تُنذر بالانفجار في أي لحظة حتى أفهم سبب تصرّف مملوكة أيضاً..

وقف الثلاثة أمامي وهم لا يستطيعون السيطرة على فضولهم، ونظراتهم تزحف، كما الأفاعي، في كل أرجاء الصالة على نحوٍ مُقزّز، وأنا أشعر إزاءهم بالانتهاك وقلة الحيلة.. عندما أغلقت مملوكة علينا الباب أُسقط من يدي، فأشرت إليهم نحو زاوية من الصالة وأنا أتمزق غيظاً..

المرأتان ملفوفتان بالسواد من قمة الرأس حتى أخمص القدمين، نزعتا عنهما عباءتيهما بحركة رشيقة مُدرَّبة، ففاحت في المكان رائحة عطر الورد المُركّز التي يطلقون عليها تندراً اسم «سبع الليل»، التي اعتدتُ أن أشمها عندما كنتُ صغيرة كلما رافقت أمي لزيارة المراقد المُقدّسة، تلك الزيارات التي كنتُ، وللحقيقة، أخافها لكثرة الزحام والوجوه الغريبة للنساء المُتّشحات بالسواد.. أمي كانت تتوسل إلينا لكي نرافقها إلى تلك الأماكن، الكل كان يتهرّب من هذه الزيارات فأتعاطف معها وأبدي موافقتي أخيراً على ذلك.. لقد كانت أمي حريصة ومُصرّة دائماً على تأدية تلك النذور، فلا يُمكن أن يُنجّيها من الوسواس والأفكار السوداء بعد رؤيتها لحلم بغيض أو نعيق غراب أسود في الحديقة لثلاث مرات وهو في طريقه نحو مقبرة الأرمن المُجاورة، وغيرها من الدلالات المشؤومة، إلا تلك الزيارات للأئمة والأولياء الصالحين..

لطالما أرعبتني هناك رؤية النساء الناحبات، المُتعلّقات بالشبابيك الذهبية لمقامات الأئمة، التي لم تكن تعني لي أكثر من الوقوف أمام بوابة من الأسرار المُعقّدة مع نساء يردن دفن مخاوفهنّ في تلك الأقفاص التي ربما لو كان لأصحابها أن ينطقوا لأنكروا تلك العادات.. أساطير اختلطت بالحقائق، روّجت لها عقول فقدت قدرتها على مواجهة مشكلاتها فتحوّلت إلى مصانع لإنتاج خرافات تحوّلها إلى يقين يشبه نسيج عنكبوت هائل لف أجيالاً كثيرة بنسيجه اللزج، والتصقنا به مُستسلمين لقدرنا المُرعب حتى أصبحنا غير قادرين على المُبادرة..

هل يُمكن أن يكون لدى كل هؤلاء النسوة الوساوس والهواجس نفسها التي كانت لدى أمي؟ الآن أعرف أن التطيّر هو تراكم خبرات شعبية ممزوجة بالهلوسة الجماعية والغموض الذي يحتاج إلى تدخّل إلهي لوقف جحيم الشر القادم!

كان أبي يكرر، أن أمي لم تكن كذلك في الماضي فهي سيدة مُتعلمة. لكن بعد القتل البربري للملك الشاب وما رافقه من فظائع عاصرتها ورأتها رؤيا العين، تغيرت وأصبحت امرأة مُتطيرة إلى حدّ الهلوسة، تعتقد بأنها ترى الشر القادم على نحوٍ لا نستطيعه نحن!

هناك في تلك العتبات المُقدسة، كانت تقترب بحذر ووجل من الشبابيك الذهبية مع جموع النساء الخائفات. تطلب مني أن أبقى غير بعيد عنها خوفاً من ضياعي وسط هذه الحشود البشرية التي تشبه نهراً يتدفق من غير انقطاع. تضع منديلاً حريرياً على أنفها لكي تتجنب رائحة الأجساد المُتلاصقة وتنحشر بخجل بين

بقية النساء. ولا يُمكن أن تهدأ إلا بعد أن تُمسك شباك قبر الإمام وتقرأ على عجل بعض آيات من الذكر الحكيم وهي لا تبعد نظرها عني.. أنا التي لم يكن يُشكل لي الدين سوى علامات استفهام كبيرة ورغبة أكيدة في تجنّب الكُتل البشرية التي تُمارسه بنوع من الهلوسة.. ومع أنني كنت أتأثر بتديّن أمي إلّا أنني أفكر بأن الأمر لا بد أن يكون على صورة غير صورة تلك الطقوس المليئة بالخرافات!

رائحة الورد المُركّز، اللون الأسود، النحيب العالي، الأذرع الممدودة، شفتا أمي التي تُتمتم بالدعاء، بل وحتى الهواجس والأمنيات التي يُمكن سماع هَمسها المليء بالتوتر... كل ذلك تداعى مع رائحة المرأتين التي انتشرت بشراسة في جو الصالة التي تشرفت ذات مرة بزيارة عبد الإله الوصي على عرش الملك المغدور، الذي قُطعت أوصاله بوحشية قَلَ نظيرها!

بدأت بمراقبتهم لكني في الحقيقة كنتُ أرقب نفسي أكثر.. فهوَسي هو إدخال الكمال على تصرفاتي ثم إجراء المُقارنة التي تمنحني مساحة من التفرّد عن الآخرين، لا يُمكن التحكّم بهِ.. مُنذ الصغر تعلمت ألّا أسمح أبداً للفتة اعتباطية أو غير محسوبة، أو نظرة في غير مكانها، التحكم بمقياس درجات الابتسامة التي أرسمها على شفتي.. جلست أمامهم وظهري مُنتصب تماماً، وعنقي مُشرئبٌّ حتى أستطيع إبراز الفارق بيني وبينهم، يدي اليمنى استقرت على اليسرى لكي أخفي خاتماً ماسياً كنت أزيّن به إصبعي، شعري ملموم

إلى الخلف،وساقاي متلاصقتان وفي عيني نظرة استفهام ممزوجة بالقرف والتعالي الذي لم أحاول أن أخفيه..

مع أنني ما كنت يوماً أنظر نظرةً دونيّة لأحد، إلّا أن حاجزاً انتصب بيني وبينهم بسبب طريقة دخولهم عليّ، وبسبب طريقة نظرتهم المغلّفة بنوعٍ من الحسد لمحتويات الصالة.

المرأة الكبيرة، فيها شبه كبير من مملوكة. تساءلت هل هي أختها أم قريبتها؟ شفتاها مزمومتان كشفتَيْ مملوكة، علامة لا يُمكن أن تُخطئها العين لمعرفة درجة القربى بين الاثنتين، وكذلك الأنف.. تبدو هذه المرأة أكبر من مملوكة وفي نظراتها حزمْ يصل إلى حدود القسوة، تتلفع بالسواد كدرع تحتمي بها من الحياة.. تُغطي رأسها بشال أسود لامع وعلى زاوية رأسها اليسرى، حيث تنعقد ربطة الشال، دبوس ذهبيّ لامع ذو رأس من الشذر الأخضر الفاتح. وضعت عباءتها على حجرها وفوقها استقرت يداها، كما بان في خنصر يدها اليسرى خاتم ذهبي لامعٌ أيضاً ذو شذرة زرقاء فاتحة.. على زاوية فمها يتجمع الكلام الذي يبدو أنها قد استعدت له جيداً، وتنتظر الفرصة الملائمة للانطلاق، كما لاحظت في عيونها تصميماً وحزماً.

أما المرأة الصغيرة، فقد بدا لي من الصعب تحديد عمرها الحقيقي من جراء تكدس الشحوم في الكثير من زوايا جسدها شبه المُربّع.. لكنها في كل الأحوال أصغر منّي.. شالها الذي تضعه على رأسها، تتخلله خيوط ذهبية كسرت عدائية اللون الأسود

ويُحيط بوجهها المُدور لكنه لا يُخفي شعر رأسها تماماً، لعلها تعمدت ذلك لإضفاء نوع من الإغراء، كما أن الشال يضغط على وجهها فتبرز وجنتاها اللتان طلتهما بلون أحمر مُبالَغ فيه، فبدت كما المُهرّجين مع شفتيها المطليتين أيضاً بالأحمر الذي بدا كأنها وضعته على استحياء أو عجلة..

عيونها تتحرّك في جميع الاتجاهات بسرعة شديدة ثم تعاود الاستقرار عليّ لتتفحصني بجرأة أقرب إلى الوقاحة، كفُ يدها اليمنى تضغط بقوة على الكف اليسرى كما لو أنها تريد السيطرة على عصبيتها وارتباكها.. في أصابع يديها الاثنتين الكثير من الخواتم الذهبية وبأحجام مُختلفة، ناهيك عن الأساور التي يقترب ذهبها من اللون الأحمر، تنظر إليها بفخر بين الحين والآخر كلما أصدرت صوتاً يشبه صوت الجرس من جراء ارتطام بعضها ببعض. شيء ما في وجهها جعلها تبدو أكثر ودّاً من المرأة الشبيهة بمملوكة، لعله الشباب، فهي لا تكتم فرحها وهي تنظر إلى التحف المُنتشرة في الصالة والتي كان من الواضح أنها غريبة عليها..

تلتصق المرأة الصغيرة بالرجل حتى يلامس كتفها اليسرى، كتفه اليمنى، وتلكزه كلما أرادت أن تُلفت نظره إلى الأشياء التي تراها جميلة، لكنه لم يكن يُعِرها أيّ اهتمام..

أما الرجل فيبدو في نهاية الأربعينات، وقد بالغَ في وضع الدهن اللامع على شعر رأسه الكثيف، وبشكل مُبتذل لا يلائم سنّه، حتى التصقت ذرات غبار الطريق بشعره كقشرة بيضاء مُقزّزة.. في

تقاطيع وجهه نفس القسوة التي في وجه المرأة الكبيرة، له فم بشفتين مزمومتين، يستقر فوقهما شاربان خفيفان، وفي نظراته شبق وشهوانية وشره.. يرتدي بدلة بلون كاكيّ من النوع الصيني الموجود بكثرة الآن في الأسواق.. قميصه أبيض وعليه ربطة عنق بألوان فاقعة، ولون حذائه بنّيٌ يميل إلى اللون الأصفر وقد حال لونه بسبب الغبار، وجواربه بيضاء من النوع الرياضي.. حتى بدا وكأنه إعلان ترويجي للبضائع الصينيّة الرخيصة..

ينفّرني الرجل الذي يضع الخواتم في يده، وهو كان يضع منها اثنين من الفضة. خاتمان كبيران جداً في خنصر وبنصر اليد اليمنى.. المرأتان كانتا تنقّلان أنظارهما بيني وبين الصالة والتحف، أما هو فيركز نظره عليّ، لكن بشبقية لا يستطيع التحكم بها، حتى أحسست بأنه يعرّيني وينهش جسدي مثلما تفعل الحيوانات في حكايات سلوان.

التزمت الصمت أنا أيضاً منتظرة السيناريو الذي جاؤوا به قبل أن تُدخلهم مملوكة عليّ رغم القلق الخاطف الذي أصاب معدتي بتقلّص، والخوف على آخر «قلاع التمدن» كما كانت أمي تسمي قصرنا الكبير..

نظرت في عيونهم نظرة متسائلة علّ ذلك يشجعهم على طرح الموضوع الذي جاء بهم إلى هنا.. دارت عيون السيدة الكبيرة نحو اليمين واليسار بحركة سريعة كأنها تُعطي إشارة البدء، وإن لم يرها أحد غيري لكنهم شعروا بها.. استقام الرجل قليلاً

وأبعد عينيه الفضوليتين عن مواضع جسدي الحساسة، وركّزهما على وجهي.. وهدأت حركات المرأة البدينة واختفت ابتسامتها الودودة تماماً..

المرأة الشبيهة بمملوكة بدأت الكلام بصوت أقرب إلى أصوات الرجال ذوي البحة الثقيلة، ربما ذلك ناتج عن كثرة التدخين.. عرّفت عن الثلاثة بأنهم من سكان بغداد، وراحت تتحدّث عن أصلهم وفصلهم..

لم أستطع أن أتقبل فكرة أننا نعيش في المدينة نفسها، فـ«بغدادي» أنا تختلف عن «بغدادهم».. للكلمة رنين مُختلف يعتمد على الشخص الذي ينطق بهذه الكلمة، كل شخص له مفهوم عن المدينة التي عاش فيها أو يعيش.. بل عن مفهوم المدينة! يبدو أنها لجأت إلى هذه المقدمة حتى تمنحني الانطباع بأننا من مدينة واحدة وطباعنا واحدة وبالتالي فالمُشتركات بيننا كثيرة!!

ثم قالت بأنها تعرفني عن طريق أختها مملوكة..

لا أدري لماذا لم أتفاجأ بهذا الخبر! ربما يعود ذلك إلى التشابه الكبير بينهما أو إلى السلوك الغريب الذي طرأ على مملوكة مؤخراً.. لكن مع ذلك أحمرّ وجهي، فخفضت بصري رغماً عني بعيداً عن أوجههم.. لاحظت السيدة لحظة الإنكسار فمطّت جسدها حتى ارتفعت قامتها شبراً.. وبدأت كلامها عن ابنها «فاضل»، ونظرت نحوه بزهو. راحت تتحدث عن «تاريخه النضالي» ضد النظام الدكتاتوري الذي اقتلعته جيوش الاحتلال..

كانت تُصرّ على التذكير بجرائم العهد البائد لتجد أرضية مُشتركة بيننا، فنحن تجمعنا المعاناة من كل الأنظمة غير الشرعية، وابنها «ناضل» من أجل إسقاط الديكتاتورية وبالتالي نحن «كُلنا» ضحايا نظام واحد! حاولت أن تنسب كل الذي حدث إلى «نضال» ابنها ورفاقه مما حفّزني على تفحّصه ملياً.. كأني كنت أحاول العثور على صورة «الرجل المناضل» فيه، لكني لم أجد سوى رجل تافه نافد الصبر، لا يفكر سوى بالساعة التي سيمتلك فيها جسدي، ومعه هذا القصر! كدت أبتسم بحبور وأنا أعثر على الصفة التي تلائمه.. كل شيء فيه زائف! ملابسه التي يرتديها لا جامع بينها سوى رداءة الاختيار، الإكسسوارات المُبالغ في حجمها، نظرته البلهاء بين الحين والآخر إلى ساعته الذهبية، طريقة جلوسه الفجّة، إذ يفتح ساقيه وكأنه يتهيأ للتبول، أو ربما لأرى آلته الجنسية العظيمة.. ابتسمت في سرّي لهذا العريس الذي لم يفكر للحظة بأن يبتسم لسيدة غريبة تجلس أمامه!

أين وعمّ تتحدّث هذه السيدة الخَرِفة!

أدرت عينيَّ بعيداً عنهم لوهلة، وغرقت في أفكاري عن تلك الفئة التي تدّعي أنها خلّصتنا من الديكتاتورية لتضع هذا البلد الذي أحبه على طريق الدولة الديمقراطية الحديثة...

أهمَلَت أخت مملوكة خلال حديثها المُمل عن ابنها، التعريف بالمرأة الثانية الجالسة إلى جوارها، كان عليّ «بصبر» أن أستمع لاسطوانة بطولات ابنها الخُرافية، الذي لم يُبدِ أي اهتمام لحديث

والدته، بل إنه لا يفعل سوى أن ينقّل عينيه بين صدري وساعته الذهبية الكبيرة، وكأنه اعتاد هذه الأحاديث المُملة من أمه..

من ناحيتي أيضاً، لم أعد أخفي ضجري ولا ضيقي بهذا المهرجان الدعائي، فأنا أعرف تماماً أن لا أبطال في هذا البلد الذي نقله حكامه من هزيمة إلى أخرى، فكيف بهذا النكرة الذي تتحدّث عنه والدته بكل هذه الحماسة! ولم أعد أُخفي تبرّمي من سبب الزيارة الحقيقي، فهم لا يبدو عليهم أنهم جاؤوا طالبين لمعونة مادية، كما لا بد أنهم يعرفون بأن أملاكنا قد تعرضت للتأميم والمُصادرة منذ زمن بعيد وأن ما استطعنا الاحتفاظ بهِ صودر في الحرب الأخيرة لدعم المجهود الحربي الذي أودى بمئات الآلاف من الشباب إلى حفر الموت وشوّه مَن بقي منهم حيّاً..

بعد رطانة طالت كثيراً، صمتت المرأة، فَحلَّ على الفور هدوء ناعم مريح.. حافظت على صمتي ممنية النفس بأن يملّوا أو يفهموا معنى صمتي فينسحبوا عائدين إلى حيث أتوا.. لكنّ مملوكة دخلت علينا وبيدها طبق نُحاسي جميل كنت قد جلبته أنا من سوق في مدينة مكناس المغربية وعليه كؤوس شراب البرتقال البارد. ومع أنها تصرّفت من دون أن أطلب منها ذلك، إلا أني كنت ممتنّة لما فعلته.. لم تنظر نحوي كما توقعت..

ارتشف الجميع كؤوس الشراب المُنعش، ثم تحركت المرأة

الكبيرة ووضعت كأسها ببطء وهدوء على الطاولة التي تتوسطنا وقالت بصوت حاولت أن يكون رقيقاً وواضحاً قدر المُستطاع..

« نحن جئنا اليوم بعشم نرجو أن لا ترُدّينا فيه يا ابنتي».

نظرت إليّ، وقبل أن أفتح فمي عاجلتني بطعنة أخرى..

« نحن راغبون بطلب يدكِ بالحلال لابني فاضل».

من طريقة كلامها ومن نبرتها كان واضحاً لي أنه لم يكن طلباً عادياً ينتهي أثره بين جوابين لا ثالث لهما «نعم أو لا».. بل كان أشبه بفعل قسوة أسنان القوارض التي وصفها سلوان، أو التي أكلت سد مأرب وحطمت الحضارة في تلك المنطقة إلى الأبد..

كدت أصرخ بوجهها: تقصدين «المُناضل!!».. لكن دويّ الطلب أسكت عقلي وأخرس لساني وسحب الدماء من وجهي. شعرت بتيبس في شفتيّ، أردت أن أمد يدي إلى كأس شراب البرتقال الذي أمامي لكي أبلل شفتيّ المُتصحّرتين، لكني فضلت الموت عطشاً على أن أجاريهم في حفل الإهانات هذا..

في الحقيقة لم أشعر بكراهية تجاههم، أو ربما لم أرد أن أمنحهم كراهيتي، فذلك معناه أني شيدت كياناً يجمعني وإياهم، وهذا آخر ما أرغب به.. إنهم آخرون، وهذا كل ما يُمكنني أن أمنحهم إياه وبغير هذه الصفة لا أجيد التعامل معهم..

في هذه الأثناء كانت عيونهم مُسمّرة عليّ، الرجل الزائف عاد إلى تفحّص جسدي بنهم لم أعد أعرف وسيلة لإيقافه، المرأة البدينة

أظهرت ابتسامة لعوب رخيصة، أما المرأة الكبيرة فقد ازدادت تقاسيم وجهها صرامة وقسوة وكأنها تتوعّدني في حالة الرفض..

العطش إلى شيء ما، أبعد من الشراب الذي أمامي، أجبرني على التزام الصمت الذي كنت أريد كسره لإنهاء هذه المهزلة.. صمت الترقُّب ساعدني على سماع أصوات تنفسهم المُتسارع. الصمت فضح عجزهم عن مصادرتي كما صودرت حياتنا، ولكنه في الوقت نفسه أغرقني في الهوان والانكسار.. هنا في الصالة الكبرى حيث في كل مكان منها شيء من تاريخي، حيث أجدادي وآبائي، بالتأكيد ينظرون إليّ، تتم إهانتي بهذا الشكل الذي كان من المستحيل أن أتوقّعه!

بعد أن يئست من ردّي.. عادت أخت مملوكة للكلام:

«ابني ووحيدي تم تعيينه سفيراً في اليونان، وهناك هو مُحتاج لامرأة مُتعلمة مثلكِ، تقف إلى جواره في غربته وتشد من أزره، أما «انتصار»، وهنا أشارت للمرة الأولى إلى المرأة الجالسة إلى جوارها، فهي ستبقى معي لأنيّ كبرت في العمر ولم أعد قادرة على تربية أطفالهما وحدي».

هذه المرة قفزت كلمة «أطفالهما» إلى رأسي ثم تيبّست على شفتيّ المُتيبستين حتى أحسست بأنني أفقد القدرة على الكلام.. فانتهزت «انتصار» الفرصة وقد كان واضحاً أنها لم تعد قادرة على السكوت أكثر من ذلك، وقالت متلعثمة بكلام بالكاد فهمته:

« أجل.. لدينا أربعة أطفال ما شاء الله، مثل الورود، وأنا لا أمانع من زواجه منكِ!».

قالت ذلك وكأن كل شيء قد انتهى ولم يبقَ سوى تحديد موعد الزواج! نظرت بسرعة نحو حماتها لتقيس رد فعلها على الجملة التي نطقت بها، وقد لاقت الاستحسان، بل رشقتها حماتها بابتسامة بدّدت قليلاً من ملامح أخت مملوكة القاسية.. هنا تشجعَ «العريس» وشارك في حفل الإذلال.. فجمع على لِسانه كلمات اختار لها أن تكون فخمة ليشكل منها جُملاً تليق بالمُناسبة.

«لا يُمكن أن تقف إلى جِواري هناك سوى سيدة من علية القوم، تعرفُ وتُجيد التصرّف، ونحن بصدد إعطاء صورة مُشرِّفة عن العراق الديمُقراطي الجديد، وقد عرفت من خالتي مملوكة بأنكِ تُجيدين العديد من اللغات الأجنبية، وهذا عز الطلب».

.. ضحك قليلاً وواصل..

«لم تُتح لي فرصة الدخول إلى الجامعة، فقد أخذت عهداً مُبكراً على نفسي، أن أنذرَ روحي لقضية تخليص البلد من الدكتاتورية».

« لكن الأمريكان هم الذين أسقطوا النظام؟». لا أدري كيف قذفت هذه الجملة في وجهه.. وجوههم!

لكنه واصل كلامه المُعلّب وكأنه لم يسمعني..

عندما انتهى من استعراضه، أرجعَ ظهره إلى الوراء، وباعد ساقيه أكثر عن بعضهما، ثم نظر بكل وقاحة نحوي وكأنه يقول

لي، هيا وافقي فأنتِ لن تجدي أفضل مني يرضى بكِ ويمنحكِ حمايته في هذه المدينة التي دانت لديمُقراطيتنا!

كان غضبي كبيراً إلى درجة لم أعد أشعر فيها بوجودهم الحقيقي أمامي، وأنا أحاول تلمّس الطينة السطحية التي كوّنت هذا المخلوق المُقرف والتي جعلته يعتقد بأنه ضروري في الحياة! لكن حقاً.. هل لحياة هؤلاء البشر من معنى؟

يا إلهي كم كان الموقف بمجمله شيئاً لا يُطاق، نهضت من مكاني كالملسوعة، مُعلنة انتهاء الزيارة وعلى وجهي غضب قبيح كاسح.. وقفت بالباب في إشارة لهم ليخرجوا.. ظلوا لوهلة غير مُصدّقين، مترددين، لا يفقهون شيئاً ولا يستوعبون كيف أن «غبية» مثلي تُفوّت على نفسها مثل هذه الفرصة الذهبية! لملمت المرأة الكبيرة عباءتها ببطء وهي تُصارع لتقدّم نفسها لي على أنها أعلى مرتبة منّي! محاولاتها المُثيرة للشفقة سقطت، فهي لا تُدرك أن وضع طلقة نارية في ظرف بائس، وامتلاك كيس من المال السُحت، غير كافيين لاكتساب مكانة يقدّرها الناس ويقرّون بها.

بعد انصرافهم وتأكد اختفائهم من أمامي، اتجهت بطريقة لا إرادية إلى دولاب أثريّ جميل، كان جديّ قد أتى به من أفغانستان، اعتدنا أن نضع فيه المشروبات الكحولية.. سكبت لنفسي جرعة كبيرة من المارتيني، ثم دفعت به إلى جوفي مرة واحدة وبسرعة علّه يُسكت الغضب الذي كاد يخنقني.. لم أعتد على تناول المشروبات الكحولية، خاصة في مثل هذا الوقت، لكن الآن

لم يعد كل ذلك مهماً، فلتذهب كل القواعد إلى الجحيم.. ولا في أسوأ الكوابيس خطر على بالي أن تطفو عليّ نفايات المدينة المُتهالكة وتقتحم حياتي بهذا الشكل الفظيع!

رحيلهم ترك وراءهم في نفسي مشاعر من الاحتقار والاشمئزاز دفعتني للبحث عن مملوكة.. وقف سلوان في طريقي وبعينيه استجداء واضح لبعض الوقت مني ومن خلفه «جيفارا» الذي شعر بغضبي الذي وَتّره هو أيضاً.. قلت لسلوان باقتضاب «ليس الآن رجاءً».

واصلت بحثي عنها في كل مكان يُمكن أن تتواجد فيه، لكنها اختفت تماماً.. وقفت أخيراً في المطبخ، الذي لم أعد أدخله إلا في ما ندر بعد وفاة والدتي، وأنا أتتبع آثارها.. لقد أعدّت كل شيء بمُنتهى النظام والترتيب كعادتها، فأحسست ببعض الهدوء النفسي وتساءلت عمّا يُمكن لي أن أفعله معها.. هل أطردها أم أكتفي بتعنيفها على الوقاحة التي ارتكبتها بحقي.. بحقنا!

أبي كان يقول لنا دائماً: «إن التزام الصمت في الأوقات العصيبة، هو بحد ذاته سلاح ضد الوقاحة وعدم الفهم».. وأنا الآن لا أفهم ما الذي يجري.. كيف تجرّأ هؤلاء على فعل الوقاحة الذي ارتكبوه.. هل هانت حياتنا إلى هذه الدرجة؟ هل أبادلها العتب وهي غير قادرة على التمييز ولا على الفهم؟

في الماضي كانت الوقاحة والفجاجة وإذلال الناس صفات موجودة لدى فئة محدودة من الناس، لكنها مكروهة. أما الآن فقد

أصبح كل ذلك «طبيعياً»، صارت صفات الأغلبية، خاصة أولئك الذين تعلموا ممن أذلّوهم.

فعل الخمر فعله ومنحني شعوراً بالخفّة المُنعشة التي دفعتني لكي أبادل سلوان الابتسامة التي منحني إياها وهو في طريقه باتجاه الحديقة برفقة «جيفارا» حيث سيجلس هناك تحت شجرة التين الأسود ليبدأ بسرد هذيانه على مسامع الكلب الوفي الذي سينام بدورهِ غير مُبالٍ بالحيوانات التي تأكل جثث الجيش المهزوم، هناك على تخوم ما كانت تُسمى حدود البلاد..

عُدت إلى الصالة الكبرى وأنا أكثر عزماً على مواصلة كتابة.. قصتنا!

عدت إلى جلستي مقابل لوحة بوكلين «جزيرة الموتى».. ورحت أتامّلها! ما الذي يُمكن أن تبوح لي بهِ هذه اللوحة في هذا الوقت العصيب.. الموت هو الاختفاء، وهذا ما فعله الفنّان، إذ ربط بينهما بعد أن طلبت منه أرملة ثرية أن يُجسد مشاعر الحزن لديها بعد وفاة زوجها الذي تُحبه.. الحزن، الفقدان، اللوعة، الحسرة، الشعور بالعجز، إلى آخر سيمفونية الوجع التي تقضّ مضجعها وتجعلها غير قادرة على استيعاب فكرة موت زوجها، اختفائه الأبدي، الذي أغرقها في الحزن وهي المرأة القادرة على تحقيق كل ما ترغب به بمالها، وجمالها، ومكانتها الاجتماعية..

لم يفدها ذلك في شيء! فالموت هو الخصم الوحيد الذي لم

تستطع الانتصار عليه.. الموت انتصر عليها كونه يملك سلاحاً فريداً لم تستطع إزاءه شيئاً: الاختفاء!

رسم بوكلين الزوجة وهي مُتّشحة بالبياض، واقفة في مركب صغير أمام جثة حبيبها، مُتجهة إلى جزيرة الموتى المُوحشة التي تبدو وكأنها كانت مدينة صغيرة للسعادة لحقتها لعنة سماوية مُدمرة وحوّلتها إلى مكان مُقفر، إلى رمز للإختفاء الذي لا يترك وراءه سوى اللوعة.. لتُسلِّم جثة من أحبت لتعترف بعجزها النهائي، وتسليمها المُطلق، أمام جبروت الموت وقدرته الباهرة على الإخفاء!

فأن يختفي شخص من حياتك، ومع ذلك لا تستطيع نسيانه.. لا يمكنك نسيانه، يعني أن الاختفاء سيبقى يحفر في الجرح. لن يسمح له أن يندمل.

فكرة الإخفاء أطاحت بذاكرتي إلى الوراء لاسترجاع أحداث مرَ عليها الكثير من الزمن، لكنها لم تمّحي.. حفرت في ذلك الجرح الذي لا يمّحي: أختي الكبيرة جُلنار التي قررت ذات يوم بعيد الانضمام للحزب الشيوعي العراقي، واختارت لنفسها رجلاً شيوعياً!

زلزال من النوع المُدمّر ضرب في عمق تاريخ عائلتنا وزعزع الأرض من تحت أقدامنا التي اعتدناها ثابتة ومُحصَّنة! ومع الزمن تحوّل هذا الجُرح إلى تابو صارم حديدي لا يستطيع أحد الاقتراب منه أو لمسه. مع ذلك لم نستطع أن ننسى آثار الفجيعة، وإن كنا نتظاهر بأنها غير موجودة! فرحيل جُلنار النهائي حرمنا من الراحة

التامة، حرمان بلون رصاصيّ لا يُمكن التآلف أو التأقلم معه.. شيء نافر!

جُلنار أبت أن تُغادرنا، ظلت جالسة في عقولنا المُضطربة ومشاعرنا المُتناقضة المليئة بالتساؤلات! نحاول استرجاعها وإقصاءها بنفس الجُرعة. نغفر لها ونُدينها. مكانها الفارغ الموحش يُجبرنا على عدم النسيان..

كان رجال العائلة والمُقرَّبون منّا، هنا في الصالة الكبرى يتحدّثون عن اختفاء المدينة التي ولدنا فيها جميعاً وكبرنا، عن اختفاء كثير ممن نتذكرهم، فقدناهم، هاجروا... لكنهم لم يأتوا يوماً على اختفاء جلنار. أما النساء فكُنّ يلتزمن الصمت ويتبادلن النظرات الحائرة، الصامتة في ما بينهنّ، فصورتها كانت حاضرة بقوة في وجدان الجميع، سواء أولئك الذين يتحدّثون عن اختفاء المدينة أو اللواتي يُنكّسن عيونهن نحو الأسفل حتى لا يتتبع أحد آثار الدموع.. أصبحت جُلنار وفعل الاختفاء.. واحد!

بعد اختفائها من حياتنا، التي لم تتوقف، أصبحت عملية تحويلها إلى ذكرى غائمة شُغلنا الشاغل، وبطريقة فعّالة ساهمنا كُلنا في هذه العملية القاسية وببراعة نادرة! أردنا أن نُمحو عار فعلتها، ليس بالدم إنما بالنسيان والاقتلاع! فجأة اختفت صورها من بين صورنا، ملابسها، أدوات زينتها، سريرها، مرآتها، كتبها، الأسطوانات التي كانت تستمع إليها.. الزبيب الذي كانت تُحبه لم يعد يدخل مطبخنا أبداً!

لم يكن الأمر صادماً، فقد تمّ كل ذلك بهدوء، تحت سمعنا وبصرنا، وتواطؤنا إلى أن بات السؤال ضرورياً.. هل عاشت، تلك التي لم نعد نذكر اسمها، بيننا بالفعل، أم أنها كانت مُجرد حُلم أو كذبة؟

لم يكن يُكذّب هذه الخدعة سوى خزانة ملابس في غرفة مهجورة احتفظت أمي بمفاتيحها، سميناها "صندوق الذكريات الأسود".. فأمي لم تكن تُريد نسيان الفجيعة، بل حوّلتها إلى حاجز يفصل بينها وبين الفرح الحقيقي، كأنها أرادت أن تُقيّد حريتها، فرحها، ضحكاتها، الألوان التي تهبط على ملابسها.. تفتح الخزانة بين فترات مُتباعدة لتُعيد استنشاق رائحة الفقدان والخسارة، وتُعيد ترسيم حدود الحزن والغصة التي قد تكون بهتت ألوانها في الذاكرة.. لم تسمح لنفسها أبداً بتجاوزها أو نسيان فشلها في تربية ابنتها على تقاليد موروثة لا تتسامح مع الانفلات إطلاقاً.. فهي حمّلت نفسها من دون الكل مسؤولية هذه الخسارة، كان لا بد من أن يتطوّع أحد لهذه المهمة الصعبة.. ففعلت!

الأمر كُله كان عبارة عن صناعة كذبة، والمطلوب أن نكون نحنّ أول من يُصدّقها.. بدأ ذلك في اليوم الذي لفّت فيه أمي بمساعدة مملوكة، البونبون في المناديل الحريرية لتوزعها على الجيران والمعارف، بحسب التقاليد المرعية، على اعتبار أن جُلنار قد تزوجت برضا العائلة، ومن مطبخ الساحرة يتصاعد بُخار كذبة

غطت حياتنا بالضبابية وعدم الوضوح والخوف من المواجهة مع الحقيقة.. فنسارع جميعاً إلى طبخها، ونقلب معها القدر السحري الذي يتصاعد منه بخار الكذب! بخارٌ كان يُرعبنا هاجس أن يتكثّف ليتحول إلى قطرات ماء تتساقط علينا.

أبي لم يكن أقل منها إحساساً بالفجيعة، فبعد اختفاء جُلنار المدوّي، اختفت ابتسامته لتُصبح من النوادر في حياتنا.. عندما كان يزورنا ضيوف، كانت ابتسامته الجميلة ترتسم على مُحيّاه ونحن نتلصّص عليها كأنها الشمس التي حُرمنا منها لخطيئة لم نرتكبها!

زايدَ أبي وأمي على بعضهما البعض في تحمل المسؤولية، مع أنهما، بالتأكيد، لم يتحدّثا في ما بينهما بشأن جُلنار إطلاقاً.. فشعورهما بالذنب الممزوج بمرّ الفقدان، تحوّل مع امتداد الزمن على رقعة عمرَيْهما إلى ما يشبه اللذة المازوخية التي أسرتهما!

جُلنار لم تكن رقماً عادياً في الأسرة.. كانت ألمعنا، أذكانا، أرقانا، وأكثرنا غموضاً..

جدي كان يحبها جداً، فهي المُفضلة لديه إلى حد أنه كان يتوسّمَ فيها حمل مجد العائلة الثقيل. فكان يصحبها إلى كل مكان ويستلذّ رفقتها، كذلك الأمر بالنسبة إلى أبي أو حتى بالنسبة إليّ.. لا أكتمُ أني كنت أغار منها وأحبها بالقدر نفسه. ترك رحيلها في حياتي فراغاً أبيض لا تعريف له.. كنتُ أجلس إلى جوارها في

الحديقة عندما تقوم بطلاء أظافر يديها بلون أحمر خفيف، تضع إلى جوارها كأساً من الحليب الساخن وجهاز تسجيل ينساب منه صوت فيروز الذي جعلتني أعشقه، ترفع بصرها بين الفترة والأخرى لتُهديني ابتسامة مُشرقة تُشعرني بالحبور، والغريب أني لا أعرف لكل ذلك سبباً..

ما أكثر وجع الاختفاء. يُشعر المرء بالعجز، وبعدم القدرة على اتخاذ القرارات المُناسبة، وبالحزن، وبالحسرة الكاوية، وبكل ما هو مؤذٍ!

في البداية، ربما كنت الوحيدة التي حاولت مُقاومة عملية إخفائها القاسية، كنت أعرف أن القرار لا رجعة فيه، وأنه قد فرض نفسه علينا جميعاً. بعد أن تأكدت أن النهارات والأماسي سَتمرُ من دونها في هذا القصر، قررت أن أحصّن نفسي ضد النسيان. أعرف أني لا أستطيع أن أسلخ نفسي عن بقية العائلة ولا أشاركهم عملية التواطؤ لحذفها القسري، لهذا اخترت الاحتفاظ ببعض كتبها وذلك خفيةً عن الآخرين طبعاً.. لقد أردت أن أحتفظ بأختي، لكن ليس بفعلتها أو بالشخص الذي قررت هي الارتباط به، لا أذكر الآن حتى اسمه!

الكتب التي أنقذتها من نار المحو القسري، خبأتها في غرفتي كما أخبئ سرّاً يساعدني على حفظ ذكرى أختي التي أحببتها وغرت منها. أخرج تلك الكتب في الليل بعد أن أتأكد من نوم الجميع، أتلمّس أغلفتها، أشمّها، علّها تساعدني على حل لُغز اختفائها، أتتبع

سطوراً مُعينة وضعت تحتها خطوطاً بقلمها الرصاص، أحاول أن أفهمها لأتتبع آثار أفكارها، كأنّ لغز اختفائها يكمنُ في تلك السطور وتلك الخطوط غير المفهومة والمُعقَّدة بالنسبة لي آنذاك!

ماركس، إنجلز، لينين، هيجل، سورين كيركغارد، سارتر، سعدي يوسف، حنه آرندت، غسان كنفاني... وآخرون

لكن تلك السطور ظلت عصية على فهمي، ضنينة، شحيحة، عقّدت عليّ لغز ما حدث، فبدأت برفضهم وانتهيت بكرههم، هؤلاء الذين اختطفوا أختي مني!

أعود بين الحين والآخر إلى تلك الكتب وتلك السطور، لا لفهمها، فلقد فعلت ذلك بعد أن كبرت، لكن لاسترجاع مشاعر الوجع، دموع أمي التي كانت حريصة على عدم الإجهار بها أمامنا، خطوط الألم التي حفرها الغياب على جبين أبي، انكسارنا الجماعي، تحسس مبلغ المال- خمسة عشر ديناراً- الذي نسيته جُلنار بين دفتَيْ كتاب «الوجود والعدم» إلى الأبد، رائحة عطرها المُفضل شانيل، نيكوتين سجائرها، قطرات قهوتها، حبر أقلامها، بقايا أفكارها الغامضة، قرار هروبها، آثار إهالة تراب النسيان عليها، زمنها المُبلبل، الشعور مرة أخرى وأخرى بجرح لن يلتئم!

لا أعرف أين هي الآن، لا أحد يعرف، أو بتعبير أدق لا نُريد أن نعرف.. والدي لم يُنزل عليها ستاراً حديدياً بل حائط من ضباب كثيف أشعرنا برعب محاولة الاقتراب منه أو اختراقه! اسم جُلنار، مُنذ ذاك اليوم الذي تم توزيع الحلوى الزائفة فيه، لم يعُد يُذكر. لقد

تحوّلت فجأة إلى ضمير غائب «هي»، وإذا كان لا بد من الإشارة إليها يتم ذلك بصوت أقرب إلى الهمس كأننا نرتكب خطيئة!

الإشاعات والأقاويل لم تنقطع، سمعنا أنها فرّت إلى إحدى الدول الاشتراكية، يوم كانت مثل هذه الدول قائمة، بعد انهيار الجبهة الوطنية التي أقامها الشيوعيين مع جلّاديهم البعثيين وبدء موسم اصطيادهم مع جميع أنواع اليسار.. ثم سمعنا أنها شُوهدت في جبال الشمال الوعرة وهي تقاتل ضمن حركة «الأنصار» بعد أن قُتل زوجها في جبال ظفار العُمانية.. آخر مَن رآها قال إنها تعمل في الجزائر كمُدرّسة للغة العربية... إلخ!

هل كنّا مُهتمين لمعرفة أخبارها فعلاً أم كنّا نتقصّى أخبار انكساراتها لنُثبت لأنفسنا بأننا على حق وأن هذا المصير الأسود هو مصير كُل من يجرؤ على الخروج من جنة القصر والتاريخ.. لا أدري!

في النهاية تحولت جُلنار إلى حلم مُشوَّش وانتهى الأمر..

أحياناً أتساءل لماذا لم تحاول هي الاتصال بنا طوال هذه السنين، لكني سرعان ما أتراجع عن هذا السؤال الشوكي، فأنا لو كنت مكانها لما حاولت، كيف أبرر عندها خديعتي الكبرى بالشعارات الزائفة وأترجم شعور الخذلان إلى كلمات!

أبي الذي لازمته تقطيبة الحزن حتى الموت لم يكن على استعداد للغفران، نعرف هذا، وهي أيضاً. كان من الممكن أن يغفر

والدي أي شيء إلّا اعتناق الفكر الشيوعي، لقد استشعر انتهازية قادتهم وقسوتهم منذ البدء، ولو أنه عاش حتى يوم الاحتلال المُخزي، لكان رآهم وهم يقفزون من فوق ظهر دبابات المُحتلين لاقتناص مناصب هزيلة، ولكان قد شعر بالسعادة لانكشافهم المُدوّي وأعلن انتصاره النهائي عليهم.. لو كانت هناك مساحة مُتوهمة من العبث القدري وقابلت أنا جُلنار الآن، فسيكون سؤالي الأول والأخير لها، هل كان الثمن الذي دفعتِه والذي أجبرتنا على دفعه معها من أجل هؤلاء يستحق كُل ذلك؟

شيء عصيّ على الإدراك، جُلنار الجميلة خريجة جامعة الحكمة الأهلية، الأرستقراطية، تتحوّل إلى مُحاربة في الجبال الوعرة أو مُعلّمة في القرى الجزائرية أو.. أو..!

لقد قرأت أدبيات الفكر الشيوعي مُتقصّية آثار السراب الذي خطف جُلنار، واطّلعت على فنونهم ضمن دراستي في أكاديمية الفنون الجميلة، لكني لم أشعر لوهلة بأني قريبة من هكذا أفكار تتمسّك بالثبات والحتمية ومُخالفة للطبيعة البشرية المُتلهفة للتمرد على كل الثوابت، بل إني مَقتُ فنونهم التشكيلية الفجّة والسطحية إلى حدود الابتذال!

اليوم هو الخميس، يوم الطقس التقليدي التي حافظت عليه أسرتنا لثلاثة أجيال مُتعاقبة وربما أبعد من ذلك.. في هذا اليوم سيحضر كل أفراد العائلة إلى القصر.. أحياناً أشعر بعبء هذا

اليوم، وأحياناً أخرى أشعر باللهفة إليه، وذلك بحسب المزاج العام أو الحوادث التي تمرّ علينا، لكننا في كل الأحوال لا نُخلِف ميعاداً.. حتى بعد اختفاء جُلنار لم يشأ أبي مُخالفة القاعدة، إلا أثناء سفرنا في العطل الصيفية، حيث يبقى يوم الخميس مُعلّقاً في تقويم ذاكرتنا إلى حين العودة..

اجتمعنا اليوم وافترقنا بإحساس كان يتملك منا جميعنا أنه الخميس الأخير، وأن انهيار تقاليد هذا الطقس العريق أشعرنا بالفشل وبقلة الحيلة خصوصاً بعد أن ودّعنا بعضنا البعض، فظلّ الرصاصة هيمن علينا وجعلنا نتمرّغ في وحل الهزيمة ونشهد اختفاء وجودنا وتأثيرنا على هذه المدينة التي ساهمنا بصناعة مجدها الذهبي.

كانت مملوكة قد أتمت، على أكمل وجه، التحضيرات الضرورية للاحتفاء بهذا اليوم واختفت!.. وضعت أنا اللمسات الأخيرة على هذه التحضيرات بالشكل الذي يليق بالحفيدة الوحيدة الباقية في القصر الكبير.. ساعدني على ذلك، القدوم المُبكر لبلقيس ورباب، حيث كانتا قد تواعدتا على التسوّق قبل المجيء إلى هنا وقبل أن يلتحق بهما كل من زوجيهما وأولادهما، وهكذا تحقّقت لي فرصة التحدّث معهنّ قبل أن يشغلنا أي شيء آخر..

منذ دخولهما عليّ تلمستا جو التوتر المُخيّم الذي لم أفلح في إخفائه أو التخفيف منه، سألتني بلقيس عن مملوكة فاضطررت للكذب والقول إنها مريضة، ضَحكت بشكل مرح أسعدني وعلّقت رباب «هذه أول مرة أسمع فيها أن مملوكة مريضة!». ردت بلقيس

بشيء من الحسرة: «إنه التقدم في العمر يا عزيزتي، حتى مملوكة تتقدم بالعمر وأنا التي كنت أظنها امرأة بلا عمر! فهي ربتنا وكلنا كبرنا تحت عينيها وتزوّجنا وأنجبنا وهي لا تزال تعمل عندنا».

تنوع بعدها الحديث بحذر في جميع الاتجاهات غير المهمة ومن دون التركيز على موضوع مُعين. حتى سلوان فضّل البقاء أطول فترة ممكنة مع «جيفارا» في الحديقة، كأنما أراد أن يتيح لنا فرصة التداول في الأحوال المستجدة.

ارتشفت بلقيس رشفة من فنجان القهوة، ثم نظرت في عينيَّ مُباشرة وقالت: «هيا يا غصن البان اخبرينا عمَّ تخفيه، فأنت غير بارعة في كتمان قلقك».

«ولماذا تعتقدين بأني أخفي شيئاً؟».

«لأني أعرفك كما أعرف نفسي.. هناك شيء ما قد حدث، تحاولين التكتّم عليه».

داهمتني، فجأة، نوبة ضعف لم أفلح في السيطرة عليها وكادت تدفعني للبكاء، لكني نجحت في النهاية في منعها من الإفلات من دون استئذان مما أشعرني بالخجل، فأمي كانت دائماً تقول لنا، إنه ليس من التحضّر المُسارعة في البكاء وإظهار المشاعر الحقيقية.. فاجأهما ارتباكي أو علامة الضعف التي أظهرتها، أشعلت رباب سيجارة بشيء من التوتّر وقالت بصبر نافد: «هل تريدين منا أن نشاطرك القلق والتوجّس من دون فهم الدواعي والأسباب لذلك؟».

نهضت بعصبية ظاهرة واتجهت إلى حيث كنتُ أخفي رسالة التهديد، فأحضرتها ووضعتها أمامهم، بين فناجين القهوة التي لا تزال ساخنة.. قلّبتها بلقيس بحذر واحتاجت إلى وهلة لتفهم المغزى من وضع هذه الرصاصة على الطاولة، فامتقع وجهها وغاض الدم، وخرج صوت لا أدري الآن من أي منهما..

«أهذا تهديد بالقتل؟».

«أجل».

لا أذكر كم دام الصمت بيننا، لكنه كان ضرورياً لاستيعاب ما حدث، أشك إن كانت الكلمات قادرة على شرح وترتيب كل هذه الفوضى التي اجتاحت الأذهان، ذلك أنها المرة الأولى التي نتعرّض فيها إلى تهديد مُباشر، فرغم بربرية كل الحُقب السياسية التي تلت سحل الملك الشاب، إلا أنها لم تصل أبداً إلى هذا القاع المُنفلت..

كان عليّ أن أستعيد زمام المُبادرة، فأنا أعرف بالأمر منذ الأمس.. تنحنحت قليلاً قبل الكلام، لأتأكد من أن صوتي لن يخذلني، وسألت:

«والآن؟».

بقيَ السؤال مُعلّقاً في جو الغرفة، أنا نفسي لم أكن أقصد طرحه على هذا النحو، فأنا أعرف أن الموقف أكبر من طرح أسئلة مباشرة في هذا الزمن الذي فقدنا فيه أي تأثير على حياتنا ومصائرنا التي باتت مُعلّقة بأيدي قوى سوداء غريبة لم نعرف لها مثيلاً.

اقترحت رباب أن نؤجل الأمر إلى أن يأتي الرجال لاستشارتهم. وكنت أعرف أنها تريد تأجيل الموضوع بعض الشيء لا أكثر..

استغرق الأمر ساعات ضغطت على أعصابي بشكل كبير جداً.. أعرف كم نحن بارعون في إسدال الستائر الثقيلة على الأشياء التي لا تُريحنا وتُنغّص علينا، كما أعلم بأني المسؤولة الأولى، بل الوحيدة، عن اتخاذ القرار النهائي، وهذا ما حصل بالفعل عندما عرف الرجال بالموضوع. انهالت عليّ الاقتراحات غير القابلة للتنفيذ، وبعد الكثير من المناقشات كانت تزداد قناعتي بأن ليس بإمكان أختيّ، ولا زوجيهما تقديم حلول، ليس لأنهم أقل مني تدبيراً أو جرأةً أو شجاعة، بل لأن إمكانية اجتراح الحلول في ظروف كهذه صعبة جداً، إن لم تكن مستحيلة.

وحدي أنا من ستتعامل مع المشكلة، فزوج رباب موظف في وزارة الخارجية ويتأهب للذهاب إلى البرتغال مع عائلته لتولي منصب القنصل هناك، وألمحوا إلى أنهم، في كل الأحوال، لن يعودوا إلى البلد.. أي أنها الهجرة النهائية!.. أما زوج بلقيس الصيدلاني، الذي كان انتسب إلى حزب البعث ليؤمّن مصالحه، فقد قال لي بأسى إنه تحت المُراقبة المستمرة، ويتم استدعاؤه بين الحين والآخر من قِبل لجان اجتثاث البعث لإجراء استجواب روتيني، وأنهم يفكرون أيضاً بالرحيل، وهذا شيء جديدٌ عليّ لم أكن أعرفه!

وحدي في وجه العاصفة.. هذا مُلخص ما فهمته، وأتفهّم ذلك.. لهذا قررت أن لا أخبرهم عن هوية الزوار الثقلاء الذين

هبطوا عليّ هذا الصباح بمظلّة مملوكة.. كان هذا الخبر سيزيد من شعورهم بالإذلال وأنا أردت أن أوفر ذلك عليهم!

لا أدري لماذا شعرت بعد ذلك بأني أقواهم، وأسعدني الشعور بأنهم يعتمدون عليّ كلّيّاً لإيجاد مخرج لا أملكه، فأنا كنت دائماً عنيدة في اتخاذ القرارات التي أراها صحيحة، رغم ذلك لم أقترب أبداً من محظورات التراث العائلي، لهذا بقيتُ مقبولة وليس كما جُلنار التي تخطّت وحطّمت كل المحظورات!

حديثنا بقية المساء كان عبارة عن مرثية بحق بغداد التي تختفي من أمام عيوننا. وتسابقنا في رسم لوحة الدمار الشامل ومَغيبنا المُوجع، مدينة تختفي كما جُلنار التي لم تترك وراءها سوى الهمس والهمهمة والإشاعات، لكني أدرك أيضاً أن عملية الاختفاء لم تكن مفاجئة مثل صاعقة سماوية، بل حدثت وتبلورت أمام أنظارنا وإدراكنا.. فسيمفونية وجع الاختفاء بدأت بعد الانقلاب العسكري الأول، وكلما توالت الانقلابات وتكاثرت، كانت تختفي حقبة وتظهر أخرى أقل عمراً، تأخذ معها أسماء، ووجوهاً، وعائلات، وتقاليد، وسلوكيات، وشواهد، ونُخَباً، وتماثيل...إلى أن صحونا ذات يوم لنجد المدينة التي كنا نألفها لم تعد كذلك، وأننا نُمثل بقايا مدينة لم تعد، عملياً، موجودة إلا في ذاكرتنا التي تتلاشى هي الأخرى.. وبدأنا نشُك في أنها كانت موجودة.. كما الجثة التي سلمتها الناحبة إلى جزيرة الموتى في لوحة بوكلين!

لقد منحوني حرية التصرّف وإن لم يقل أحد ذلك علانية، لكن هذه هي طريقتنا في التعامل مع بعضنا البعض، المُباشرة تقتلنا، وأنا أعرف بأن قراري، مهما كان، سيوافقون عليه ممتَنّين!

لا أستطيع توجيه الملامة إلى أي منهم، فهم مثلي تماماً، يشعرون بالعُري والبرد في التيه! بل لقد شعرت بتعاطف شديد معهم. كُلنا في مأزق.. إنه إذاً وقت تصفية التركة الثقيلة، تراث العائلة بل تاريخها كُله.. كُلنا في العجز سواء..

في لحظة الصمت المفصلية هذه، دخل علينا سلوان ووقف بيننا بابتسامته المُرتبكة العريضة، يتفحّصنا الواحد تلو الآخر، حتى يختار الشخص المُناسب ليتلو عليه فصلاً من فصول ملحمة الجنون التي يعيشها، وقفَ أمامنا كسؤال مفتوح على كل الاحتمالات: وماذا عنه؟

لم يعد أي منا يجرؤ على النظر في وجه الآخر، رأيتهم يبكون ضاربين بعرض الحائط توصيات أمي التي تؤكد على ضبط العواطف، أعتقد بأنها تنظر إلينا، الآن، من السماء وتُشاركنا البكاء على المصير المُرعب الذي يختبر قُدراتنا على التصرف في زمن مُتهوّر انقلبت على عقبها فيه كل المفاهيم والثوابت التي عرفناها وتربّينا عليها، زمن أكبر من كل معارفنا، يضبط خطواته على وقع المد الجنوني للميليشيات المُسيطرة على المدينة ويتحكم بدقّات نبضها الضعيف المُستسلم.. زمن يدفعنا للاختفاء من المدينة المسروقة..

نغرق في عنفهم كأموات تنقلها المرأة المُتّشحة بالبياض نحو جزيرة القدر.. الاختفاء هو مصيرنا الذي لا نستطيع حياله شيئاً.. أفول قوى ونهوض أخرى مناقضة.. ربما كانت جُلنار أذكانا جميعاً حين قررت الاختفاء وهي مُطمئنة إلى أننا لا نزال في مكاننا، فتستطيع أن تستعين بذاكرتها وتلجأ إليها في الأوقات العصيبة، كما فعل سلوان في صحراء الموت، أما اختفاؤنا فسيكون مُرّاً بطعم السم، لأننا لن نترك أثراً نلجأ إليه ونتذكّره في الأيام العصيبة القادمة.

Telegram: Somrlibrary

الحب

(ماكس ليبرمان)

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

هل سرقتُ منه هالته المُقدسة!

هذا ما فكرت فيه في اليوم الثالث وأنا أجلس في الصالة الكبرى أمام لوحات جدّي التي بتُّ أراها تُفكّك ألغاز حياتي وليس ألغاز حياته..!

أعرف بأن هذا مُجرّد هذر مني، لكني أحب أن أشعر بشيء من الجدوى، بشيء من القوة حتى وإن كانت مُتوهَّمة فأنا أحتاجها الآن.. لأن هناك من يُريد أن يرمي بي في الفراغ واللاجدوى..

عندما فتحت عينيَّ هذا الصباح كان أول شيء رأيته هو وحدتي.. أجل، الوحدة اللعينة التي استطاعت عبر سنين طويلة أن تتسلّل بهدوء مريب إلى مساماتي، وأفكاري، وقراراتي التي كُنت وما أزال أركنُ إليها بدِعَةٍ وأرتّبها بدقّة مُتناهية، وعاداتي التي تَمسّكتُ بها كما كانت أمّي تتمسّك بالشبابيك الذهبية المُقدسة، وسلوكي الذي كنتُ وما أزال مهووسة بإدخال تفاصيل الكمال إليه كنذور أضعها على عَتبة معبدٍ كل يوم.. علمي وغفلتي تقاسمتا طرفَيْ المؤامرة التي تسلّلت لترميني في الوحدة التي صرت إليها،

مثل ذلك الثعبان الذي أندسّ في فراش كيلوباترا وقتلها.. كل ذلك حدث من دون مُقاومة مني وباستسلام تام لقدر إلهي محتوم!

رأيت وحدتي صباح هذا اليوم تتسلل إلى نفسي مثل شُعاع من الشمس الساطعة على أرضية غرفة نومي، مثل رسالة سماويةً من ضوء ووجع.. رسالة لا تحتمل النكران.. أنا إنسانة وحيدة بلا أهل عدا سلوان الذي هو كائن غير كائن. بلا أصدقاء، ولا حبيب، ولا أمراض قاتلة، ولا أمل في أي شيء، حتى ولا كراهية، ولا إيمان، ولا أي شيء يصدّ عنيّ الإحساس المُريع بالوحدة.. أسكن مدينة فقدت ذاكرتها واستباحها المنافقون.

لم يتبقَ لي سوى ظلال باهتة مُخادعة لا أستطيع الإمساك بها لأناس مرّوا على حياتي وغابوا، غياب تركني مركونة على الحياد من الحياة، لم أكن أعي أثر غيابهم ولم أعمل على فهمه، بل تركت نفسي للغياب من دون أن أتقصّى آثاره المُدمّرة على روحي.. الآن لم يعد بالإمكان ملء الفراغات في حياتي، لقد اتسعت وها هي تلتهمني، أعرف هذا وأستوعب أن سنين ضوئية تفصلني عن كل ما يدور حولي، وأنني، جاهزة بدوري للغياب، للاقتلاع، للمحو الكامل!

المخلوقات المُفزعة التي حاصرت أخي على طريق الموت، ومن قبله القديس أنطونيوس في لوحة ماكس إرنست، هي نفسها تعمل على محاصرتي.. الوحوش الضارية التي لا أسماء لها تَشمُّ رائحة وحدتي كما تَشمُّ رائحة الدماء، تعرف بأني فقدت القدرة على

المُقاومة. الخائف يُمكن له أن يقاوم أما الوحيد فلا أمل له.. لقد أرسلوا لي طلقة التهديد، ليس لأنهم يعرفون أني سأخاف بل لأنهم يعرفون أني وحيدة..

فجأة تسللت إليّ جَلبة أعرفها جيداً.. إنها مملوكة التي يبدو أنها قد عادت لتمارس حياتها بيننا.. شعرت بالارتياح، فعلى الرغم من قَرفي الشديد ممّا فعلته إلا أني كنتُ على أتمِّ الاستعداد لنسيان خطيئتها.. في الحقيقة لا أملك إلا أن أفعل! فأنا عاجزة تماماً عن إدارة هذا القصر الكبير الذي بدأ يُثقل على روحي ويضغط عليها.. فهي تعرف كل صغيرة وكبيرة فيه..

بالأمس بعد أن رحل الجميع وغادروني على طعم قُبلات تحمل ملوحة الدموع، حلَ صمت ثقيل يشبه ذاك الذي يسبق حكم الإعدام، صمتٌ باردٌ، أزرق، له أنفاس مسموعة.. أستوعب أنهم قد منحوني تفويض اتخاذ القرار الأخير الصحيح.. ترى هل افترضوا فعلاً أني أعرف ما هو الصحيح؟

قررت ألا أتحدّث مع مملوكة حول ما حصل، وتَجنّب الموضوع موقتاً لكي نُسهّل التعامل بيننا.. هل ستقبل هي؟

ألقيتُ عليها تحية الصباح ببرودة واتجهت فوراً نحو الشُرفة كما العادة، حيث ينتظرني سلوان و«جيفارا».. تحاشينا بأناقة، أنا وهي، الحديث المُباشر أثناء خدمتها لنا، وكِلانا يستشعر وطأة السكوت الرمادي المُخيم على الكل..

بعد الإفطار جلست مع سلوان واستمعت إلى شيء من كوابيسه التي يكررها. في الحقيقة لم أكن مُصغية إليه، بل شعرتُ لأول مرة بشيء من الكراهية تجاهه.. أفزعني هذا الشعور المُفاجئ المُريح!

وكأني أكتشف الآن كراهيتي التي أكُنّها له منذُ زمن بعيد، مُنذ أن عاد من أرض الموت، كراهية جمعتُ حطبها، عيداناً صغيرة إلى أن أصبحت جاهزة لإضرام النار فيها.. بل إني تمنيت لهُ موتاً يُقرّبه من صورة اختفاء جُلنار، موت فيه الكثير من الحنين والحب والغموض!

«جيفارا» تحت يدي أمسّد جسده وأستشعر حرارته ومحبته الكبيرة لنا، أفكر بما يجب أن أفعله كون المُهلة التي حدّدها لنا المنافقون قد بدأت بالتآكل، ولكي أؤجّل المواجهة بيني وبين مملوكة، فَررت مُسرعة نحو الصالة الكبرى، التي أصبحت ملاذي الآمن خلال هذه الأيام العصيبة.. لقد كنتُ مُحبطة جداً حين دخلت إليها أجرجر ورائي تأنيب شعوري الجديد الذي اكتشفت فيه كراهيتي لسلوان وتمنياتي بموته!

أريد الهروب نحو موضوع أفكر به ويُشغلني عن هذا الشعور الجديد المُخزي، وهل في الذاكرة غير ذكراه الغائمة، واحة الأمان التي رصصتها بطريقة مُترفة في أعالي رفوف الذاكرة، مثل كنز ألجأ إليه كلما شعرت بالحزن أو الضيق.. هو.. الوحيد الذي غسلت له كل الأعتاب وتخليتُ في حضرته عن كل حذري وخشيتي وتردّدي، وكنتُ على استعداد للذهاب معه نحو أقصى الأقاصي، أتبعه كظله،

تماماً كما فعلت ذات يوم بعيد جُلنار واختفت من حياتنا إلى الأبد.. هي اختارت الاختفاء مع شيوعي، وأنا كنت على استعداد للاختفاء مع ما هو أسوأ بالنسبة إلى عائلتي.. مع قِسّ..

كان دخول الأب فريدون، كاهن كنيسة «العائلة المُقدسة» التي كان يُباركها ويرعاها، في حياتي كنصل سكين حادٍّ قَسمها إلى قسمين مُتساويين، فأنا ما قبله لستُ أنا ما بعده..!

كنتُ آنذاك ما أزال طالبة في الجامعة، في السنة الأخيرة منها. وكانت أصوات خطواته قد بدأت تُسمع في كل أرجاء الحيّ الذي نسكنُ فيه.. وصوله المُثير وتولّيه للمنصب المُقدس أحدثَ دوياً غير عادي.. بسرعة تناثرت الحكايات والقصص التي تتحدّث عنه، عن صرامته، عن قدرته على جذب المؤمنين إلى الكنيسة التي كادت قبله تخلو إلّا من بعض العجائز، وها هي تمتلئ معظم أوقات القداس، وتفيض في أيام الآحاد والمناسبات الدينية. بل بدأ الناس يتحدّثون عن مُعجزات يصنعها هنا وهناك. حوّلته المُخيلة الشعبية المُترعة بأنصاف الحقائق والخرافات، من قسٍّ عادي إلى قديس محبوب! لم يعد يحدّثهم، كما اعتاد الذين من قبله، عن عذاب النار وإغواء الشيطان فقط، بل كان يركّز على المحبة والرحمة والتسامح.. سُمعته تخطت المسيحيين وانتشرت بين المُسلمين الذين يسكنون الحي نفسه.. أصبح الكل يتحدّث عنه، وعندما يفعلون ذلك، يُخفضون أصواتهم ويضعون أيديهم أمام أفواههم، خوفاً من قول شيء لا يليق بالقَسِّ أو يخدش هالة

الأب المحبوب.. الناس يميلون نحو المُقدس لكنهم يخشونه في الوقت نفسه..

بدأت الحكاية عندما جاءت ماري الطباخة التي كانت تشتغل عندنا مُنذ أيام جَدّي الباشا، وطلبت من أمي إعفاءها من مهماتها كونها قد كبرت في السن وترغب في العودة إلى مسقط رأسها في الشمال.. وقد هاجر أبناؤها الثلاثة إلى الخارج واستقروا هناك، اثنان منهم في أمريكا وصغيرهم في أستراليا..

لماري بيت جميل على مقربة من قصرنا، أعرفه جيداً لأننا اعتدنا، ونحن صغار، على مرافقتها في بعض الأوقات واللعب مع أطفالها، توما وماهر ونمير.. بيتها يتكوّن من طابقين تتوسطه باحة شرقية مفتوحة على السماء، في وسط الباحة، بئر مهجورة، جفّت مياهها، لكن ماري حوّلتها إلى مكان جميل، حيث زرعت على حوافها العديد من شتلات الزهور المتنوعة والنباتات ذات الرائحة الجميلة.. كنتُ كثيرة الانبهار بتصميم هذا البيت البغدادي الجميل، الذي كان يبدو لي وكأنه خارج للتو من بطن حكاية أسطورية.. بعد أن قرأت حكاية الأمير والضفدع صرت أحب أن أجلس طويلاً إلى جوار البئر، كنتُ أنتظر الضفدع القبيح الذي سيخرج من البئر ويتحوّل أمامي إلى أمير وسيم يأخذني إلى قلب الخرافة..

بعد أن توفيَ يونس زوج ماري، الذي كان بدوره يعمل عندنا كمسؤول عن الصيانة والإصلاحات، وبعد أن يَئِست من عودة

Telegram: Somrlibrary

أبنائها، قررت ماري الرجوع إلى قرية «برطلة» حيث مسقط رأسها والموت هناك، فلم يعد لديها دافع للبقاء في المدينة التي شهدت شبابها وولادة أبنائها، ثم رحيلهم وموت يونس.. «البيت الجميل بدأ يخنقها بذكرياته، حلوها ومرّها» هكذا قالت.. دَعاها الحنين للعودة إلى الجذور، إلى تلك القرية النائية الغافية مُنذ آلاف السنين في سهل نينوى.. تعرف أنها أخيراً ستُدفن إلى جوار يونس في مقابر العائلة، التي حين تصفها تَتَرقرق عيناها بالدموع والحنين.. هضبة خارج القرية يرقد فيها آباؤها وأجدادها وتاريخها المَسيحيّ..

لقد رفضت ماري كل الدعوات المُتكررة من أبنائها الثلاثة للالتحاق بهم والاستقرار معهم في عالمهم الجديد الغريب الذي كان يُثير فزعها.. وأقصى ما تتمناه أن ترى أبناءها قبل الرحيل والموت هناك لتُدفن على تلك الهضبة لتكون هي الأخرى جزءاً من الحكاية المَسيحية الطويلة على أرض الرافدين.. الشيئان الوحيدان اللذان كانت ماري تأسف لِفراقهما هنا، هو رفقة أمي التي تُحبها والأب فريدون، القسّ الجديد، الذي «أعاد إحياء حُب الكنيسة إلى قلوب الرعايا في هذا الحيّ الذي اشتهر في سنواته الأخيرة بمجونه الشديد»، هكذا تقول ماري، ثم تضيف: «ليس مثل الذين سبقوه من القساوسة الذين كانوا يحفّزون الشباب على الهجرة نحو الخارج، لتبتلعهم الغربة إلى الأبد، كما حدث مع أبنائها. الأب فريدون على العكس من ذلك، يقف ضد الهجرة»، وهذا ما حبَّبه كثيراً إلى قلبها وقلوب الكثيرات من الأمهات

المسيحيات اللواتي لم يكنّ يستطعن مغادرة تلك الأرض التي عاشوا عليها وأحبّوها، وكان يضنينهنّ سفر أولادهنّ إلى تلك الأقاصي البعيدة، أو الباردة.. كانت تتحدّث عنه وكأنها تتحدّث عن قديس خرج للتو من الكتاب المُقدس، يمشي ويسكن بيننا في حيّ البَتاوينْ!

كل هذا الكلام وغيره ممّا سمعته عنه أثار فضولي. لقد بدا لي حديثها وكأنها تتحدث عن أميري الغامض الذي انتظرته طويلاً على حافة البئر المهجورة في حديقة دارها، يخرج ويطلب مني أن أقبّلهُ ليتحرر من اللعنة الواقعة عليه بفعل ساحرة شريرة وليمضي بي بعدها إلى حيث لا أعلم.

عندما حان وقت الوداع اقتربت مني بتردد تَغلبتْ عليه بصعوبة، فتحت ذراعيها ثم احتضنتني فشَممت ما بين عنقها ونهاية شعرها المشدود بمنديل أسود رائحة التاريخ المُهدَّد بالمحو! بادلتها المشاعر نفسها بمحبة. لم أستطع المحافظة على تعليمات العائلة بعدم، أو برفض، تمازج الطبقات، القيمة التي حافظنا عليها لأجيال.. إنها ماري العزيزة! احتضنتها وعبّرت لها عن محبة حقيقية..

قالت لي: لا أعرف متى أموت، لكني أرجو ألّا يطول ابتعادي عن يونس. أنتِ تعرفين أنني رفضت فكرة بيع الدار رغم العروض الكثيرة والمُغرية التي قُدمت لي، وحتى رغم موافقة أولادي على البيع، لكني رفضت وقلت لهم إنني سأبقى كل يوم أعيش على

أمل عودة الغائبين.. لو عاد واحد منهم سيجد بيتاً في انتظاره.. وجميعهم يعرفون محبتي لكِ وأخبرتهم أني سأترك مفتاح البيت معكِ». وسحبت علّاقة مفاتيح فيها مفتاحان، واحد للبوابة وآخر للدار. لم أخفِ سعادتي بهذا التكليف، فبيتها عزيز عليّ أيضاً ولي فيه ذكريات جميلة وعزيزة.. وعدتها بأن أزوره كل أسبوع مرة، وأن أهتم بسقي الزهور والأشجار التي زَرعتها إلى أن يشاء الله أمراً..

حكاية ماري نبهتني إلى مسألة لم أكن أعيرها أهمية من قبل، فوصول شخص بوزن الأب فريدون إلى الحي الذي أصبح مُشتَركاً، لم يكن بالنسبة لنا نحن المسلمين حدثاً ذا أهمية كبيرة، لكنه على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للآخرين! قبل وصوله لم نكن نسمع صوتاً من المسيحيين بيننا. كانوا يعيشون كأنهم في «غيتو» نسمعهم يتكلّمون اللغة السريانية ويحافظون عليها كأنها ما يمنحهم هويتهم، إضافة إلى الابتسامات الودودة التي يقابلون الجميع بها دائماً. بعد وصول الأب فريدون بفترة تغير الأمر بعض الشيء وبدأنا نسمع أصواتاً احتفالية، حتى إن هذا الـ«غيتو» كان من قبل عالماً غير مرئي بالنسبة لي على الرغم من أن العديد منهم كانوا يشتغلون عندنا.. عالمهم تأسس بهدوء ومن دون ضوضاء مُنذ أن أسست المدينة نفسها إن لم يكن قبلها، مُبتعدين بحذر عن كل ما من شأنه إثارة الغالبية المُسلمة، لأنهم أدركوا أن الصبر والحذر هما أنجع الوسائل للمُحافظة على الوجود المسيحي

الممتد لما قبل الإسلام من الذوبان في ذلك الهياج الذي ما عاد يتقبّل التنوّع..

الأب فريدون، المتمسّك بالقيم المسيحية كان يرى أن حماية الوجود المسيحي في العراق يكون بالانخراط في المجتمع، وليس بالانعزال عنه. القيم المسيحية التي يؤمن بها هي قيم إنسانية لا تخصّ فئة من الناس، أما الإيمان فهو شأن فردي بين المؤمن وما يؤمن به. وتبنّي تلك القيم هو السبيل لحماية المسيحيين في هذا الحيّ النابض بالحياة والمعروف بكثرة التخالط، فالحدود هنا بين الديانتين ضيقة جداً وأحياناً واهية إلى حد التلاشي..

منذ أن صارت تنتشر كلماته عن الروح الإنسانية المشتركة، انتشر اسمه على كل لسان، حتى إن مملوكة تلبّسها هوس الأب فريدون وصارت تتَلقف أخباره وتنقلها إلينا، أقصد إلى أمي التي كانت تعاني من ضعف شديد تجاه كل ما هو غيبي ومُقَدّس.. أخبار امتزجت فيها الحقائق بالأساطير، فانتشرت إشاعات من نوع أنه صاحب كرامات، ورسول الفضيلة القاسي على المُنحرفين، يتفقد البيوت الضيقة وزوايا البارات المُعتمة للبحث عن اليائسين من الخلاص، يمنح البركة للجميع إلى أن أصبح يعرفهم واحداً واحداً. لا يفرّق بين مسيحيٍّ ومسلم يتحدّث إلى الجميع. امتزجَ الاحترام بالخشية فصنعت منه خلطةً مُقَدّسة، لكن الذي لا يُشك فيه هو أنه مُمثل السلطة الربانية في حي البَتاوينْ، الذي كان في العصر الملكي من أرقى أحياء العاصمة ومقرّ سكن

الأسر المعروفة، لكن الحي تحوّل مع الزمن إلى مركز تجاري فيه العديد من أشهر الفنادق التي تستقبل القادمين من المُحافظات البعيدة والقريبة لأنها تقع بالقرب من مركز العاصمة الطبي في شارع النصر حيث عيادات أشهر الأطباء والمُحامين ومحلات تجارة العقارات والاستيراد والتصدير ومكاتب الخطوط الجوية العالمية، هذا بالإضافة لقُربهِ من قلب بغداد المرح، شارع أبو نؤاس الذي يمتد على طول نهر دجلة وتكاد تجتمع فيه بارات الترفيه والمطاعم والملاهي وبيوت الدعارة..

كان أول تهديد على حي البتّاوينْ هو كثرة سكن العاهرات والقوادين بحكم تواجدهم بالقرب من أماكن عملهم.. لهذا ركّز الأب فريدون عمله في هذا الحيّ المُشاكس. أيّ من القساوسة الذين عملوا قبله، لم يبلغوا شأناً مثل الذي بلغه. في كل مكان كانت خطى الأب الواثقة تجوب أزقة الحيّ وشوارعه ليل نهار، مُتفقداً أحوال أفراد الرعية الذين قابلوه ببرودة وتجاهل أول الأمر، كونه جاء لِيُغيّر من عاداتهم وأسلوب حياتهم، لكن شيئاً فشيئاً تحوّلت البرودة إلى قبول ثم محبة وانتهت إلى ما يشبه التَقديس..

ذات صباح ضبابيّ بارد من كانون الثاني، كنت خارجة من القصر باتجاه الجامعة وأنا أشعر بالتردد، فلا يوجد سبب حقيقي يدعوني هذا اليوم للذهاب إلى الجامعة، لكني كنت أريد فقط الخروج وعدم البقاء طوال اليوم في القصر.. الشارع كان شبه خالٍ إلا منه.. لم أكن قد رأيته من قبل.. ربما هو ذاهب لعيادة امرأة

مُحتضرة على فراش الموت ليتلو عليها بعض المقاطع المُختارة من الكتاب المُقدّس، يساعدها كي تتغلب على مخاوفها والانتقال بهدوء إلى العالم الآخر.. التقت أعيننا فأحنى رأسه لي وحيّاني بكل أدب مع ابتسامة وديعة عرفت لاحقاً أنها لا تُفارقه..

لا أدري لماذا ارتبكت ولم أستطع الرد على تحيته رغم فيض ابتسامته الذي غمرني بشكل دافئ، الرجل شديد الوسامة ويملك من الجاذبية الكثير، حتى بدا وجهه كطبيعة تدعو للتنزه فيها! تماماً على عكس الصورة التي كوّنتها عنه. لم أشك للحظة بأنه الأب ذائع الصيت، فحتى مسلمو الحيّ باتوا يعرفونه ويحترمونه، فالحاجة للمُعجزات لا تقتصر على هذا الدين أو ذاك.. في هذه اللحظة المُربكة كان من الصعب عليّ أن أحدّد عمره، لكن بدا لي أنه في نهاية الثلاثينات. كان يتشح برداء أسود ذي ياقة بيضاء على عادة الكهنة الكاثوليك، ويضع حول رقبته وشاحاً مليئاً بالرموز الدينية، وعلى صدره يتدلّى صليب خشبي كبير نوعاً ما. لم يضع على رأسه قلنسوة، بيده اليمنى يحمل الكتاب المُقدّس قريباً إلى قلبه.. طويل القامة ذو جسد رياضي ممتلئ بعض الشيء، له لحية قصيرة تخللها بعض الشيب لكنها مُتناسقة مع شعر رأسه القصير..

ترك مروره السريع من أمامي بقايا عطر غريب ممزوج برائحة البخور الكَنسيّ وأثر مُبهم غير مفهوم بعد أن ابتلعه الضباب الصباحي الكثيف.. أنا التي كنتُ أبحث لحد هذه اللحظة عن هويتي الجنسية المُرتبكة من جراء قمعي الطويل لها حتى أعثر على الإنسان

المُناسب.. كنتُ أستمع طوال الوقت لنداء مُلحٍّ ينطلق من جسدي لا أعرف بالضبط كيف أحدّد معالمه ولا في أي خانة أصنفه.. في تلك اللحظة الخاطفة بدا لي أن جسدي يقودني على غير إرادة منّي.. إنه النداء الأزلي الذي تُطلقه أجساد النساء مُنذ بدء الخليقة..! فتتمرّد على العقل الذي يحاول دائماً السيطرة عليها..

بالتأكيد حاولت في البداية أن أقمع هذا النداء الذي فاجأني برغبات لا تتسق مع تقاليدنا وأعرافنا التي تربينا عليها في هذا القصر والتي تحوّلت إلى حقيقة ثابتة لا نستطيع التشكيك فيها مُطلقاً.. بأننا نختلف عن الآخرين.

كان مصير جُلنار التي لم يُذكر اسمها في قصرنا مُنذ رحيلها، وشُطبت من حياتنا إلى الأبد، يُرعبني إلى حدود الموت، وكنتُ أريد أن أبقى وفية للتقاليد التي آمنت بها كخِيار لحياتي، لكني أحسّ بأن إرادتي اهتزّت.. لا أدري لماذا ذكرتني رؤيته بالمعصية وتقاربت صورة جُلنار مع صورة الأب فريدون!

بقيت هذه الإشكالية تكبر في ذهني رغم محاولات إبعادها. كان من الصعب عليّ تجاهله أو نسيانه.. الآن لا أعرف إن كنت فعلاً لا أستطيع ذلك وقتها..أم إنيّ لم أشأ ذلك!

صار حاضراً بقوة هائلة في صُلب حياتي، أتسقّط أخباره من أفواه الخَدم والفلاحين الذين يعملون عندنا، لم أكن مُهتمة من قبل نهائياً بمُجالسة النساء اللواتي يتجمعنَ في مطبخ أمي وقت الضُحى لشرب القهوة وقراءة الطالع وتبادل الأخبار والأسرار..

لكن بعد ذاك الصباح الضبابي الذي أصابني بالدوار، لم تعد صورته تفارقني، بدأت أواظب على حضور تلك الجلسات وسط دهشة أمي، على أمل أن يسقط اسمه وسط محافل ثرثرتهنّ، وكان هذا غالباً ما يحدث لكنه لم يعد كافياً لإرواء عطشي له. كانت الأخبار ممزوجة دائماً بالمُبالغات والحكايات التي لا يمكن أن أصدّقها، وكان هذا يزعجني فأفكر في نسيانه.. لكنني لم أستطع.

تردّدت كثيراً.. وخفت كثيراً من ضعفي. وأخيراً قررت زيارة كنيسة «العائلة المُقدسة» التي يعملُ فيها ويعيش في البيت المُلاصق لها. لم أفكّر في مبررات لهذه الزيارة الغريبة، بل سرتُ إليها كالمُغيبة التي لا تعرف إلى أين يمضي بها قدرها!

الكنيسة، سبق لي وأن زرتها في مناسبات قليلة، لكني أدرك الآن بأن زيارتي لها مُغايرة تماماً.. سرتُ إلى حيث توقد الشموع لطالبي النذور والحاجات الخاصة، أوقدت شمعة ووضعتها تحت أقدام سيدة الأحزان وتمنيت أمنية بذيئة!

كانت الكنيسة خالية إلا من شابة نَحيلة بشكل يُثير التعاطف التلقائي معها، مُتّشحة بالسواد من رأسها، الذي أسدلت عليه شالاً أسود مُطرزاً بشكل جميل، إلى أسفل قدميها. كانت راكعة على مقاعد الصف الأول وقريبة جداً من جَسد المسيح المَصلوب المعلّق على الخشبة، تتحدّث معه بصوت خفيض يعلو أحياناً لكن الكلمات تظل مُبهمة لا يفهمها سواهما، لا تنظر نحوه بشكل مُباشر بل تدير رأسها إلى الجانب قليلاً، لا أدري احتراماً أم خشية؟

كفّاها متشابكتان أمام صدرها، تتدلّى منهما سبحة من العقيق معلّقٌ في نهايتها صليب ذهبي.. تبدو الفتاة وكأنها تريد الإمساك بطيف ما، روح ما، أو ربما تبحث عن الأمل..

على غير مبعدة منها كانت هناك امرأة بدينة بعض الشيء تتحرك كما النحلة وهي تقوم بأعمال التنظيف اليومية، تُنقّل نظراتها ما بيني وبين الفتاة المُتّشحة بالسواد، ربما كانت تخاف عليها من الذوبان والتلاشي زُهداً أمام المسيح النازف على الصليب.. بعد أن رأتني أوقد شمعة للسيدة العذراء، توقفت عن الدوران وبدأت تنظر نحوي مباشرةً وبجرأة فيها شيء من الحذر.. بالتأكيد هي تعرف كل مُرتادي الكنيسة.. شعرتُ بالارتباك قليلاً، فآخر ما أتمناه هو حديث مع شخص لا أعرفه، لهذا بقيت واقفة أمام تمثال العذراء وأنا لا أعرف ما الذي أفعله هنا بالضبط!!

البرودة اللطيفة والعتمة الناعمة أغرياني بالجلوس غير بعيدٍ عن الفتاة النحيلة والتَمتع بذلك الهدوء الغريب الذي عزلني عن الفوضى المزعجة في الشوارع المُحيطة.. بدأت أتأمل جدران الكنيسة المليئة بالرسوم البدائية التي تشي بأنها ليست سوى رسوم هواة لا يتمتّعون بأيّ موهبة. لكن الخشوع الديني التي تُثيره المواضيع المُختارة كان مؤثراً، لقد اختار الرسّام التركيز على ساعة الصلب الحزينة كما وردت في الكتاب المُقدس. لقد بدا لي أن الجمع بين الحكاية الواردة في الكتاب المقدّس والرسم يدفع المُتلقي إلى التعاطف مع اللوحة بغضّ النظر عن قيمتها الفنية

التي لم تكن هي القضية الأساسية عند الذي رسم اللوحة. لكني، بحكم دراستي الفنية، لم أستطع التغاضي عن بدائيتها، بل أربكتني وضايقتني.. كانت الكنيسة مُعتمة رغم الشمس الجميلة المُشرقة في الخارج، وكانت تنبعث منها رائحة عفونة خفيفة ممزوجة بالبخور العُماني.. ورائحة رجل جئت أبحث عنه!

الضوء الشاحب الذي تسللَ إلى باحة الكنيسة عبر شبابيكها ذات الزُجاج المُغبر نثر جواً من الحزن الذي يلتصق بالجسد، المرأة البدينة لم تقم بتنظيف هذه الشبابيك على ما يبدو مُنذ زمن بعيد.. المقاعد، خشبية قديمة ذات لون بُنيّ غامق، تحول مكان الجلوس عليها إلى بُنّي فاتح مع مرور الزمن، كأن كل مؤمن جَلسَ على هذه المقاعد أخذ شيئاً من لونها وتركَ أثراً لا يُمحى. كم من البشر جلسوا هنا وأصغوا لعظات وخطب القساوسة، يحملون بداخلهم مخاوفهم، وأمانيهم، ومَللهم، أو خشوعهم، ورغباتهم في مُعجزة إلهية، وخطاياهم التي جاؤوا بها إلى هنا على أمل الخلاص! وأشياء أخرى كثيرة.

أحسست بكل ذلك فمنحني هذا الإحساس مُتعة غريبة، وقلبي كان يُحدثني بأن زيارتي هذه لن تكون الأخيرة..

بالفعل تكررت زياراتي في الأوقات التي تخلو فيها الكنيسة من المُصلّين، وكان من الطبيعي أن تنعقد بيني وبين المُنظّفة البدينة نوعاً من العلاقة الودية، بعد أن عرّفتها بنفسي، فزالت نظرة الريبة على الفور بعد أن تعرفت على اسم عائلتي.. علمت منها أن زوج

تلك الفتاة النحيلة المُتشحة دائماً بالسواد، قد هاجر إلى الدنمارك مُنذ ثلاث سنوات ولم يصلها منه أي خبر.. وهي تأتي كل يوم تُصلي وتتضرّع ألا يكون مصيره كمصير الكثيرين من الشباب المُهاجر، الذين قُبرت أحلامهم في قاع البحر..

تردّدي على الكنيسة لم يكن خالياً من أمنية تشبه أمنية جنيّة لاهية تسكن في أعماقي، ترقص بخفة مُذهلة، تُدغدغني وتعدني بلقائه رغم تأنيب الضمير الذي لا يتركني بهدوء لأمارس إصراري على الجنون.. فطيفه مُنذ ذاك اليوم الضبابي لم يُفارقني أبداً، بل يدفعني نحو التهوّر متخلية عن كل ما تربّيت عليه من أفكار تتناقض مع اندفاعي الأهوج..

ما السر وراء كل ذلك؟ هل هي الأساطير التي كانت تُحاك عنه لتنتشر في أزقة وشوارع البَتاوينْ، وفي جوف شُققها شبه المُظلمة، وفي باراتها وزوايا بؤسها وقصور مُترفيها على السواء!

هل هي وسامته التي بهرتني وأنا أرى الصباح البغدادي الأجمل على وجهه! في الحقيقة لم يكن مهماً بالنسبة لي أن أعرف لماذا أريد رؤيته بل المهم أنني أريد أن أراه! فمُطاردة طيفه بدأت تجلب لي السعادة واللذة والإدمان على شيء لم أعرفه من قبل، والأهم من كل ذلك أني نفضت رداء الملل الذي كان يطغى على حياتي آنذاك..

مملوكة التي تتواجد معظم الوقت داخل القصر، تختفي وقت الظهيرة ولا أحد يعرف إلى أين تذهب، بالتأكيد أمي كانت تَعرفُ

ذلك، أما نحن فلم نكنّ نهتم.. بعد عودتها عصراً، تجلس مع أمي في المطبخ «مملكة الأسرار» لإعداد شاي العصر مع بعض الشطائر التي كنا نُحب تناولها في مثل هذا الوقت من اليوم، وتَسرد على أمي آخر أخبار الحيّ وما استجد مُنذ الأمس!

أحياناً كنتُ أدخل إلى المطبخ لجلب حاجة ما، فتتوقفان حالاً عن مواصلة الحديث الهامس أصلاً.. مملوكة كانت ولا تزال مصدر كل الأخبار التي تَردُ إلى القصر من بواباته الخلفية، تلك الأخبار الي لا يصحُّ تداولها بصوت عالٍ! هي تعرف الكثير من الحكايات التي كانت تدور في تلك الأيام عن تلك الشخصية التي اقتحمت الحيّ واستولت على المُخيلة الشعبية فيه.. بالصُدفة، سمعتهما ذات يوم وهما تتحدثان عن علاقة غير شرعية يُقيمها الأب فريدون مع إحدى الفتيات!

بغضّ النظر عن مصداقية الخبر، إلا أن شعوراً مفاجئاً بالغيرة، هاجمني بشكل شرس، كحيوان كان يترصّد ضحيته في الظلام! أجل، غِيرة حارقة انطلقت كالنار المشتعلة في داخلي، لا أعرف كيف أوقفها أو أضع حداً لاشتعالها! فأنا لم أره سوى مرة خاطفة ولم أردّ حتى على تحيته آنذاك!

قررت أنه عليَّ أن أقوم بامتحان حقيقي لمشاعري الآخذة في مزيد من الاضطراب، فلا يُمكن أن أظل أتردّد على الكنيسة على أمل أن أراه، وبدلاً من ذلك تبتلعُني شهية الثرثرة مع المُنظفة البدينة إستير.. التي لَفَتُّ انتباهها آخر مرة إلى الغبار المتراكم

على الشبابيك بحيث يمنع الضوء وأشعة الشمس من الدخول إلى جوف الكنيسة بعد أن يئست من مُبادرتها الشخصية، فقامت بشطفها ببراعة حتى بدت كأنها زُجّجت للتو..

صحيح أني اتخذت قراراً لكنه ظل مُبهماً، فكان عليَّ أن أحسم المُغامرة التي قررت الدخول فيها، والتي بدأت تُغيّر نمط حياتي.. وقد أصبحتُ أميل إلى العزلة مغرقة نفسي في أحلام اليقظة التي بدأت بممارستها في بيت ماري.

كنت أقوم بزيارة البيت مرة في الأسبوع تنفيذاً لعهدي الذي قطعته لماري بأن أسقي المزروعات وأعتني بها.. ثم رحت أقضي الوقت مع أحلامي وأهمل سقاية المزروعات.. واستعنت لذلك بِريجينة المومس، جارة ماري.

كنتُ أعرف أن رِيجينّة تمتهن أقدم المِهن، لكن لا أحد يتحدّث عن ذلك بصوت عالٍ. بل كان يتم الحديث عن هذا الموضوع بالهمس والإيماءات.. وهي بعد أن اجتازت أعتاب الشباب، كانت تقوم بمساعدة ماري في تنظيف البيت وإدامة رونقه، لهذا كان من المنطقي أن ألتقي رِيجينّة كلما جئت لزيارة البيت..

بدأت العلاقة مع ريجينّة رسمية وباردة، تأتي لمساعدتي عندما تراني دخلت البيت. نتبادل، بحذر من طرفي، بعض الكلمات، وأقطع الحديث كلما لاحظت أنه قد يمسّ مسائل شخصية، فقد كانت سمعتها غير محبّبة لي. مع الوقت اكتشفت فيها روح المرح وحب النكتة، وأنها نوعية من البشر الذين يتمتّعون بموهبة طبيعية

في هذا المجال، وفيها طيبة واضحة رغم سوقية عباراتها.. ثم صارت هذه السوقية تضحكني من الأعماق وتجعل من لقاءاتنا القصيرة متعة..

لم يكن الأب فريدون قدّيساً في تخيّلاتي، لذلك ازداد إعجابي بها عندما علمت أنها من القلائل الذين رفعوا راية العصيان ضد جبروت القسّ.. رِيجينّة لا تتردد على الكنيسة منذ زمن بعيد جداً، كما تقول، ولأنها بحاجة إلى المُباركة الروحية، اكتفت بإقامة ما يشبه المذبح الصغير في شقتها، تتوسطه أيقونة لمريم العذراء، التي تصفها دائماً، بصديقتها الوحيدة في هذا العالم القاسي الذي لم يرحمها!

في البداية كنتُ فعلاً أخشى التحدث معها، خوفاً من أن تلتصق بي آثامها التي تجرّها وراءها بفعل مُمارستها للبغاء سنين طويلة، لكن رويداً رويداً اكتشفت فيها الإنسانة المُخلصة لجارتها ماري العجوز، كما اكتشفت تصالحها مع نفسها، رغم عبء الخطيئة الثقيل الذي تنوء تحته.. رِيجينّة لم تكن تُصدّق أنَ الأب فريدون لا يمارس الجنس مع امرأة: «أعرف الرجل من عينيه، وعينا القسّ تحكيان الكثير، على غير ما يتداوله الناس عنه».

كنتُ أريد أن أصدّقها بغضّ النظر عن وجاهة حججها. في كلامها أمل يبقى في دائرة الشكوك، وأنا أريدُ أن أنقلهُ إلى دائرة اليقين!

لم تكن رِيجينّة فقط مُدمنة على روح الدُعابة المُرةَ، بل كانت مُدمنة على الخمر والغناء أيضاً.. هي لا تؤدّي سوى الأغاني الطربية

القديمة التي تُجيدها إلى حد بعيد، تُحب النظر إلى الوراء دائماً، وتعتبر أن كل ما مضى، كان نقيّاً.. وقد التقينا في هذه النظرة إلى الماضي! وكنت أتساءل عن أيّ ماضٍ تتحدّث؟ أنا أتحدّث عن ماضٍ أفخر بأني أنتمي إليه! أما ريجينّة، فلم أعرف ما الذي تقصده تماماً بالماضي!! بدا لي أنها تَحنُّ إلى زمن كانت تتحكم فيه بالرجال!!

أي شجن عذب يكمن في صوتها الرخيم.. عندما تُغني تلين تقاطيع وجهها وتُمارس فن التمتع بالكلمات فتُخرجها بكل رفق محمّلة بالمشاعر والتأوهات من بين شفتيها المُلطختين ببقايا أحمر شفاه من النوع الرخيص، وخمر!

تعمّقت الثقة بيننا، فأعطيتها نُسخة من مفتاح بيت ماري، لكي تقوم هي بأداء المستلزمات المطلوبة عندما لا يسمح وقتي بذلك.. وهكذا توطدت العلاقة بيننا بشكل سلس وسط دهشتي وبحثي اللامُجدي عن سبب معقول يدعوني إلى مُجالسة هذه المخلوقة! لكني لم أجد أكثر من تبرير سطحي، هو أني أريدُ الهروب من جلدي الذي وضعتني فيه العائلة ذات التاريخ العريق، فهي لم تكن تعرف من أنا، وتجهل تماماً تاريخ عائلتي، ولم تتوقّع أن يكون لماري صداقات مع علية القوم، ومسألة الأنساب لم تكن تعنيها بالمرة، فهي التي عرفت كل أنواع الرجال تجد هذه الأمور بالغة التعقيد وتافهة!

في إحدى الأمسيات الربيعية الجميلة، تواعدنا على اللقاء

في باحة بيت ماري، على أن تقوم هي بإعداد طعام شهي صرت أعرف أنها تجيد صُنعه.. عندما فتحت باب الحديقة، فوجئت بأنها وضعت المائدة بالقرب من البئر المهجورة التي تُزيّن حوافها الزهور التي أحرص شخصياً على رعايتها.. كان المنظر جميلاً بل آسراً، أشعرني على الفور بالراحة التامة وأنا أغلق ورائي الباب الحديدي الأخضر للحديقة، فهنا في هذا المكان لم أعد أنا، لم أعد أنتمي إلى تاريخي الذي تركته وراء الباب. صرت مُجرد امرأة جاءت تبحث عن شيء غرائبي يُخرِج المَلل الذي احتل حياتها ولو لأمسية ربيعية واحدة.. رِيجينّة كانت قد أكملت إعداد المُقبلات والمازات، ونصبت قنينة العَرق المحلّي وسط الطاولة، ففلسفتها تقوم على احتساء بضع كؤوس قبل العشاء لفتح الشهية!

لم أكن ممن يرغبون بشرب الكحول، لكني قررت أن أضع أمامي كأساً لكي لا أفسد مُتعتها وأرتشف أحياناً القليل منها.. رِيجينة تُقسم الزجاجة إلى ثلاثة أرباع متساوية.. الربع الأول يجعل لسانها لا يتوقف عن إلقاء النكات والثرثرة الفارغة المرحة، وهو أروع ما يُصيب هذه المخلوقة في يومها، الربع الثاني يجعلها خفيفة الوزن، ترقص وتتمايل على أنغام تنبعث من جهاز تسجيل صغير جلبته معها ووضعته على حافة البئر، وكان لا يتوقف عن إذاعة الأغاني العراقية القديمة جداً، التي أحبُ أنا أيضاً الإصغاء إليها.. أما الربع الثالث، الذي لا تُكمله في العادة، فهو فاتح بوابات الحزن والذكريات المريرة، خلاله تَندبُ حظّها العاثر الذي حوَّلها

إلى مضغة في أفواه سكان الحيّ الذين تتهمهم دائماً بنكران الجميل والجحود وبعض الأوصاف السلبية الأخرى، وتعتبر نفسها أكثر تمسّكاً بأهداب الفضيلة والأخلاق من غالبيتهم، فهي تعرف خزّان أسرارهم.. لكنها تعود سريعاً وتؤكد أنها لا تستطيع الابتعاد عنهم والعيش في مكان آخر، وكأنه نوع من العقاب النفسي وجَلدٌ مُتواصل للذات.. شيء واحد تُحجم عن الإيغال فيه مهما بلغت بها حالة السُكرْ.. سيرة الأب فريدون!

عندما أتعمّد الإتيان على ذكره أملاً بمعرفة المزيد عن هذا الشخص الغامض الذي سحرني، يرجع إليها بعض الرُشد ويربط لسانها ويمنعه من الانفلات، تبدأ بتكرار ما يردّده الناس عنه، وعندما أزيد جُرعة الاستجواب أو أسألها لماذا لا تذهب إلى الكنيسة؟ وما الذي جعلها تقول إنه على علاقة بإحدى الفتيات؟ تتهرب منيّ إما بالبكاء أو بغناء السكارى مصحوباً بطرقعة أصابع يدها بطريقة عجيبة كما لو أنها آلة موسيقية!

لم يغب عن بالي أبداً أني أسلك طريقاً في غاية الخطورة، بل ربما هو أخطر من ذاك الذي اختارته جلنار، ولا أستطيع تخيّل رَد فعل أمي لو عرفت بأني أجالس رِيجينة، تلك المخلوقة التي أراها ممتعة، ويرونها ملعونة! لكني أعي في الوقت نفسه، أنيّ لم أعد ذاك الشخص القادر على إيقاف قطار قدره، قطار يقودني بعيون مفتوحة نحو هاوية لا أرى لها قراراً، وكلّي أمل أن ألقاه هو في نهاية الرحلة حتى وإن كان آخر شخص أراه!

رِيجينة لم تذهب إلى الكنيسة مُنذ صغرها فهي على خصام أبديٍّ معها، لكنها تعرف كل الأخبار التي تدور حولها، فلقد أخبرتني ذات مرة بأنها سمعت من إحدى اللواتي تثق بهنّ، أن القَسّ ألقى قُداس يوم الأحد وأتى على ذكرها من دون ذكر اسمها صراحةً، بل تحدّث عن عاهرة عصت الرب.. رِيجينة أخذت الأمور على محملٍ شخصيّ واعتبرت أنه شَنّعَ بها. حاولت أن أقنعها بالعكس وأنها ليست العاهرة الوحيدة في حيّ البَتاوين! لكنها كانت مُصرّة، بل بدا لي أنها كانت تُريد أن تكون تلك المرأة الخاطئة، كأنما عندها رغبة دفينة بتعذيب النفس!

علاقة «الصداقة» الغريبة التي ربطتني بها بدأ يصبح لها بعض الطقوس الثابتة. فأنا، ابنة العادات والطقوس، ولم أردع نفسي عن تلك العلاقة مع رِيجينة.

صارت لقاءاتنا تتكرر أسبوعياً في بيت ماري، أعطيها المال لتقوم هي بالتسوق وإعداد مأدبة صغيرة تتوسطها قنينة العَرق المحلّي، الذي لا تستطيبُ مذاقاً آخر لأي أنواع الخمور الأخرى ينافسه. كالعادة كنتُ أشاركها قليلاً، هذه المشاركة الخائفة والخجولة، إضافة إلى رائحته الحادّة وجوّ الجلسة، كانت كافية لنقلي إلى جو مُتحرر لذيذ هيّئته لي، ولها، المومس الثرثارة، التي كانت تشعر بالوحدة على الرغم من أنها تعيش في حيّ لها فيه العديد من الأقارب وتعرف معظم أهله..

الجمال لم يكن قد غادرها بشكل نهائي، بل ترك لها بمحبة

لمحة جذّابة جعلها تفخر بها، خصوصاً بعد أن يذهب تأثير الكحول عنها وتضع بعض المساحيق الخفيفة على وجهها المُتعب لتُعيد إليه رونقاً جذّاباً..

في بداية علاقتنا كنتُ أتجنّب تماماً الدخول معها في تفاصيل عملها في سوق بيع الأجساد على الرغم من علمها، بأني على معرفة بالأمر، لكن كلانا التزمت عدم الإتيان على هذه السيرة حتى في أقصى حالات السُكر الذي كان يُتعتعها بعد الربع الثاني، فهذا خط أحمر حددته أنا بوضوح، وهي لا تجرؤ على الاقتراب منه لأنها كانت تُريد أن تحافظ على علاقتها بي.. في الحقيقة لم أكن أعرف لماذا كانت حريصة على إدامة علاقتها بشخص مُملٍّ مثلي!

بدأتُ أدمن على أحاديثها المُمتعة الغارقة في المجون والغرائبية التي لم أعتد عليها، بل ولم أسمع مثلها من قبل! بسبب هذه المتعة سمحت لها بأن تعبر خطوطي الحمراء، بعد أن ألقيت عليها بحذر بعض الأسئلة التي تُسهّل عليها طريق الإيغال في خبايا العالم الذي لا أعرف عنه أي شيء سوى ما قرأته في الكتب أو شاهدته من خلال شاشات السينما والتلفزيون.. عالم البغاء!

كنتُ أظن بأني قد جرحت مشاعرها عندما واجهتها ذات مرة بسؤال: «كيف تحتملين النوم مع رجل مختلف وغريب تماماً كل يوم؟».. ضحكت بخفة وكأني ألقيت على مسامعها نكتة! ثم بدأت تروي بحذر بعض التفاصيل التي وجدت نفسي مُنجذبة

إليها، حتى وصلت إلى مرحلة الإدمان على هكذا أحاديث داعرة، بل وأزيد عليها بعض الأسئلة الجوّانية، مُستمتعةً بخوضي في هذه القذارة «اللفظية» التي لا تخصُني بل تَخصُ بالصدفة امرأة تجلس إلى جواري..

لم يُخجلها ما روته لي، بل على العكس لقد لمست فيها عدم المُبالاة التي تصل إلى حدود التعوّد أو الإلفة في إسكات الأسئلة المُقلقة التي ربما تصل إلى درجة حُبْ العمل نفسه!

روت لي التفاصيل بطريقة كوميدية جعلتني أتقلّب ما بين نارَيْ الضحك العلني والرغبة الدفينة في أن أبادلها المكان! إلى أن وصلت إلى مرحلة صرت أحب أن أتقمَّص شخصيتها بعد أن نفترق، وأفكر في تفاصيل يومها وأمارس حلم دعارتي وبغائي على الفراش الفارغ وبخيال مُلتهب!

صار بعد ذلك من العادي أن تتلفّظ أمامي بألفاظ فاحشة وان تذكر أسماء الأشياء بمُسمياتها دونما خجل، بل بتشجيع منّي! في البداية كنتُ لا أستطيع أن أمنع احمرار وجهي، وفي الأخير كنتُ أرغب بسماع المزيد من تلك الألفاظ الداعرة التي لم أسمع بها طوال حياتي!!

كانت دهشتي باكتشاف عالم لا أعرف خرائطه، ولو على سبيل السمع والوصف المجازي، أكبر من كل شيء آنذاك.. بالنسبة لها تبدو الممارسة الجنسية عادية جداً تحدث لكل البشر، وربما هي أجمل ما في هذه الحياة! تقول بصلف يتعدى حدود الثقة بالنفس:

«كل البشر عندما يعودون إلى بيوتهم يمارسون الدعارة الشرعية!».

بالتأكيد فتحت علاقتي بها بوابة عالم محظور الحديث عنه بشكل علني، وكانت سعادتي أني أستطيع النظر إلى هذا العالم الملعون من دون أن أتلوّث به بشكل شخصيّ: عالم المُومسات والقوّادين وتجارة الجسد في مُجتمع يدّعي المُحافظة.. عرفت من حكاياتها أن هذا العالم له قوانينه الخاصة الصارمة والدقيقة للغاية، عالم يسير بالتوازي، وبنفس الزخم، مع عالم «الفضيلة» ويضبط إيقاعه معه من دون تَداخُل في عملية على قدرٍ كبير من التعقيد، لأن العالمَيْن مترابطَان في النهاية. فمعظم المال الذي يشغّل العالم التحتي لحيّ البَتاوينْ يأتي من العالم العلوي، وهذا يُقدّم الحرام المَسكوت عنه من خمور وأوكار قِمار وبيوت دعارة لزبائنه من العالم العلوي!

من رِيجينة عرفت أن أجواء ألف ليلة وليلة لا تقتصر على عالم الكُتب والتراث المحكي، بل لا تزال تنبض بيننا، حتى وإن لم نشعر بها أو نعتقد بعدم وجودها. وربما لأننا لا نُريد أن نعرف عنها شيئاً! تلك الليالي لم ينقطع هديرها مُنذ مئات السنين على ضفتيّ دجلة الحكيم الذي يغسل بمياهه الجارية الخُطاة والفاضلين، على السواء!

نعم أحببت هذه المخلوقة التي كانت تتحدث عن حياتها أمامي بلا أي خجل، وربما بشيء من الحنين لعِفّة مُغتصبة. خيط غير مرئي من الحَسرة أو الرغبة في القفز من على قمّة برج إيفل.. امرأة

لا تقارن نفسها مع النساء الأخريات ليس خجلاً أو ترفّعاً لكن إحساساً بفرديتها وحدود عزلتها الباردة..

تبدو مُتمسكة بعلاقتها الغريبة معي كونها، على ما يبدو لي، تمنحها فرصة نادرة لإقامة علاقة مع العالم الذي لا يُمكن أن تتصالح معه، عالم غادرته مُنذ زمن بعيد لكنها لا تزال تَحنُّ إليه.. عالم العِفّة!

رِيجينة لم تكن امرأة سيئة أبداً، فهي تُساعد الآخرين من دون أن تضطرهم لطلب المعونة منها. وفي الوقت نفسه تتقبل جحودهم الذي هو جزء من لعبة تعايش قيمتين مُتناقضتين في المكان نفسه.. الفضيلة والخطيئة.

الغريب في الأمر أنها لم توجّه لي أي سؤال شخصي، حتى بعد أن غزوت حياتها بأسئلتي، وحتى بعد أن تشرب الربع الثالث الخطر من قنينة العَرق المحلي والذي معه يختفي خجلها على حواف الكاس الذي ترتع منه، وفي الأخير تستقر القنينة الفارغة في مكان ما على حشائش حديقة ماري الطبّاخة..

علاقتنا منحتني حُرية سحرية مغرية كان من الممكن أن تأخذ منحى آخر لم يكن في الحسبان أبداً.. حدث ذلك ذات يوم شعرتُ بتوتر في كتفي اليمنى ورقبتي مع تشنّج مؤلم، رِيجينة طلبت مني بحذر أن أنزع قميصي، ثم جاءت بدهن ذي رائحة غريبة حادّة، مرسوم على زجاجته الصغيرة جداً صورة فأس، صيني الصُنع، سكبت على كفيها بعض القطرات ثم باشرت بتدليكي بيدها

المُدرَّبة على مُلامسة مكامن اللذة.. في البداية أزعجني الإحساس بالدهن واليد الغريبة على لحمي الذي امتصّ حرارة الدهن بشكل تدريجي، وبدأت أشعر به وهو ينتشر سريعاً في كل أنحاء جسدي، بل حتى في ثنايا عقلي.. يدها تدور وتدور وأنا أفقد القدرة على التركيز وتغزوني رغبة في الاستسلام التام، كأنني أصبت بشيء من الدوار المُخدّر اللذيذ الجديد على جسدي..

الأيادي لها لغتها الخاصة ولغة يدها كانت ذات رسالة واضحة تدعوني للكف عن المقاومة، شعرت بأنفاسها أثناء اقتراب وجهها من كتفي ورقبتي فيكاد يُغمى عليّ.. إلى الآن لم أعرف أبداً إن كانت تلك رغبة دفينة للاستجابة ليدها المُدرَّبة أو هي شيئاً آخر دفيناً في نفسي.. في نهاية تلك المُغامرة الخاطفة استطعت بصعوبة أن أرفع طرف قميصي لأغطي كتفي العارية وآثار يدها مطبوعة على لحميّ وأنفاسها تتغلغل فيّ من دون رحمة! كان شعوراً غريباً يَعدني بالعتق من عبوديتي التي وضعت نفسي طوعاً في إسارها، أو التي وضعتني عائلتي تحت نيرها باعتبارنا حاملين لرسالة التَحَضُّر في مُجتمع مُتهالك.. شعور يعدني بهروب خاطف من بين جدران تابو نتوارثه مُنذُ أن بدأت عائلتنا تعلي من شأن قيمتها الاجتماعية على حساب حرية أفرادها.. أي مُنذُ سبعة أجيال، كما تُشير إلى ذلك شجرة العائلة التي نحتفظ بها في القصر وكأنها وثنٌ مُقدس أو تابو يتراكم على جدرانِه غُبار مئات السنين التي كادت يَدُ رِيجينة المُدربة أن تُطيحَ بها في ثوانٍ..

لا أنكر أني بفعل اقترابي منها تحولت إلى إنسانة أكثر وعياً، وجرأة، بل ومرحاً! كنتُ أشعر بأني أتحرر من شيء أبله لا أعرف له اسماً.. في الماضي لم أكن أتصوّر أبداً وجود مثل هذا العالم الكبير الماجن، والصارم، والمُثير الذي أثرى قاموس كلماتي، فالعالم الذي نشأت فيه كان يُنكر بإصرار وجود مثل هذه المخلوقات بالمرة، ومن العار مُجرّد التفكير فيه أو تصديقه.. لكن ها هي ريجينّة تُثبت لي وجود هذا العالم، برجاله ونسائه وأطفاله غير الشرعيين، وملاحمه، وأبطاله، وضحاياه، وأساطيره الجمالية، وبدائيته المتخلّصة من عبء التاريخ أيضاً.. أناس يعيشون بيننا ويملأون أزقة المدينة التي تُنكر وجودهم خوفاً من سُمعة كاذبة وعار مُزيف! عالم يَزخر بالحكايات الملحمية وقصص الحب الأخّاذة، لهُ أسماؤه التي تُثير الرعب والفزع في العالمَيْن العلوي والتحتي!

لا أحد يُريد إيقاظ هذا العالم السحري الملعون خوفاً من الفضائح الطيارة التي ستطال بالتأكيد العديد من العوائل والأشخاص في العالم العلوي من المدينة المُلوَّنة.. اكتشفت معها ضَعفي إزاء قوتها، التي لا تعي هي حدودها، بل تراها طبيعية..

ريجينّة إنسانة خارج كل السياقات التي خَبرتها في عامة الناس الذين عرفتهم، فذّة، تمتلك طاقات جبّارة وتتعمد إهدارها. تعرف تماماً بأنها تستطيع أفضل مما منحته لها الحياة لكنها لم تكن تُريد مُغادرة الوحل الذي تعوّدت عليه! كم مرة فاجأتني بحركة طبيعية منها، إذ تصرّفت بطريقة رفيعة، جميلة، جعلتني أظن أنها سليلة

أرقى العوائل. كم مرة تصرفت بحكمة موزونة، رمتها في لحظة صمت نبيلة.. كنتُ أحب مراقبتها وهي تُدخن، فالسيجارة بين أصابعها مثل لوحة جميلة لرسام مجهول، عندما تضع أطراف أصابعها على جبينها وتغرق في التفكير، وعندما تنظر نحوي من طرف عينيها بكل سُخرية وكأنها تقول لي: ساذجة!

هل كنت بانجذابي نحوها، أريد أن أتخيل علاقتي بجُلنار التي رحلت وتركت لي وراءها شوق التعرف عليها؟

أعلم أني أمزج بين المرأتين. لكني أفعل ذلك بكثير من الوعي، كما تعلمت مزج الألوان أثناء دراستي الفنية.. معها أحسستُ بأن الحياة لم تقطع حليب الطفولة عني بعد..

بالنسبة لها كنتُ أنا المُغايرة تماماً، تعليمياً، وثقافياً، واجتماعياً، ودينياً.. شخص يُمكن لها أن تُمارس أمامه البوح الذي لا تستطيعه مع الآخرين الذين ينتمون فعلاً إلى عالمها، وهذا ما لم يَحدثْ معها. حتى علاقتها مع ماري لم تتجاوز حدود علاقة جارتَيْن، علاقة حذرة أيضاً وإن كانت كل منهما تكنّ المودة للأخرى. فماري لم تفتح لها بيتها إلا بعد رحيل أبنائها الثلاثة إلى العالم الجديد البعيد وموت يونس زوجها.. وريجينّة اكتفت بالتحية والابتسامة لسنوات طويلة قبل ذلك..

لا أنكر أني حاولت أن أمنع نفسي من الانزلاق التام في هذه العلاقة الغريبة بالقوة، وحاولت أن أعود لأضع لها حدوداً في كل مرة أشعرُ فيها بأني ذهبتُ بعيداً، كما في تلك المرة التي سمحت

لها بأن تضع يدها على كتفي المُتشنّجة! لم أشأ أن أسألها عن سبب امتهانها للدعارة وهي المرأة الذكية الجميلة التي كان من الممكن أن يكون لها شأن آخر وحياة أخرى، قبل الانزلاق إلى هذا العالم الذي لا يغفر لمن يرتد عنه!

لكنها، وحدها، قررت في ليلة صيفية مُقمرة، طويلة وحارة، أن تتكلم. اختارت في تلك الليلة أن تُحدّثني عن بداية رحلتها نحو الضفة الأخرى، كما الآلهة عشتار التي نزلت إلى العالم السُفلي للبحث عن حبيبها تَموز! لم أشأ مُقاطعتها لأني لمست رغبتها القوية في الفضفضة.. وقد فرحت لذلك..

أكملت يومها كأسها الثانية من العَرق، وضربته على الطاولة بصوتٍ مسموع..

كل شيء ابتدأ عندما اضطرت عائلتها أن تهاجر من الشمال نحو العاصمة، بحثاً عن حظوظ أفضل من تلك التي صارت معدومة في الجبال الوعرة الباردة التي تعيشُ حالة اللاحرب واللاسلم العرقية الدائمة. عمل أبوها في أحد الفنادق القريبة من دارهم، وهو فندق كان يملكهُ قريب لهم.. كان الأب السكير يعود كل يوم في وقت متأخر لتبدأ حفلة التعذيب، كما سمتها، حيث يقوم الأب بضرب وسَب الأم.. لكنه كان حريصاً على عدم الاقتراب من ريجينّة وأخوتها الصغار، إلى أن أدركت بأنها هي المُسبب لهذا العذاب، فالأب كان يريد لها أن تعمل في الفندق الذي يعمل فيه، والأم كانت تُعارض ذلك بشدة لأنها كانت تخاف من المصير الذي

ينتظر ابنتها في حال عملها في هذا الفندق المشبوه. «كانت والدتي تمضي يومها بالبكاء كونها تُدرك أيضاً حدود قدرتها وعجزها عن إيقاف الكارثة القادمة إن عاجلاً أو آجلاً، كل الذي استطاعته هو التأجيل..».

ريجينّة، التي كانت صبية جميلة في السادسة عشرة من عمرها آنذاك، كانت تُصغي كل ليلة لهذا النكد الذي أصبح لا يُطاق عند عودة أبيها المخمور إلى الدار، إلى أن أصبحت مُهيأة نفسياً لعمل أي شيء للخروج من هذه الدائرة الجهنمية..

تقول لي وهي تبتسم بسخرية أنها قد ورثت حُب احتساء العَرق من أبيها الذي كان يَسكر كل ليلة على مائدة سامان صاحب الفندق، ويسأله كل يوم متى ستأتي ابنته للعمل في الفندق؟

لم يكن سامان يستطيع الاقتران بريجينّة كونه مُتزوجاً ودائم التشاجر مع زوجته التي كان يَصبّ عليها كل يوم لعناته وشتائمه أيضاً ويُهددها بالتحول إلى الدين الإسلامي ليقهرها وليُشبع رغباته الجنسية التي كانت تتمنّع عنها لأنه يأتي كل يوم مخموراً ويهدر أمواله في ما لا يرضي الله كما ترى هي المتديّنة.

كل يوم يؤكد سامان للوالد بأنه سيعامل ريجينّة كملكة لو أقنعها أن تعمل في الفندق. «لم تكن أهداف سامان لتغيب عن والدي أيضاً، لكنه هو الآخر كان عاجزاً وراح يغرق في الديون التي كان يستدينها من سامان الذي يجعله يوقّع على أوراق الاقتراض..». المُقاومة الشرسة للأم لم تستمر إلى الأبد، لا أحد كان قادراً على

إيقاف قدر ريجينّة فالضغوط كانت أقوى من الجميع، حدث كل شيء بسرعة. «في تلك الليلة لم يأتِ والدي إلى البيت.. جاء في الصباح وأنا أتحضّر للذهاب إلى المدرسة.. كان في غاية السكر وقال لي لن تذهبي إلى المدرسة اليوم.. فهمت السبب، وكنت راغبة في الخلاص من هذه المُشكلة..عرفت أنه سيقودني إلى مكاني الجديد.. سرت معه من دون أن نتبادل كلمة واحدة».

تقول إنها شعرت فجأة بتقدمها في العمر، وأنها قفزت فوق السنين. وأدركت أنها لن تدوس عتبة المدرسة التي تُحبها مرة ثانية. نضجت بسرعة خيالية، حرارة الشمس الحارقة، ورائحة الكحول المُنبعثة منه التي غطت على رائحة الأبوة.. دموعه غير المرئية، ويده المُرتجفة الممسكة بها بقوة من المعصم، وعيونه التي كانت طافحة بالخزي والاستسلام، والسكوت المُرتجف الذي حل بينهما.. في ذلك اليوم أيضاً لم يبتْ في الدار، ما أحلاه من مساء خلا من الضرب والسِباب ومنه.. «كُلنا تمنينا عدم عودته إلى الأبد»، همسَت بحسرة..

فراش سامان كان فضفاضاً لم تستقرّ فيه طويلاً، تدحرجت منه بعد فترة قصيرة نحو أسرّة أخرى ومنها سرير خليل ابن سامان الذي أحبته وحبلت منه..

وهي تسردُ لي كل هذا الكم الكبير من الخصوصية المُترعة بالذل والانسحاق لم أستطع أن أمنع نفسي من المُقارنة بيننا بحيادية

باردة بعيداً عن العواطف.. مقارنة بين حياتي الهادئة المُملة بشكل مُبهر، وبين حياتها العاصفة الهادرة التي تبدو لي كقارب لا تتوفّر فيه أقل مواصفات النجاة قُذفَ بشكل قاسٍ وعنيف في بحر هائج..

كيف استطاعت هذه المخلوقة أن تتحمّل كل ذلك؟ كيف استطاعت أن تروي لي، أنا الغريبة، كل هذه التفاصيل الحميمة المعجونة بالقهر! إن وجودها القويّ أمامي هزَ حياتي وقناعاتي وكل ما اعتقدته ثابتاً.. لعبة قَدَرية لأصابع لا نراها، ماذا لو كنتُ أنا مكانها وهي مكاني، ما الذي يُمكن أن يتغير في الحكايتين؟

كنتُ أريد أن أفرّ من أمامها، أن أوقفها عن مواصلة السرد وهي تترع كؤوس العَرق وتستمتع بامتصاص حبّة زيتون مالحة! بدأت تُغنّي فاستشعرت ألمها بصورة أكبر وهو يتسلل إليّ من كل الجهات. كان صوتها النبيذي الشجي يُخرج ألمها برُقيّ يجعلها تشعر بالارتياح، ويجعلني أشعر بقهر مُبهَم..

نهضتُ بصورة مُباغتة كمن استشعر لدغة عقرب، قلت بطريقة غير مؤدبة شعرت هي بها على الفور..

«يجب أن أذهب الآن»..

وضعت كأسها بهدوء على الطاولة بعد أن كفّت عن الغناء وقالت لي بتحدٍّ لم أتوقعه منها..

«أنتِ من أثار المواجع بصمتك المُتعمَّد»..

احتجت لبضعة أيام لكي أهضم كل الذي قِيل في ذاك المساء

الذي لم يُخلّف فيّ سوى شعور قلق يتراوح بعنف ما بين التقزز من، والتعاطف مع، هذه المخلوقة المُحيّرة التي يبدو أنها لا تحمل أيّ نوع من الكراهية لأي كائن كان، حتى لأبيها الذي عندما تحدثت عنه، بدت وكأنها تبحث لهُ عن مُبررات لفعلته الشنعاء، وهذا ما أغضبني! فأنا سليلة الحسب والنسب التي تعلمت نَحت الكراهية وتحويلها سلاحاً سرّيّاً فتّاكاً أرشقُ بهِ الجميع لمواجهة الرخص السائد من حولي. وكل ما لا يتفق مع اعتقادي أشطبهُ بها.. كيف تترفّع هي على شعور متفوّق مثل الكراهية؟ هل تُريد أن تقول لي إنها أفضل مني.. من تكون؟

من جفاف النباتات التي تكاد تيبس حول البئر في حديقة ماري، عرفت أنها لم تأتِ في غيابي.. لا أستطيع أن أُنكر بأني خلال الأيام الخمسة التي لم أرها فيها، شعرت بالاشتياق لطريقة كلامها الخليعة الظريفة المُتحرّرة من كل القيود التي تُكبّلني أنا! اشتقت إلى روحها المرحة، إلى حِكمتها في فلسفة المواضيع رغم بساطة كلماتها، إلى أحاديث النميمة التي تُجيدها، إلى طريقة مسكها للسيجارة وامتصاص أنفاسها بعد أن تأخذ رشفة من العَرق.. اشتقت إلى براعة إعدادها للأطباق الشهية التي تُسميها «عيون المَازة». وتأكيدها في كل مرة تُزّين فيها المائدة بأن العين تأكل قبل الفم.. اشتقت إلى رائحتها الجذّابة المُميزة، وضحكتها الرنانة التي غالباً ما تترافق مع نوبة سُعال من كثرة التدخين.. فكرت كثيراً في تسامحها مع أبيها الذي وجدوه ميتاً في بار غير قانوني

فقامت بإرسال جُثمانه إلى قرية «باطوفة» النائمة في حضن الجبال الشاهقة النائية في أقاصي شمال البلد..

كلُ ذلك دفعني للتفكير بزيارتها والاعتذار منها، لكن المُشكلة كانت في قيامي بزيارة بيت العاهرة المعروفة في الحيّ كله!

ماذا سيقول الناس الذين سيرونني وأنا أدلف إلى بيتها؟

في الطريق إليها راح يلحُّ عليّ سؤال مُزعج لم أكن مُستعدة له: إلى أين تأخذني هذه العلاقة الاستثنائية التي أشعرتني كما لو أنني أرتكب معصيّة باستمراري وإصراري عليها! أشتاق إليها ولا أستطيع التفكير جدياً بأنها صديقتي، بل هذا التعريف يُقرفني من نفسي أولاً..

رغبتي المُبهمة بالتقرّب من الأب فريدون تحوّلت إلى كرة من نار تُهدد بإحراق حياتي كلها، وقُربها مني يُسهّل عليّ احتمال الانتظار المُبهم فأنا معها امرأة بلا تاريخ، بلا اسم معروف، بلا عادات وتقاليد تُكبّلها، بلا أي شيء.. مُجرد امرأة تبحث عن سعادتها في صحراء لا تعرف الخروج منها.. وهي، ريجينّة، دليلي الوحيد في هذا العالم..

عند الغروب حين تأخذ ملامح الأشياء غموض الظلمة وألاعيبها.. رأيت نور شُقّتها مضاءً، فولجت إلى العمارة التي كان مدخلها مُشبَعاً برائحة بول.. الضوء الشاحب الكئيب زادَ من وحشتي وشعوري بالغُربة وكَرّس انفصالي عن كل العالم..

واصلت الصعود وأنا أشعرُ بأن هذا الصعود إنما هو انحدار.. درجات السُلم تآكلت حوافها وآخر ما تبقى لي من منطق، يدعوني بعدوانية إلى التراجع!

أخيراً، ها هو باب شُقتها الذي بانت عليه آثار رفسات قديمة وثقوب لم تصل إلى حد التدمير الكامل. بالتأكيد هذا جانب من واقع حياتها لم تروِهِ لي بعد.. على الباب خربشات غير مفهومة بالطباشير لأطفال عابثين، صورة صغيرة ملونة مُلصقة للسيدة العذراء. من وراء الباب كانت تفوح رائحة باذنجان مقلي، وفي الباحة التي تفصل الشُقق الثلاث التي تتقاسم الدور الثاني من العمارة أثاث مُهملٌ وأشياء لم أستطع تمييزها.. بيدٍ مُترددة طرقت على الباب الذي لا اسم عليه ولا أي إشارة تدلّ إليها!

فُتح الباب ومن ورائه أطلت ريجينّة مُبتسمة ابتسامة لا أعرفها، على وجهها ماكياج ثقيل دعاني فوراً لسؤالها إن كانت تنوي الخروج؟ هزت رأسها نفياً وهي تنظر نحوي بوقاحة لم تمنعها من أن توسع لي فتحة الباب المُتهالك لتسهل عليّ الدخول إلى وكر العاهرة..

« هل أنتِ جائعة؟».. سألتني بعفوية تليق بها فقط.. رائحة الباذنجان المقلي لم تمحو رائحة عفونة مُتأصلة داخل الشُقة التي لا تدخلها الشمس.. في سكن المومس المعروفة في الحيّ كُله فاجأني الكم الكبير من الصور والمُلصقات بأحجام وأشكال وألوان مُختلفة

لبرج إيفل الشهير.. لم أتمالك فضولي فسألتها عن السر الذي يكمن وراء ذلك. لوَت رأسها بعفوية طفل وقالت: «لا أعرف».

إنها لا تملك جواباً حتى وهي تقف مبهورة وسعيدة بكل هذه الصور وتنظر نحوها بدهشة نابعة من أعماقها.. «يوماً ما سأسافر إلى هناك وأصعد إلى قمة البرج بعد أن أتخلّص من حُبّ حي البَتاوين الذي يلتصق بي كلعنة كنَسية».. قالت ذلك وهي تدير لي ظهرها وتقلّب الباذنجان..في أعماقي، شعرت برغبة عميقة في مُعانقتها، في أن أحنو عليها وأقول كلمة تليق بهكذا موقف. حالت دون ذلك بقية العادات التي تربيت عليها فكبحتُ عواطفي بقوة.

أشعر بأني لست حرة وأن عشرات العيون الخفية تراقبني طوال الوقت! ريجينّة تقول إنها لم تغادر الحيّ مُنذُ أربعة وأربعين عاماً إلا للضرورات التي لا يمكن تأجيلها، وهذا يعني بقاموسها الذي بتُ أحفظه: الموت!

موت أمها، استشهاد أخيها في نفس حرب الصحراء النفطية التي فَقدَ أخي سلوان فيها عقله.. قامت بدفنهم هناك في القرية النائية وعادت مُسرعة إلى بيتها الكبير، حيّ البَتاوين.. البوح الذي اعتادت ريجينّة أن تُمارسه معي، سَهَّلَ عليّ منحها حرية الحديث حتى وهي تستخدم ألفاظاً قد تخرج عن حدود الآداب العامة. لقد عطلت عن عمد كل ما يُمكن أن يَحدّ من تدفقها الذي أعشقه، به أستطيع أن أغوص معها في عالمها السحري الفريد.. فكرت أن

أستعين بها لتُقرّبني من عالم الشخص الذي دفعني سرابه للدخول في عالم غريب عني، خصوصاً وهي تُعَد أحد أهم مفاتيح الحيّ السرية، والمُطلعة على أسراره الجّوانية، على الرغم من أني أسكن أيضاً الحيّ نفسه مُنذ ولادتي!

ربما كانت تَملك الوسيلة التي تُسهّل عليّ النفاد إلى قدس أقداس الشخص الذي احتلتني صورته وأقامت فيّ ولا تريد الرحيل! وان كانت لا تستطيع أن تفعل شيئاً فإن مُجرد الحديث معها سيهدئ اللوعة التي تجتاحني.. ربما!

ذات يوم عُدت من الجامعة إلى بيت ماري مُباشرة من دون المرور على القصر، فوجدتها بانتظاري حسب موعد مُسبق بيننا، وقد هيأت كل الأجواء التي تجعل من الساعات التي نلتقي فيها، مميزة وجميلة .«صديقتي المومس!» فكرت في نفسي وابتسمت بمرح. انتبهَت لابتسامتي فسألتني عن السر الذي لم أستطع أن أبوح بهِ لها..

أي لعبة انخرطت فيها.. متى ستتوقف تلك الجنيّة اللاهية في داخلي؟ من أنا..ماذا أفعل هنا.. أي العالمين أقرب إلى روحي، عالم التقاليد العريقة الضاربة في العمق، أم هذه الجلسات الجميلة السرية التي لا أستطيع المجاهرة بها.. ريجينّة تضعُ يدها قُرب فمها ثم تَهمُس بأذني آخر النكات الخليعة وعيناها تتلفتان هنا وهناك كمن يترصّدُ شبحاً ربما مرَ من جِوارنا..

في ذلك اللقاء أحببتُ أن أجاريها في شُرب العَرق وأنا أصارع فكرة الاعتراف.. في البداية فَتحت عيناها على اتساعهما وهي لا

تُخفي سرورها وتسكب لي المزيد من السائل المُسكر.. لكني حرصتُ على أن لا أفقد السيطرة على عقلي ولساني الذي بدأ يتعثّر، فقلت لها بعد أن ساعدتني تلك الكؤوس على امتلاك الجراءة الكافية التي تنقصني في العادة: «ريجينّة.. أنا أحب الأب فريدون!»..

نظرت نحوي بصمت غريب، ولم أستطع تفكيك أسرار تلك النظرة التي آلمتني بعض الشيء كونها لا تخلو من الاستنكار.. شَربت ذؤابة كأسها ولم تعد تنظر نحوي، بل إلى ناحية البئر المهجور الذي نجلس بجِواره، وكأني غير موجودة، اكتسحني شعوراً جارف بالخجل والابتذال، احمرار وجهي عرّاني أمامها.. أن يوصلني الطريق الذي قررت سلوكه إلى هذا الدرك من الرُخص فهذا ما لم أتخيّله!..

رغم ذلك لم أستشعر أي رغبة في التراجع، فلا أثر هناك في أعماقي على الندم.. أي وقاحة!

لا أعرف كم مضى من الوقت ونحن على هذه الحالة الغريبة من التواصل الصامت، إلى أن نهضت من مكانها وتركت كلُ شيء لتذهب إلى شقتها في البناية المُجاورة، تاركة إياي وحدي غارقة في صمت التصق بي وبدأ يتحول شيئاً فشيئاً إلى فضيحة مُجللة بالعار كوني أفصحت عمّا لا يُمكن الإفصاح عنه..

في تلك الليلة اللعينة لم يغمض لي جفن، وددت لو أستطيع شطبها من حياتي ونسيانها.. أن أتنازل إلى الأبد عن رغبتي المجنونة التي قادتني من دون إرادة مني، بلا أيّ اعتزاز بالنفس

وبلا أي أثر للكبرياء التي كنتُ أفخر بها، للجري وراء أوّل شخصٍ مَرَ من أمامي وترك لي كرة النار!

لم يكن رد فعل ريجينّة غير المُتوقَّع هو الذي يَحزُ في نفسي، بل ما أرّقني بالفعل هو القدرة التي استحوذت عليّ وأجبرتني على تغيير مسار حياتي والدخول طوعاً إلى عالم غريب وجدت نفسي أتخبط فيه من دون دراية أو تخطيط..

عندما حَبلت ريجينّة ذات يوم بعيد من أبن صاحب الفندق «خليل»، جلبوا لها قابلة مأذونة لمساعدتها على إجراء عميلة إسقاط الطفل، الذي دفنوه بعد نجاح العملية تحت شجرة ليمون في حديقة الفندق.. مُنذ ذاك اليوم عرفت إلى أين يُمكن أن تتمدد حدودها، وحرصت بعد ذلك على عدم تخطيها. وهي لم تأكل الليمون بعدها أبداً.. أين حدودي أنا؟..

إن أكبر أمنياتها هي تسلق برج إيفل مخمورة يوماً ما.. لكن ما هي أمانيّ أنا؟

توقفت عن الكتابة والغوص بعيداً في تلك الذكريات، كنت في الصالة أجلس أمام لوحة «شمشون ودليلة» للرسام الألماني «ماكس ليبرمان» حيث معاني الحب، والخيانة، والغدر، والغرور.. فها هو البطل الأسطوريّ القوة، شمشون، الذي أنساه حبه لدليلة، الحذر الواجب ومنحها كل أسراره، هي عرفت كيف تتمكن منه بعد ما استدلت على نقطة ضعفه التي أفصح عنها في لحظة ضعف. قصت له شعره ليفقد إلى الأبد قوته الأسطورية..

اللوحة تبدو للوهلة الأولى كما لو أن الرسام أراد أن يُمسك بلحظة انتصار دليلة وأن يُدينها مُتلبّسة بفعل الخيانة، لكن اللوحة أعمق من ذاك السطح الواهي.. هُما عاريان على فراش بملاءات بيض، شمشون مُنهارٌ على ساقيها كأنه يتوسل إليها، أو لا يُريد رؤية خيانة المرأة التي أحبّها، مُعلناً استسلامه النهائي والمؤلم، بل قد يبدو مُتوسلاً ذليلاً، تضع هي يدها اليُسرى على رأسه برفق، ربما بازدراء، بل تدفع الرأس نحو الأسفل، كأنها تقول له، لم تعد أنت كما كنت!..

باليد اليُمنى ترفع شعر رأسه الذي نالته بالخديعة فقصّته وحولته إلى شخص عادي لا يصلح إلا للبقاء في بطون الحكايات. تشرئب بعنقها نحو الأعلى، نحو الأبعد، إلى حيث مُنتهى الخيانة، غير مُبالية بوجعه، ولا بآلامه أو بمآله.. على شفتيها ابتسامة غلّ وفرح. ربما هيَ تصرخ وتقول، تعالوا يا جميع الخونة في العالم فإنَ أحداً منكم لم يبلغ الحدّ الذي بلغته. ولأنها خيانة تاريخية، تعمّد الفنان رسم جسدها العاري بحالة من الترهُّل وتصويرها كامرأة تشيخ فجأة في عز الانتصار!.. هل هو فعل عِقابي من الرسام.. هل أراد أن يقول لنا إن الخيانة تبقى، مهما كانت المُبررات، الدرك الأسفل في سُلَّم الرذائل؟.. هل يُمكن أن تكون دليلة هي الرديف لحواء التي أغوت آدم وأنزلته من الفردوس؟.. كلا فالفرق كبير بين الإغواء والخيانة!

يحضر جَديّ ونقاشاته التي تُثير مواضيع فلسفية.. في الطرف الأقصى من ناحية يسار اللوحة تبرز يد من الظلام.. دليلة تُسلّم شمشون لأعدائه.. هل هذا ما فعلته أنا مع الأب فريدون!.. ألم أجرّده من الهالة المُقدسة التي كان يتحلّى بها قبل أن يَتعرف إليّ.. آه لماذا أريد أن أكتب الآن كل هذا ولمن؟.. ربما لهُ ولي.. معهُ تلبّستني حالة من الاندفاع المجنون، صيّرتني إنسانة قادرة على عبور كل الحدود الممنوعة في مُجتمع مُراءٍ يدّعي التفوّق الأخلاقي وهو ليس كذلك إلّا ظاهرياً.. الحدود التي تفصل بين الأديان والطوائف، والتي تُرسم حدود دوائر الرجل والمرأة، وحدود العقوق، والتمرد، والانفلات، واللامُبالاة.. مع صورته التي بتُ أحملها في أعماقي ككنز ثمين لم أعد قادرة على تمييز كل هذه الحدود الخُرافية بصورة نهائية.. بل رحتُ أبعد.

تمكنت ريجينّة من أن تُحقق لي الاتصال به.. هذا هو ملعبها الذي تُتقن قواعد اللعب فيه وتتمكن من الإمساك بأسراره. لم أسألها أبداً كيف تم كل ذلك، لم أكن أريد أن أكرر الموقف نفسه عندما تمرغت بالذل أمامها. لم أكن أريد أن أنظر في عينيها التي تُفرّخ الأسئلة التي تتراوح ما بين الإدانة والاتهام بالخديعة وأشياء ملعونة أخرى لم أتمكن من تفكيك شفرتها.. كُنت أعرف أيضاً أن علاقتنا انتهت فعلياً في اليوم الذي التقيت فيه بالأب فريدون ولم أكن أشعر بالأسف على ذلك.. إلى الآن لم أعرف كيف تم

كل ذلك.. لم نتبادل أنا وهو الأسئلة التافهة، لم يكن لدينا مُتسع من العبث لنسأل، كنا معاً نرغب بالقفز من فوق وحل الكلمات السخيفة والأسئلة الفارغة..

عندما أخبرتني ريجينّة أن الأب فريدون يُريد التعرف عليّ ارتسمت في تلك الليلة على شفتي ابتسامة لم أرَ مثلها على وجهي من قبل.. وعندما نظرت في المرآة أصبت بالدهشة.. أحسست أنها تشبه ابتسامة دليلة وهي تُسلّم شمشون إلى أعدائه!.. أيقنت وقتها، فيما ابتسامتي تتسع حتى احتلت المرآة كُلها، أن سر قوته أصبح في مُتناول يدي: هالة المُقدَّس!

في الطريق للدخول إلى بيته، تنتشر بعذوبة رائحة البخور العُماني المُخدِّر وتستقر على طرف اللسان، ممزوجة برائحة جدران تتكئ عليها رفوف الكتب العتيقة الزاخرة بالبطولات والتضحيات والآلام ورائحة اللذة المفقودة، التي هي رائحتي أنا..

كان يجب أن أمر أولاً في الممر الطويل الذي عُلّقت على جدرانه لوحات فنية وصور فوتوغرافية لجميع الآباء الذين تولوا رعاية الكنيسة منذ التأسيس حتى الوقت الحالي. تجنبت النظر إليهم وأنا أمّر من تحت نظراتهم القاسية أو المُشتهية!.. الكثير من الأيقونات والصور والصلبان هي عبارة عن هدايا وهِبات من المؤمنين والتائبين وطالبي الغفران الإلهي.. لكني كُنت متواطئة مع الخطيئة التي دَفعتُ بها نحو الأعماق المُظلمة مربوطة بجميع

الأسئلة المُرعبة وألقيتُ عليها أثقالاً وقيّدتها بأقفال منذورة للكتمان مُنذ بدء الخليقة.. شيء يقيني واحد مُبهر.. أنا واعية تماماً لخطيئتي ومُستعدة لدفع الأثمان المُستحقة!

على سريره الكبير الوثير الذي تُغطيه نفس الملاءات البيض التي تُغطي سرير «دليلة وشمشون» الذي شهد الحُب والخديعة كما في اللوحة، تتناهى إلى مسامعنا ضوضاء الشارع المُجاور مُولدة شيئاً أقرب إلى صوت مُشوّش.. عرفت لحظتها باني سوف لن أنساه وأنه ملتصقٌ بي كوسوسة شيطان ماكر..

المشاعر، والترقب، والرهبة، واللهفة، والانتظار.. كُل هذه المعاني انصهرت مع بعضها البعض لتكشف الأبعاد القصيّة لهذا الجسد الذي حَملتهُ طويلاً، وكأني كُنت أحمله أمانة لهُ فقط!..

مع الوقت يتسرب إلى تلك الغُرفة صمت يدفع بالضوضاء إلى أماكن قصية فأصغي إلى أنفاسي وأنفاسه، إلى هسيس احتكاك الملابس وهي تُرفع من فوق الأجساد، الإصغاء إلى كلام العيون التي يطفر منها الفجور أكثر مما تستطيعه الكلمات، إلى لغة أطراف الأصابع، إلى الأفكار وهي تُقهقه بصوت مسموع، إلى مشاعر تتحول لأشياء مادية ملموسة.. أعرف بأني ملكت مشاعره بقدر ما منحته أنا إياها، أنا السطح الأخير الذي استقر عليه هذا الطائر الجميل المُقدَّس، أنا الإغواء، أنا الحُب، أنا اللعنة التي لا فِكاك منها.. بدأت أعرف كيف ينبض هذا الكائن الجميل الذي

بين يدي.. معه شعرت بالتحرر وبخِفّة الروح وبشوق دفين لعبور كل تلك الحدود التي كانت تُخيفني في السابق!

في كل مرة كُنت أغادر فيها فراشه، أتساءل: من أين تنبعث كل هذه المشاعر غير المُستقرة، الباحثة بشغف عن شيء آنيّ مُبهر!.. والتي تبدو كفقاعات الصابون، جميلة، ومُدهشة، وذات ألوان خاطفة عمرها لحظات لا أكثر!.. كِلانا لم يكن يمتلك مهارات جنسية مُميزة، فنبدو كطفلين نتعثر على الفراش معاً.. بسعادة!!

كانت العلاقة واضحة مُنذ البداية ومُتكافئة. أبعدناها عن التعريفات المُملة الرتيبة التي يتداولها الآخرون بابتذال.. كِلانا يعي حجم المُغامرة التي ركبناها ومُقدار خطورتها، تجنبنا الكلام، فهو أداة تواصل قاصرة .. الشوق، والولع، والإدمان على الآخر، وإحساسنا بأننا ننام على سرير المُستحيل... هذا هو ما يجمعنا. لم يُفكر أي منا بالعبور فوق مساحة الآخر، لهذا استمرت العلاقة العاصفة التي غطيناها بالصمت والخطيئة. حالة هي أقرب للمؤامرة منها للحُب، عام ونصف كُنت خلالها أسعد إنسانة في مدينة، صارت تكره السعداء!

أرقبُ بقلق شيء غامض لا وجه له وهو يتصاعد من أعماقي، أو لعله كان يختبئ هناك أصلاً، شيء له مشاعر لم أفهمها، هل يُمكن أن يكون هذا هو الحُب، هل أنا قادرة على التمادي إلى أبعد مما حصلت عليه!.. منحتهُ جسدي من دون تردد أو شعور بالندم، التكتم الشديد الذي حرصنا عليه لديمومة علاقتنا العاصفة حدَّ من نمو هذا

الشعور الضار.. لم يكن يعرفُ بقصتنا أي شخص عداها، عرّابة حُبنا ريجينّة.. أهديتها تذكرة سفر إلى باريس.. كُنت أعرف أنها لن تعود، أكدت لي ذلك وهي تتجنب النظر مُباشرة في عينيّ.. لقد انكسرت نظراتها الوقحة الماجنة التي كُنت أحبها فيها واعتدت عليها، مُنذ بداية علاقتي بِهِ لم تعد تنظرُ في عينيّ، كأنها كانت تُريد التهرب من مواجهة شيء لا تُريد أن تراه فيّ، ربما صارت تراني مثلها ولم يعد لكلماتها معنى.. هل تغيرت أنا إلى هذه الدرجة!

لم يكن هناك فائدة من سؤالها، فهي عنيدة بشكل صارم، العِناد هو سِلاحُها الذي واجهت بِهِ العالم، لا تتنازل بسهولة ولو من أجلي.. دخوله إلى حياتنا غيّر قواعد اللعبة وأدى إلى إنهاء علاقتي بها التي وصفتها دائماً بـ«الغريبة».. حقّقَت لي حُلمي وحققت لها أمنيتها.. وانتهى!

لم يعد شيء يشدُها للبقاء في حيّ البَتاوين، أو يُجبرها على أكل الليمون الذي لم تضعه في فمها مُنذ أن انتزعوا منها جنينُها ودفنوه في حديقة الفندق تحت شجرة الليمون.. لا أستطيع أن أقول إلا أنها كانت راعية سعادتي.. وسعادته! آمل أن تكون تذكرة السفر إلى باريس قد أسعدتها..

لقد منحني الأب فريدون السعادة المُطلقة المُتخلّصة من كل الشحوم والزوائد التي ترافق عادةً هكذا علاقة.. منحني الثبات وصفاء التفكير. في غرفة نومه أصبح كل شيء أكثر وضوحاً. حتى

الضوضاء القادمة من الشارع العام المُجاور لنافذته صار لها مكاناً دافئاً في وجداني. تخلّصت من المَلل الذي هيمنَ طويلاً على حياتي، منذ ما قبل الولادة، كعنكبوت أسطوري لَفّني بلُعابه اللزج حتى اعتقدت أن لا خلاص منه. بدأت أفهم العالم خارج حدود ظلال شجرة العائلة. عندما كان يرفع نظره نحوي ينتابني إحساس لم أجربه من قبل، فأتساءل بمرح، كيف يُمكن لنظرة أن تتحول إلى سعادة!.. كان يُريد أن يمنحني هدية تبقى في الذاكرة إلى الأبد، تختبئ هناك عميقاً في الروح وتبقى آثارها على الجسد. نظراته منحتني شعوراً بالفخر، كأنه الإنسان الأول الذي يراني أنا من دون تاريخي، ولا اسمي، ولا أي شيء آخر.. أنا فقط.. غصن البان!

صالحني مع المدينة التي أعيشُ فيها، والتي أحمل ميراثها، والتي ما كنت أعرفها خارج خطوط الخارطة التي تسير عليها عوائلنا منذ زمن القصور العباسية..

اعترفَ لي بأن قدره هو الذي أخرجه ذاك اليوم التشرينيّ الضبابي ليراني خارجة من القصر.. ترددَ قبل أن يُحييني ولمّا لم أرد على تحيته، نسبَ ذلك إلى غرور فتاة جميلة أو عنجهية أرستقراطية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك وفكّر أن سبب ذلك كونهِ مُغاير دينياً.. في كلماته يتعثر خجل مُحبّب إلى جانب لكنة أهل الشمال التي أستعذب الاستماع إليها لفرادتها!.. أما أنا فلم أستطع الإفصاح له عمّا دار في دواخلي في ذاك اليوم وفي الزمن الذي تلاه، لم أقدر على صوغ كل ذلك الكم المُرتبك والمُدهش من المشاعر

وأن أصفها في كلمات.. لساني لم يكن قادراً على مُمارسة البوح، كيف يُمكن لي أن أصف شيئاً بدا كبوابة سرية تظهر مرة واحدة في العمر، خاطفة، حادة، لتعبر بنا نحو الخلود!

أدركنا منذ البداية أن الحديث يوّلد الأسئلة، وهذه بالتأكيد تتربص بسعادتنا المجروحة التي خطفناها خطفاً.. لذا تجنبنا طرح الأسئلة والمواضيع الفلسفية أو الدينية أو حتى السياسية، فهذه أرض موحلة خشينا الغرق فيها.. أردنا بإبعادنا المُتَعمد للأسئلة أن نُطفئ مصابيح الحقيقة الساطعة المُحيطة بنا من كل الجوانب، والتي تُنبّه إلى استحالة استمرار مثل هذه العلاقة الباهرة في هذا الوقت، وفي هذه المدينة!.. اندفعنا بقوة في لُعبة خِداع النفس، خِداع الزمن، والبشر، والأديان، والأعراف.. باختصار، كلُ شيء.. نحنُ على فِراشه ذو الملاءات البيضاء، رجل وامرأة، خارج الحدود والأبعاد. لم أكن اعرف، في البداية، بان عُرينا كان بلونين مُختلفين!.. عُريه بالنسبة لي، كسحابة تنثرُ فوقي قطرات مطر مُتخمة بالحرية، تُهديني متعة التجوال في عالم اللامعقول.. أما عُربي أنا بالنسبة له، فكان ذا لون قاتم، يُخيفه من هاجس التوغّل في أحشاء الخطيئة، بكل مسراتها وأكلافها الباهظة الثمن.. وكان هذا يقلقني.. لكني كنت أغرقه في ما يبعد القلق.. كنت أقدّم له جسداً متلهّفاً يجعل المشاعر أقوى من العقل..

لم أكن أعرف عنه الكثير ولم يكن يُهمني ذلك، فانا أعي تماماً أنه،

خارج حدود هذا الفِراش، شخصية عامة، يختلف كثيراً عمّا أعرفه عنه.. الاحتلال، وما نتج عنه من تعميم غرائز التعصّب أجبرنا على التكتمْ حتى عن بعضنا البعض. انفلات العنف من عِقاله مسَ الجميع وخصوصاً الأقليات الدينية، التي ينتمي إليها.

يوماً ما بدا لي حزيناً وساهماً. بدا مهزوماً هو الذي كان من أشد المُعارضين لهجرة الطائفة من البلد الذي عاشوا بهِ مُنذ أن كانت الكلمة هي البدء، لكنه لم يعد قادراً على وقف المد المُتنامي للهجرة والذي بدء يضغط عليه بقوة..

كان ما يحصل في المدينة يثقل عليه، وعليّ. صرنا نلتقي أحياناً من دون أن نُفكّر بالجنس، كُنا نَبحثُ عن بديل لاقترابنا الإنساني أكثر من أي شيء آخر، الرغبة في الانزواء بعيداً عن مُستنقع العنف الذي فُتِحَ على مصراعيه، والذي بدأ الجميع في الغرق فيه. عنفٌ ترافقه هستيريا فريدة من نوعها.. هنا اكتشفتُ فيه إنساناً آخر غير ذاك العاشق الجميل، شخص حزين، مَهموم على الدوام، قلق، حكيم، حازم إلى حدود القسوة التي لم أتوقّعها فيه.. ذات يوم أراني صورة لشاب في متوسط عشريناته مع شابة من عمره وهُما يرتديان الأزياء الآثورية التقليدية، يبتسمان للكاميرا بقوة من يَملك العالم كله، أخبرني بأنهما مُهندسان أرادا الهجرة إلى نيوزيلندا بعد أن حصلا على كل الموافقات اللازمة من الجهات الرسمية هناك. لكنه أقنعهما بعدم الهجرة، وهذا ما حصل فعلاً، ليقضيا نحبهما في انفجار كنيسة بمدينة نينوى، وليتحولا إلى أشلاء تشهد على ولادة

أرواح شريرة لا نعرف من أين أتت!.. مُنذ ذاك الحدث وإحساس بالذنب يَقضُّ مضجعه، بل حوَّلَ حياته إلى جحيم كريه. كان يُردد أنه السبب في موتهما المُفجع، وأنهما، لولاه لكانا سُعداء هناك في آخر الدُنيا!.. نظر نحوي وفي عينيه شيء لم أره من قبل، ثم غمغم بسؤال لم أسمعه بوضوح.. «ما رأيك بالاحتلال؟».

مجرّد السؤال أقلقني. هذه الكلمة بات الجميع يتجنّبون تمريرها على ألسنتهم، لأسباب مُختلفة وصارت الحد الفاصل بين عالمَين مُختلفين ينذران بالهلاك القادم.. مع أو ضد!.. هو يعتقد، كوني سليلة أسرة أرستقراطية، سأكون «مع» بعد أن كرّسَ أنصاف المُثقفين هذه النظرة النمطية عنا!.. لم أكن أعرف ما الذي يُريد سماعه مني.. فكرت للحظة أن أصمت وأبعد عنا كأس الأسئلة، ثم قررت أن أقول ما أشعرُ به..

«بعد الاحتلال انتشر نوع غريب من الحشرات ذات صرير مُزعج في حديقة قصرنا، منظرها مُثير للتقزّز، سوداء، لم نكن نعرفها من قبل، صريرها المُزعج في بداية كل ليل يُشعرنيّ بالغربة والخوف!..».

مد يده إلى يدي وأمسكها بقوة لينقل إليّ حيرته الكبرى، وكأنه يُنبّهني إلى التغيير الذي بدأ يزحف نحو سعادتنا ببطء ملحوظ.. إحساس بالذنب تمحور حول الخطيئة والحب اللذين نمارسهما! أصبحنا نُمارس الحب بكل جدية، نغرق في اللذة ونُفصّصها ولم نعد نضحك!

نتعارك بخفة لا تخلو من العنف، نتجنّب تعابير الفرح حتى لا نستفز الخطيئة، أترك لشفتيه اللحميتين التهام جسدي، وأرى على جبينه تقطيبة عابسة يُقلقني مصدرها..

بدأت أؤمن بأن الخطيئة تُراقبنا بعيون مفتوحة، حتى حوّلت السعادة التي كُنا ننعم بها إلى شيء لا وجود له إلا في الأساطير التي غادرت هذه المدينة مع شهرزاد! ولا يمكن أن يكون لها وجود في هذا الزمن المليء بالحقد.

أنا لم أكن أنظر إلى علاقتنا على أنها خطيئة، فمن يُخطئ عليه أن يتوب، هكذا قالت لي أختي رباب بعد أن كَثُرَ الكلام عن علاقتي الغامضة.. «توبي» قالت لي.. لكن عن ماذا؟.. عن أجمل أوقات عمري!

عندما وضعَ كف يده اليُمنى حول رقبتي، لفّ بأصابعه الأربع عُنقي، وراح يحرّك إبهامه على وجنتي برفق كأنه يُريد أن يتأكد من وجودي بين يديه.. وبأني حقيقة ولستُ خيالاً.. عندها سمعتُ أصوات أقفال تتفتح في عالمي الجوّاني لا يزال صداها يتردّد في أذنيّ حتى الآن!

قلت لرباب، إن الخطأة هم الذين يتوجب عليهم التوبة، وأنا لست كذلك! كنت على قناعة تامة أنني لم أخطىء. بل ريجينّة لم تخطىء أيضاً.

علاقتنا باتت تشبه خيطاً رفيعاً يمتد بمهارة ساحرة ما بين الخطيئة

والتوبة لا يراه سواي.. اجتماع اللذة والجمال أنا وحدي من يراه، كذاك الفجر الذي رآه أخي سلوان بعد أن يئس من الحياة..

رغم كل شيء كُنت أعرف بأنها في النهاية ستنتصر عليّ.. الخطيئة، التي بدأت تُثقل عليه وتُحيل حياته إلى جحيم من الأسئلة التي لا تهدأ، وأنا كنت التجسيد القاطع لهذه الأسئلة. لازمه شعور مُدمّر بالتمزق ما بين رسالته السماوية التي نذر نفسه لها وحقوقه الأرضية التي كُنتها أنا..

كل شيء في هذه الحياة لهُ «المرة الأخيرة»، حتى الحياة نفسها، نُخطئ إذا لم نؤمن بذلك، ومعهُ كانت الليلة الأخيرة.. لم أكن أؤمن بذلك، أو لعلّني لم أكن أريد الإيمان، عندما اخترت بنفسي البحث عن تلك الحكاية التي جمعتني بهِ ونسجتُ خيوطها بيدي ككاهنة مَنذورة للعذاب، فأنا لست كاليهودية التي تنتظر المسيح، ولا كالمسيحية التي تنتظر المُخلّص، ولا كالمسلمة التي تنتظر الإمام الغائب.. أنا حملت صليبي بنفسي ولم أنتظر خلاصي.. حكايتي أنا التي اخترتها.. أصبحت أنظر إلى جسدي من دون مشاعر عدائية أو خوف عندما أُمرّر يدي على مواطن الدهشة فيه، أتلمس آثاره في كل مكان منه بدءاً بالذاكرة وصولاً إلى أعماق الروح، كأرض بكر زُرعت لمرة واحدة وعاش زرعها إلى الأبد.

كنّا ندرك صعوبة، أو استحالة أن يستمر هذا العشق في اللحظة التي ينظر فيها إلى نفسه كخطيئة. غرقنا في ظلمة لزجة لا نعرف

كيفية الخلاص منها، بوعينا وبعيون مفتوحة على وسعها تقبّلنا طعم الانكِسار والحنين الطاغي إلى وثنية كانت لا تعتني بالحدود والفوارق.. شيء لم نجرّبه من قبل!

لحيته التي اكتسبت لوناً رمادياً مُنذ أن تَفحّم الشابين اللذان كانا يحلمان بالهجرة إلى نيوزيلندا، كانت بلا تشذيب كأن هزال الشيخوخة قد تسرّب إليه بسرعة مُذهلة، كذاك الهزال الذي غزا جسد دليلة ليلة الانتصار على شمشون، كغزو الحشرات السوداء ذات الصرير المُزعج لحديقتنا بعد الاحتلال.. وأنا لا أملك أي فرصة لإيقاف أي شيء!

Telegram: Somrlibrary

العَتمة

(كارافاجيو)

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

العَتمة تتربّص بنا، هناك في أعماق النَفس، تنتظر، تتحيّن الفُرص، لتحويلنا إلى هباء أسود.. كل هذا السواد الذي يطغى على حياتنا يساعدها!

اليوم اقتحمت مملوكة غرفة نومي وعلى وجهها ارتسمَ التحدي بكل وضوح وحفر خطوطه القاسية على معالم وجهها، شيء لم آلفه فيها من قبل، تحدٍّ يعبرُ حدود الوقاحة ويُنذر بالمواجهة التي لم أكن مُستعدة لها بالمرة وأردت تأجيلها! وددت لو أنني في وضعٍ أفضل!! لكن كيف؟ ومتى؟

تخيلت الهزيمة لكن ليس الآن، ولا هنا، بل تمنّيتها وأنا واقفة.. يا إلهي كلما حاولت مُقارنة هذه المخلوقة بتلك التي عرفتها قبلَ زيارة أختها و«سعادة السفير وزوجته»، أضيعُ في صحراء شاسعة من الذهول. لا شيء يُذكّر بتلك المملوكة التي عرفتها. الفارق كبير، عجيب، له أنفاس من فزع، كأنها انشطرت بفعل قوى سوداء شريرة إلى نصفين لا يمتّان لبعضهما البعض بأيّ صلة!

رغم مِزاجها السيئ، المُلازم لها في أكثر الأوقات، هي في

العادة إنسانة مُطيعة ولا تتسبّب بمشكلات، قليلة الكلام لا تتدخل في ما لا يعنيها وإن فعلت فكُلنا نَمتنّ لها كونها تفعل ذلك بدافع الحب وغالباً ما تصيب، لم تكن تُثرثر سوى مع أمي التي تحوّلت العلاقة بينهما مع رفقة السنين المُتراكمة إلى ما يشبه الصداقة!

أعرف أن أمي كانت تأتمنها على الكثير من الأسرار التي لم تبُحْ بها لنا نحن أبناؤها، وهذا ما ميّزها عن بقية الخدم الذين عملوا عندنا.. سريعة الحركة، دؤوبة ومُتفانية في خدمتنا، لا تحتاج لمن يقول لها ماذا عليها أن تفعل، تعرف كل صغيرة وكبيرة في القصر، تقرأ رغباتنا كمن يقرأ الغيب! مُطلعة على كل أسرار القصر لكنها في الوقت نفسه كتومة إلى حد أننا كنا نأتمنها على أسرارنا الصغيرة ولم تخذلنا يوماً. ترى وتسمع لكنها لا تنطق بتاتاً، بل تبدو كالبلهاء التي لا تعرف شيئاً عن الحياة عموماً خارج عملها الذي تتقنه على أحسن وجه!

تتحرك مملوكة في الوقت المُناسب وبتوقيت مُدهش. عندما نكون بحاجة إليها تصبح ملء السمع والبصر، وغير ذلك هي غير موجودة! تلتقط ذبذبات احتياجاتنا وتفاجئنا! بينما من الصعب جدّاً أن نعرف احتياجاتها أو رغباتها، حتى تكَرّس لدي اعتقاد بأنها بلا احتياجات، بلا رغبات، بلا طموح.. إنسانة آلية مخلوقة فقط لخدمة الآخرين.. الذين هُم نحن!

تغيّرَ كُل ذلك بطريقة درامية، حتى إنها لم تمنحني فرصة للتفكير أو التحليل أو حتى الاستيعاب.. فجأة فُرض عليّ التعامل

مع شخص آخر، إنسان مُختلف كأني لم أعرفه يوماً، كأني أتعامل معها لأول مرة في حياتي!

حدث كُل ذلك بعد زيارة ابن أختها «المُناضل» ووالدته، التي هي أختها، وزوجته! عندما دخلوا عليّ كأنهم يقتحمون حصوني! فما الذي كانت تتوقّعه مني؟ أن أوافق على طلبهم مثلاً؟ ألّا أطردهم بالرصانة التي فعلت بها ذلك، أن أشكرها وأرضى بعرض الزواج من هذا «الشيء» الذي جاءتني بهِ، أن أختار بإرادتي إلغاء تاريخ سبعة أجيال كما اختارت جُلنار عندما قبلت الارتباط بواحد من العوام. هل صدّق هؤلاء ما كُتب على لوح الجنون الذي عُلّق على رقبة المدينة بعد وصول الجيوش الغريبة؟ هل اعتقدوا أن الاحتلال يُمكن أن يُلغي كل الفوارق والحدود ويُكرّس تقاليد هجينة جديدة يتبوأون فيها مكانة كانت لنا ذات يوم؟

في اليوم التالي لزيارة العار لم تأتِ، وفي تصرّفها هذا أيضاً رسالة. لبلاهتي لم أقرأها جيداً، حيث رغبت في أعماقي أن أنسب غيابها إلى الخجل من سلوكها اللزج المُقرف، وأن أعيدَ ترتيب الأشياء والمشاعر كما كانت، لكنها على ما يبدو كانت تُحضّر لشيء تمّ تحضيره، خُطة تلعبُ فيها دورها كسيّدة لهذا البيت بعد أن رأت ضعفنا! وبعد التحوّلات التي حصلت في المدينة.. لكنها مع ذلك حافظت على مسافة من الخشية بيني وبينها!

الأيام السبعة الممنوحة لي، هي كل ما أملكه الآن في هذا القصر الكبير ولا شيء يوقفها، لا أحد قادر على منعهم، لقد خَمّنت أختايَ

هذا في آخر لقاء جمعنا يوم الخميس الماضي، الدموع التي رأيتها في عيون رباب وبلقيس كان فيها طعم الوداع المرّ والنهائي. عندما تعانقنا كان الانكسار شاخصاً بقوة بيننا، لماذا أرى الأشياء الآن بوضوح أكثر، ماذا حَدث لتتكاثف صورة الهزيمة بهذا الوضوح؟

تآكلت جبهتي، الضعيفة أصلاً، وبات لا يقف فيها معي سوى أخ سُلبَ عقلهُ على طريق الموت، وكلب وفيّ بلا أنثى..! هل هناك أفضل من هذه الفرصة للقيام بهجوم كاسح يجرف تاريخ المدينة ويقضم اللقمة التي ظلت عصيّة على البرابرة الذين سبقوهم!

الآن أرى مملوكة في كل مكان، ثقيلة الحركة، وفي عينيها نظرة ضارية كالسوط. صرت أتمنى أن تختفي من أمامي، لكنها موجودة، تتعمد إثارة الضوضاء لتبعث لي من خلالها رسائل غامضة لا أفهمها، أو تنتظر مني كسر هذا الجمود والتحدّث معها بكل صراحة. أو ربما تطلب أن أسمعها تخيّرني بين القبول بعرض الزواج المُزري من ابن أختها أو الرحيل. لكن ماذا عن سلوان وجيفارا!

رباب وبلقيس تُريدان الرحيل من هذا البلد، وسلوان عبء ثقيل يُعطّل كل خططهما. اقتراح سفره، أو إقامته مَعهما سيُثير زوبعة مع أزواجهنّ لا تُحمد عقباها. رسالتهما كانت أيضاً واضحة! كل شيء يبدو وكأنه معدّ مُسبقاً.. أنا البلهاء الوحيدة الباقية في هذا القصر..

الضوضاء التي تتعمد مّملوكة إثارتها تكاد تُدمّر أعصابي، فأنا أسمع صوت صُراخها على جيفارا، أو ربما على سلوان، هو في

الحقيقة موجّه إلي، فهي لم تكن ضوضاء عادية بل عبارة عن ذبذبات طاقة شريرة تزرع فيّ الخوف البطيء الواثق من الانتشار. أشعرُ بأن نظراتها تُلاحقني في كل مكان. ما يُريحني قليلاً أنها لا تُحسن القراءة، وهنا تتوقف مُطاردتها لي وتظل أوراقي التي أدوّن فيها ما يحدث بمنأى عن شرورها وتوفّر لي مساحة من الحرية.. في قصري!

جميعُنا يُدرك حُبها المُميَّز لسلوان، وهو يحبها، حتى إنه يُساعدها في أعمالها. ربما هي ترى فيه الذكر الوحيد في العائلة، أو ترى فيه الصبي الذي لم تُنجبه وتمنّت ذلك! هي تقضي معهُ الآن الكثير من الوقت، تجلس أمامه وتنظر في عيونه الساهمة التي تشبه أنفاقاً سوداء موصولة بالجحيم الذي رآه.. عاشه.. هناك في تلك المناطق الموحشة.. تتحدّث إليه فيما هو يبقى صامتاً. لم أرَها تفعل ذلك من قبل. لعلها كانت تقصّ عليه بعضاً من تلك القصص والأساطير التي كانت ترويها لهُ عندما كان صغيراً. كان سلوان لا يركن للنوم إلا بعد أن تجلس إلى جانبه مملوكة وتقصّ عليه حكايات كانت تبدو كأنها تخترعها له. ربما كانت تبكي أمامه هذا الصباح لعلمها بأنها ستفقده إلى الأبد، وهي المرأة المحرومة من الأمومة. هل كانت تنعيه وهي تُخبره بخطط ابن أخيها «المُناضل» الذي يُريد الاستيلاء على القصر أسوة بكل «المُناضلين» الذين يقضمون المدينة كالجرذان؟ لكن سلوان لم يَمت بعد!

هل تُخطط لموته، لقتله، لقتلنا، في حال فكّرت بمُقاومة الطاعون الأسود الذي اجتاح المدينة؟ ألم يبعثوا لي بطلق ناري في مظروف! تلك الرصاصة، هل بعثَها ابن أختها لكي يُخيفني ويُجبرني على الزواج منه ومُرافقته إلى أثينا حتى أضفي على وضاعته جاهاً مُستعاراً!

كبرقٍ خاطف قادم من المجهول، كالأفكار السوداء التي لا نعرف من أين تأتي أو متى، تذكّرت حادثة بعيدة تعود إلى آخر مراحل مرض أبي المُميت بالسرطان. حادثة كنت نسيتها أو تناسيتها. يوم جلب رؤوف زوج رباب من صيدليتهِ سُمّ السيانيد، بعد إلحاح من أبي الذي كان يُريد التخلص من حياته ومن آلامه التي أصبحت لا تُطاق. يومها عَرفنا أن أبي كان يُفكر بالانتحار، لكننا كالعادة التزمنا الصمت، فمُنذ رحيل جُلنار ونحن لا نعرف سواه، تمسّكنا بهِ كإله جبّار، لم نُبادل بعضنا البعض كلمة واحدة في هذا الشأن، فنحن أسياد الصمت وعبيده، نتقنُ لعبته ونضبط إيقاعنا على إيقاعه السرمدي، لم تُرَ حينها سوى ظلال الدموع المُنسابة على استحياء، والتي نُعجّل بمسحها خوفاً من أن يرانا أحد. جلست رباب في الصالة بوجه أحمر، في وجهها كانت تتصارع الكلمات مع الدموع، لتحكي لنا عن المُستقبل الذي يتوجّب علينا مواجهته. ليس من عاداتنا طرح الأسئلة المُستعجلة، ما فائدتها! لقد اتخذ القرار وعلينا جميعاً أن نُساعده في ذلك من خلال سكوتنا المُتواطئ لكي يتخلّص من الآلام..

عندما توفي لم يُطرح السؤال الذي دار في عقول الجميع على أمي، كاتمة أسرار العائلة، فالنساء تقليداً هُنّ كاتمات الأسرار.. هل مات أبي موتاً طبيعياً أم إنه تناول السُمّ الذي جلبه رؤوف؟ ربما خوفاً أو جُبناً، فالصمت يُسدل ستاراً من الغموض المُريح وهو بالتالي المُنقذ من البلبلة التي أصابتنا جميعاً.. راوغنا السؤال ببراعة وإتقان، لم نرد إثارة الموضوع خوفاً على طمأنينتنا الزائفة، فالجواب بنعم أو بلا، يُمكن أن يوقظ كل الوحوش المُتربّصة في الزوايا المُظلمة من تاريخ عائلتنا. الركون إلى الجهل أو التجاهل يكون مُريحاً، وموته المفاجئ كان «رحمة» لأنه تخلّص من كل الآلام الفظيعة، وخلصنا نحن الباقين من عبثية السؤال عن مصير القنينة الزرقاء الصغيرة التي جلبها رؤوف من الصيدلية التي يملكها.. لكن السؤال عاد وتفجّر في عقلي الآن، بعد كل هذه السنين، أين القنينة الزرقاء، التي تحمل في أعماقها المُظلمة، المَحمية من الضوء باللون الأزرق الداكن، إكسير القدرة على إطفاء شُعلة الحياة وخطفها إلى الأبد!

لم أفكر بهذا الموضوع أبداً من قبل، ولم يخطر على بالي في أسوأ الكوابيس أن أُلقي بهذا السؤال على أمي التي كانت بالتأكيد ستقول لي إنها لا تعرف شيئاً عن هذا الموضوع وتزمّ شفتيها بطريقة صارمة أعرفها، وتكون أبلغ ردّ على سؤال لا يجب طرحه..

من المؤكد أن مملوكة تعرف شيئاً عن مصير هذه الزُجاجة

الداكنة التي تحمل في جوفها الموت البارد.. هل صار من الواجب طرح هذا السؤال؟

كنت أفكر بهذا الموضوع المؤلم، وعيناي تدوران على اللوحات السبع. توقفت عند لوحة أعرفها جيداً.. لوحة الفنان الذي عشقتُ كل خط ولون على لوحاته التي تجاوزت السبعين.. كارافاجيو، ذلك الساحر الإيطالي الموارب، الذي سكن المناطق المُلتبسة بين الحقائق والأساطير. هو الذي امتطى عاصفة هوجاء ليقتحم بها فن الرسم خلال حياته القصيرة العنيفة، واعتُبرَ الأب الروحي للفن الحديث. كارافاجيو، ملك الضوء والعتمة. القاتل العبثي، النرجسي العاشق لنفسه. المُستمتع بجنون العظمة التي خلّدها في أكثر من لوحة. المُجرم المَطلوب لعدالة القرون الوسطى، الذي قضى حياته بالتنقل بين المُدن والدول هارباً، إلى أن وجدَ في الموت الحل النهائي عندما قرر العودة إلى روما والتمتّع بموته هناك. لقد قرر أن يدخل إلى بطن الحكاية ليصبح هو الحكاية.. العتمة والضوء!

لوحة «ذبح يوحنا المعمدان» الذي أصابَ حُبه عقل ساحرة الجمال الراقصة سالومي برغبة الانتقام الصارخ.. هي سليلة الحسب والنسب، التي كان يركعُ تحت أقدامها عليّة القوم، يقوم يوحنا، المُتصوّف الباحث عن الحقيقة، بتجاهل حُبها ورغباتها. تتوسّل إليه فيكرّر الرفض الذي دفعها في النهاية إلى حزّ رأسه ووضعه على صحن من الذهب والرقص به أمام الناس!

لوحة نادرة استطاع كارافاجيو من خلالها أن يُجمّد لحظة

الرعب ويوثّق أبديتها مُتفوّقاً على مئات الرسامين الذين تناولوا هذا الموضوع المُثير على مر العصور.

أذكر ذات يوم أن أمي سألت جَدّي، عن سبب اختياره لهذه اللوحة التي لا تُطيقها بسبب كمية العنف التي تنضح منها، مُعلنة رغبتها الدفينة برفع هذه اللوحة من على جدران الصالة الكبرى..

نظر إليها جَدّي ونثر ابتسامة ساخرة على شفتيه اللتين يُغطيهما شارب كثّ مُعتنى به، وكانت نظرته كافية لأن تفهم والدتي أنه يقول لها: «بعد موتي افعلي ما تشائين»... ثمّ تراجع احتراماً لتلك المرأة التي كانت تتفانى في خدمة العائلة، وبدّل نظرته إلى نوع من التسامح متجاوزاً تلك الملاحظة العدائية، وخاطبها، كعادته، بأدب جمّ موضحاً أن للّوحة قيمة فنية أهم بكثير من صورة الدم فيها.

لو كنت أنا اليوم سأوضح لكِ يا أمي العزيزة تلك القيمة الفنية لقلت لكِ: «إن جمالية اللوحة المُبهرة لا تُركز فقط على العنف كما يبدو ذلك للوهلة الأولى، لأنه يصوّر عملية نَحر يوحنا المعمدان، بل كُلّ الجمال يَكمنُ في رصد الفزع المُتشظّي على الوجوه، بما فيه وجه سالومي الجميل المُصاحب لتلك العملية البشعة: الخوف، وظل الخطيئة المُهيمن على الجميع يجرفهم إلى حيث اللاعودة، إلى اهتزاز الرواية التوراتية التي اتهمت سالومي وحدها بالقتل..

كارافاجيو يركّز على إصرار الأب الذي بدا وجهه المُتحفّز لإنجاز المهمة كَقَدر لا يُمكن لأحد أن يوقفه، إصرار يبدو

أكبر بكثير من اهتمام ابنته بإتمام عملية النَحر، في حين اكتفت سالومي بحمل الطبق الذهبي الذي سترقص بهِ بعد أن يتوسّطه رأس القديس، والرقصة التي ستؤديها سيبقى صدى إيقاع طبلتها ينتقل على موج ذاكرة الأجيال المشدودة الأنفاس لتصبح الرقصة الأشهر في حكايات التاريخ. هنا تبدو الراقصة من دون أي ملمح يوحي بسعادتها، بل تكاد تبدو كفتاة مُطيعة ليس أكثر، تتهيأ لأداء دور مرسوم، قَدَر يشبه نوراً ساقطاً من السماء على مسرح الجريمة وسط العتمة المُحيطة بالجميع الذي جَسّده ببراعة فائقة كارافاجيو. انظري يا والدتي الطيبة، لا شهود هناك سوى اثنين ينظران من خلف حديد الشباك الكبير المُطلّ على المكان، تتنازعهما الدهشة والفضول والرهبة، كأنهما يتعهّدان بنقل الرواية للأجيال القادمة، كي لا ينسى أحد يوحنا المعمدان وسالومي!».

للحظة لم أعد أرى وجه الذبيح على اللوحة، بل وجه أخي سلوان! تَماهى الوجهان لدرجة الانصهار، الجسدان، القدران.. قوة ناعمة سوداء أغرتني بأن أغمض عينيَّ وأنا أرتجفُ من وقع اقتراب الفكرة، عرفت فوراً أن هذه القوى ستمضي بي بلا رحمة في طريق مرسوم منذ الأبد، وأنا لا أملك سوى الانصياع كإنسان مأخوذ بفكرة القتل!

ارتجفت وقفزت من مكاني لا أعرف إلى أين أريدُ المضيّ.. دخان أسود خانق يتصاعد من أعماقي يعميني، يُغويني بالقتل.. وبأن في هذا خلاص.. أجل بموت سلوان تصل رحلة العائلة إلى

نهايتها المحتومة.. جسدي كمن مسَّهُ تيار كهربائي عنيف، أدرتُ وجهي بسرعة بعيداً عن اللوحة المُحرّضة في الصالة، ثم أذعنت بتواطؤ مع رغبة مجهولة كي أمعن النظر ثانية باللوحة.. أردت التأكد من تماهي الوجهين، سلوان ويوحنا.. أجل إنهما مُتشابهان، بل هُما الشخص نفسه. كنت مشدودة إلى فكرة أن كل الحلول تكمن في موت سلوان.. يجب أن يموت! بل يجب أن أحرره من الكابوس الدائم الذي يفترس روحه ببطء وبلا رحمة، قررت أن يدي يجب ألا ترتجف وأنا أخرجهُ إلى الأبد من تلك المنطقة الرمادية التي تُسمى أرض الجنون الواقعة ما بين الحياة والموت! سأكمل المُهمة التي لم يُنجزها القدر..

اقتربت أكثر من اللوحة لأتفحص أهو وجه الذبيح أو وجه سلوان. لم أعد قادرة على التفريق بينهما، وشاهدت توقيع كارافاجيو! إنها اللوحة الوحيدة من بين كل أعماله التي مهرها بتوقيعه، تُرى لماذا اختار هذه اللوحة بالذات ليخرج عن مألوفه! ثم لماذا اختار أن يضع اسمه داخل بقعة الدماء الحمراء القانية التي كانت تسيل من عنق الضحية! أسئلة ستظل تُراوح بين النظريات التي لا تملك أيّ منها الأرضية الصلبة لإخراج كارافاجيو القاطن في جوف العَتمة، أو نزع غموضه الشديد وألهمتني بقتل سلوان الذي سيمنحنا موته الخلاص النهائي من عبء لم نعد قادرين على حمله!

لم أنتبه لكيفية دخولها عليّ. هل طرقت على الباب أم إنها اقتحمته بهمجية مُتأصّلة لم ينفع تهذيب السنين في اقتلاعها. في

النهاية كانت مملوكة واقفة هنا في قلب الصالة فبدت لي وكأنها رسول الموت. لقد بدا عليها نَفاد الصبر والتأهب لقول شيء وقع شعرتُ برذاذه قبل أن تنطق بهِ، لكنها توقفت ما إن رأت في عينيَّ تلك النظرة النارية التي تعرفها.. وبصيغة آمرة لا تملكُ إزاءها سوى الامتثال، مُذكرة إياها بأني لا أزال الآمر الناهي في القصر ولو إلى حين، سألتها عن القنينة الداكنة.. لوهلة أبدت ترددا وبان عليها انكسار مُربك. لكنها مع ذلك لم تُخفض بصرها، بل نظرت إليّ نظرةً مفعمةً بالتحدّي، ثم استدارت لتخرج من دون أن تنطق بحرف واحد!..

لم تكن بحاجة إلى أن تسألني أي سؤال عن سبب طلبي لتلك القنينة! فهي تعرفني بما فيه الكفاية وتعرف كيف أفكر.. إنها الشخص الوحيد الذي أظنّ أنه عرفَ سرّ علاقتي بالأب فريدون.. صحيح أننا لم نتحدّث بهذا الشأن، ففي أعرافنا من غير المعقول إجراء أي حديث خصوصي مع الخدم، لكني من إشارات كثيرة كنتُ متأكدة من أنها تعرف!

حاولت طوال اليوم أن أبقى في الصالة بعيداً عن سلوان وجيفارا.. لم أكن أريد رؤيتهما، ربما لأني خفت من الضعَف أو التردّد.. جدران الصالة مُغلّفة بذكريات تتنفّس، كانت بالنسبة إلي الحصن الأخير الذي أستطيع أن أحتمي به من ضعفي الذي يُصارعني ليهزمني.. خارج باب الصالة كل شيء يعمل ضدي، المدينة، والبشر القاطنون بها، والمُحتلون.. وحتى الطقس، والغبار

الذي أغرقنا منذ أيام حفر الباطن، والمشاعر التي تحمل قدراً كبيراً من الطاقة السلبية والتي تنشط ضد كل شيء، والكراهية، والزيف، والكذب، واللغة الرديئة، والملابس المُتسخة، والضوضاء الهمجية، وسياط الشمس الفاجرة، والقُبح، والروائح الكريهة، والقتل المجّاني، وأفواه مسعورة تقوم بالتحريض المذهبي محوّلة الدين إلى أداة لتعميق ذلك الصراع المسعور المدمّر.. أين يُمكنني الفرار من كل هذا الجحيم الذي يُذكّر بلوحة أخرى مُعلقة على جدران الصالة. إنها لوحة الرسام الهولندي المَهووس «هيرانيموس بوش».. هل هو الموت!

«من التراب إلى التراب»، موعظة إنجيلية تختصر كل الحياة، كان الأب فريدون يُكثر من الاستشهاد بها. غريب كيف أني لا أجرؤ على كتابة اسمهِ من دون أن يسبقه لقب «الأب» أو «القسّ»! عندما يكون في الفراش يصبح «هو»، لكن خارجه كان يتحوّل مُباشرة إلى «الأب فريدون!»..

التُراب يُغرق هذه المدينة ومَنْ عليها. يُريد استعادتها من البشر. وأنا اعتقدت في طفولتي بأنها مدينة خالدة! كم يبدو هذا التخيل ساذجاً الآن! لم أكن أعرف أن التُراب هو السلاح السرّي للطبيعة الذي يتربّص بنا مُنذ الأزل! فها هو التُراب يُهال علينا كما على الميت الذي يوضع في القبر.. لكن إلى أين سيذهب مجد المدينة المُكلّل بالملاحم والأساطير، بالرجال والنساء الذين عاشوا وقضوا فيها، كُتابها، وشُعراؤها، وفلاسفتها، ومتصوفتها، وحكماؤها وبانو

مجدها، وجواريها وغُلمانها، وملوكها وصعاليكها، ونبلاؤها ودهماؤها.. هل يُمكن أن يتحول كلُ ذلك إلى أسطورة باهتة مثل بابل، وطيبة، سمرقند؟ هل يُمكن أن تُرصف بغداد مع هذه المُدن التي سادت ثم بادت!

لماذا أنا التي أكره كلُ شيء فيها، وأحب كل شيء فيها! الحُب والكراهية طرفا دائرة مُهلكة لا أجد منها مخرجاً..

اليوم وصل التُراب إلى أعلى مُعدلاته خلال الأيام التي تلت الرسالة-التهديد.في العادة أكرهه جداً، أتشاءم منه. يُسبّب لي صُداعاً من نوع فريد ممزوج بكآبة، ويُقرّبني من فكرة الانتحار، ضيق في التنفس ومزاج سيئ.. لكني ويا للغرابة، تآلفت معه اليوم، بل لعلّي لا أبالغ عندما أكتب بأني كُنت بحاجة إليه، فها أنا جالسة وحيدة أرقبُ ذراته الناعمة وهي تسبح في فضاء الصالة، وتمنحني القدرة على الانسجام مع أفكاري الجديدة وإحاطتها بنيات شريرة بدأت تتبلور بشكل جليّ، تسدل غشاءً مُموّهاً مُربكاً على فكرة القتل وتكسر حِدّتها الأخلاقية.. إنه التراب! منه نأتي، وإليه نعود!!

من مكاني هذا الذي أتنفس فيه التُراب وأحاوره، ومن خلال الشبّاك الكبير المُطلّ على الشُرفة، لمحت سلوان وهو يندفع كالمُنوَّم نحو عمق الحديقة الشاسعة الغارقة في التُراب الكلي، ومن خلفه يتبعه جيفارا الذي بدا لي مُختلفاً، لم يعد مُجرد كلب، بل كهل محدودب غارق في التفكير العميق، خطواته وئيدة ومهمومة حتى بدا سيره نحو الموت أكثر ثباتاً من سلوان!

لوهلة خاطفة راودني الشك بأن هناك من يُنادي عليهما من وسط التراب النازل من السماء، وهما يسيران كالمأخوذين بقوة النداء، فبدَونا كُلنا من الأعلى كخطوط مُعقدة على لوح رمل العراف!

مدار الرؤيا لا يتعدّى المتر الواحد. بعدها يتكاثف المشهد ويتحوّل إلى فراغ خرائبيّ الشكل لهُ شهيّة ابتلاع كل المخلوقات.. «إلى أين يذهبان؟».

أردت النهوض من مكاني ومناداتهم. شيء ما أمسك بثوبي الأزرق الفاتح الذي جلبته لي بلقيس من مدريد في آخر أعياد ميلادي المُحتفى بها.. وضعتُ يدي على فمي لكي أمنع صرخة من الإفلات. كُل المسرات مضى عليها أزل يُذكّر بالفناء فتبدو الآن بعيدة جداً بل وغير حقيقية، بالرغم من كونها في مُتناول الذاكرة!

من الذي يُمسكني عن نداء سلوان الذي ابتلعه الفراغ الخرائبيّ.. هل هو التُراب أم لعلي دخلت مرحلة الهلوسة وبدأت أصغي لصوت يَنده في أعماقي: «إنهُ ذاهب إلى موته الذي تأخر كثيراً.. أتركيه!».

على الكرسي ذي الجلد الأخضر الثمين الذي جلبه جَدّي من اسطنبول، عدّلت جلستي وأنا أحاول أن أفتح عينيَّ على اتساعها لكي أُخترق بنظري جوف التراب، لأرى الفراغ الخرائبيّ المُرعب، في أحشائه المُظلمة، وهو يبتلعهما..

بكيت بحرارة وبحنين إلى الارتماء في جوف الذنب القادم لا

مَحالة. كُنت بحاجة إلى نوبة البكاء هذه، لم أفعل ذلك من قبل، لم أبكِ لموت أبي أو أمي أو لاحتلال المدينة، فقط أصابني غضب شديد غير مفهوم. لموتهما وللاحتلال وجه واحد.. الخيانة.. وهذه لا أطيقها.. دموعي سالت بغزارة عندما تركني جَدي وقرر الالتحاق بمملكة الموت كما في لوحة آرنولد بوكلين. فلقد كُنت شديدة التعلّق بهِ، بظلّهِ، بالكلمات المرصوفة التي كان ينطقها بتأنٍّ أنيق، بحركاته الارستقراطية الخلابة التي لا يُجيدها أحدٌ مثله، بتعابير وجهه النادرة التي تُرسم الانطباع المُلائم بعناية فائقة بحسب الحالة التي هو بصددها، بحُبه للفنون وذوقه الرفيع..

لقد بدأ التراب يتسلّل إلى داخل القصر كالموت الذي لا مردَّ لهُ، كلعنة تُذكّر بالعدم. يتكوّم طبقات رغم الأبواب والشبابيك المُغلقة بإحكام. يتراكم بتحدٍّ مُذهل أمام أعيننا ليؤكد لنا عجزنا النهائي عن إيقافه، أو الحد من قُدراته. كأنما يريد أن يؤكد لنا بإلحاح قصة الفناء الحتمي "من التُراب إلى التُراب".

لقد وقعت في حب الأب فريدون في لحظة خاطفة، لأنه كان يحمل شبهاً من جدّي، في البداية لم أكن أدرك بأني كُنت أبحث عن بقايا جَدّي إلا بعد أن شاهدت ابتسامة الأب فريدون وأدركت مدى مُطابقتها مع ابتسامة الباشا. ابتسامة فريدة تشبه إشراقة شمس ضاحكة في يومٍ شتويّ بارد.. حتى جسده، عندما أشمُ جسده، كُنت أبحث عن رائحة غابرة!

أكره البكاء، أكره الرخص فيه والاستكانة التي ترافقه، كرهي

للضعف، والعجز، المذلّة.. رغم ذلك بكيت اليوم على مصير سلوان الذي يبدو أنهُ قد تقرر مُنذ أن وصلتنا الطلقة البربرية في ذاكَ الظرف البائس المُلقى في جارور المكتب.. إعلان العجز التام الشبيه بالشلل.. هل هذا هو كل ما يدور في أعماقي المُرتبكة، أم هو ذاك الخيط الحزين القاتم المُلتف على المدينة المُحتلة والتي يستعد التُراب للإطباق النهائي عليها!!

كم مضى من الوقت وأنا أحدق برعب واستسلام في أحشاء التُراب الذي يزداد ضراوة وكثافة.. لا أعلم! لم أشعر بالظلام الذي احتل كل مساحات الرؤيا، فلون التُراب قد حوّل الأشياء إلى خراب موحَّد من الصعب التمييز بين المصائب فيه. التراب لهُ القدرة على اجتثاث الألوان وتمجيد الكآبة الخاكية. الخاكي، ذلك اللون الذي تمّ تعميمه منذ الانقلاب الأول، واستمرّت عليه كل الانقلابات المتلاحقة.. حتى الاحتلال الذى جاء بدعوى تحريرنا، جاء بلون خاكي.. وعندما تمّ حلّ اللون الخاكي، حلّ محله لونٌ ألعن: حلّ السواد!

أين ذهبت تلك الألوان البديعة، الجميلة، الأنيقة التي ما زالت عالقة بذهني منذ ذلك الاحتفال في حديقة القصر؟

شعرتُ بفحيح أنفاسها من خلفي، تماماً كتلك الأفعى التي التفت على شجرة المعرفة مُغرية الإنسان الأول بارتكاب الخطيئة.. مملوكة كانت ورائي ولم أكن بحاجة للالتفات أو النظر في وجهها لأتأكد.. إنها هنا بحضورها المليء بكراهية تُلامس

حدود الشماتة التي أخشاها.. لأول مرة أشعرُ بالخوف من بقائي معها في مكان واحد، عجيب كيف تغيّرت المشاعر!

لم أحتج إلى أكثر من نصف استدارة كي أرى يدها المعروقة ذات الوشم الباهت الذي يُشير إلى أصولها، وهي تضع على الطاولة الصغيرة التي أمامي، تلك الزُجاجة الزرقاء الداكنة التي تضمّ في أحشائها الموت الزؤام الذي يأتي من الأماكن المُعتمة، تلك التي كان كارافاجيو يُبدع في تصويرها في كل لوحاته، وتترك رائحة عابرة للأزمان، لا تتبدد، تُغري بالانسياق ورائها، والاندماج معها، والاختفاء في سديمها! الأضواء القادمة من أماكن غير مَعروفة، غالباً ما تكون سماوية بعيدة عن مُتناول الضعفاء.. أما العَتمة فتبدو أكثر عدوانية واستعداداً للانقضاض والخروج من لوحاته لتغليف كل شيء.. العتمة الأبشع هي العَتمة القابعة في الأعماق.. أعماقنا نحن!

الزُجاجة كانت فارغة، هكذا خَمّنت.. أو رَجوت!.. لكن عندما رفعتها قليلاً بأطراف أصابع يدي التي لم أنجح في السيطرة على ارتجافها، عرفت أنها مملوءة، بل مُترعة بالموت!

هي لم تكن بحاجة لأن تكلّمني، فما زلنا قادرتين على التواصل بأقل قدر مُمكن من الكلمات رغم رمادية المنطقة التي بدأت بالاتساع في ما بيننا.. فعندما سألتها هذا الصباح عن مصير القنينة، عرفت على الفور عن أيّ قنينة أسأل، وما الذي أفكر فيه..

بعد قليل سيحين موعد العشاء، ومحتوى الزُجاجة سيكون

حاضراً في طبق ما أو في جميع الأطباق.. سيان! لن أسال وهي لا تنتظر مني أن أفعل.

ظلت يدي ترتجف حتى بعد بعد أن أبعدت القنينة بعيداً عني. ها هو الوهن البشري الذي أحتقره، والذي يليق فقط بالضعفاء، يُسيطر عليّ ويفضحني أمام خادمتي!

ها هي فكرة موت سلوان قد انطلقت تعدو في دمي كقطيع من الذئاب الجائعة.. هل أملك الآن إمكانية ترويضها، أو لجمها، أو الحدّ من تهوّرها؟ إن الفكرة تنتشر بسلاسة تحت عيني، وفي ثنايا عقلي، وعلى لساني.. صحيح أن هناك رفضاً في مكان ما مني.. لكنها صارت أقوى مني!

الشر والخير وجهان لعملة واحدة، يكفي أن تُديرها على أي جهة لتقع تحت طائلة سحر الوجه الذي يقابلك! لم تكن موافقتي على إنهاء حياة سلوان، شرّ مُطلق! إذ ما جدوى العيش في ظل العجز؟ عجزه عن الخروج من براثن الجنون الذي أطبق عليه، وعجزه عن البقاء في مدينة مليئة بالأشرار!..

الكرامة، وهي القيمة الوحيدة التي تعلو على الخير والشر وتمنحهُما معنى، في طريقها إلى الاندثار.. أن يموت الإنسان بكرامة أفضل من العيش بلا كرامة، هذا ليس كلاماً فارغاً.. الضعف، والذلّ أصعب من الموت! بموته سأنقذ كرامته التي سيتم تمريغها كل يوم لأنني لم أعد قادرة على الاحتفاظ به! إنهم يسرقون كل شيء حتى كرامة البشر!..

الاحتلال أيقظ فينا روح الشر المُطلق وأطلق كل العنف الذي نختزنه وحوّله إلى نحورنا.. حوّلنا إلى حيوانات نقتتل على جيفة..

ما الإمكانية التي تبقت لي للذود عنه وسط مجاميع بشرية، حتى هي لا تُدرك مدى شرورها وعَماها؟

بالتأكيد كُنت، وما أزال، أحب سلوان، لكن هل للحب معنى الآن وسط مدينة تتسابق في أكل أخيارها وتُبارك استيطان الفوضى وتفخرُ بالخيانة والنذالة!!

تلبّسني شعور صافٍ مُريح.. سلوان يجب أن يغادر الحياة بكرامة.. بهتت الوجوه وتساوت!

عند المساء ملأ صوت سلوان القصر كله، وكأنه قادم للتو من الولادة! لا أعلم متى لفظه التُراب من جوفه مرة أخرى، على الرغم من أني كنتُ أنتظر ذلك وأترقبه مُنذ ساعات عدة! دخل علينا وفي عينيه مرحٌ غير مفهوم، سألني بود لم أره فيه مُنذ أن عاد من مصيدة الموت التي أقامها رُعاة البقر لهم هناك في تلك الصحراء التي بَشّرَ فيها نوح ومَنْ أتى من بعده..

دخل عليّ في الصالة وقال: «هل سيطول جلوسكِ هنا؟»، ثم أشار نحو الكلب وأردف: «هيا، نحنُ نتضور جوعاً».

كُدت أنهار وأبكي وأُفشل خططي التي رتّبتها مملوكة بكمالها المعهود. نَظرت نحوي وهي تنتظر مني كلمة لكي تقوم بتغيير الخطة وتقديم طعام من دون السُم القاتل، إنها تُحب سلوان بنفس

درجة حبي له، بل ربما أكثر. باتفاقي الضمني معها لم أكن أمنحها الخلاص، بل راودتني رغبة شيطانية بالانتقام منها عبر قتل أخي!

تشاغلت بالنهوض ولملمة أوراقي وتعديل أطراف ثوبي الأزرق حتى لا يُلاحظان ارتباكي أو الشر الذي ارتسم على وجهي، على الرغم من أني لم أكن واثقة بأن قدميَّ ستُساعداني على النهوض، بل كنت أخاف أن تتخلى عني لتتركني أنهار على الأرض باكية تحت أقدام مملوكة.. سيدة القصر الجديد!

موته.. موتنا.. قطار هادر بلا ربان سيخطفنا في النهاية من محطاتنا الواحد تلو الآخر، أكاد أسمع صوته المُدوّي.. أخيراً نهضت واتجهت مُباشرة نحوه مُتجنّبة قدر الإمكان النظر إلى الخلف، مُكتفية بسماع فحيحها الممزوج بأنين حزين.. وقفت أمامه أنظر إلى عيونه المُرتبكة وهي لا تزال تنتظر مني الجواب على سؤاله.. يا إلهي يكاد ذاك الارتباك المُحيّر المُفاجئ في عينيه، يتحول إلى حَدّ سكين يذبحني هو بهِ.. احتضنته وقبلته من عينيه علّي أطفئ لهيب ذاك الهدوء الجميل البادي عليه المُبشّر بالنهايات القاتمة.. احمرَّ وجّهانا، فأنا لم أفعلها من قبل أو مُنذ أن عاد من هناك.. كُنت على استعداد لأن أفعل أكثر من ذلك، أن أضمّه إلى صدري، أن أنوح معه، علّني أمسح تلك النظرة الهادئة التي باتت تُوخزني إلى أن أحسست بتراخٍ في ركبتيّ..

كُنت أريد لها أن ترى الفاجعة في أعيُننا، أن تشعر بالذنب القادم الذي صنعتهُ بيديها، الخوف الذي اتسع في أعماقي. أن ترى أي

شيء يُذكرها بالموت القادم وليس الذي مضى.. موتٌ بتنا، أنا وإياها، نسمع وقع خطاه وهو يجول بوحشية مُنفلتة في أركان القصر الذي بدأ يغرق في عَتمة كارافاجيو..

وضعت يدي تحت ذِراعه وطلبت منه أن يقودني نحو مائدة العشاء، ومن ورائنا يخطو جيفارا الذي بدا مُتردداً مُنصتاً لوقع خطى الموت التي لم تُخطئها أذنيه المُرهفتين هو أيضاً.. سلوان هو البريء الوحيد الذي دخل إلى لوحة الرسام ولا يعرف أي دور سيؤديه! أما نحن، البقية، فكنا نعرف بأنه سيؤدي دور البطولة: يوحنا الذبيح، الذي على دمائه ستوقّع مملوكة نهاية عصرنا وبداية عصرٍ آخر.. دماء لها رائحة طازجة ملأت جو القصر ولن تغادره! روحٌ جديدة ستنضاف إلى أرواح كل الذين اختفوا، لكنهم لم يغادروا..

قادني سلوان نحو المائدة كما يليق بسيد أرستقراطي جميل.. استحضرت بِولَهٍ جمال الزمن الذي راح فكسحَ كل مشاعر الضعف التي راودتني.. مملوكة واقفة على طرف لوحة كارافاجيو تنتظر أن تشهد على لحظة موت يوحنا. في أعماقها تدق نواقيس الفرح الوحشي الرخيص التي قُرعت ذات يوم في أعماق ابن العلقمي تُمجّد الخيانات كُلها وتُنصّبه سيداً لها.. الغدر يُسمع لهُ دائماً صوت جلجلة.

ها هي تتخلّص من قصة عُمرها الذي غدرت به.. سلوان.. الحكاية الممزوجة بمقادير مُتساوية من الحُب والكراهية، ها هي

تقترب من النهاية التي خططت لها لكي تسود العَتمة المُطلقة إلى الأبد..

جلستُ على رأس المائدة وأنا أمارس دوري لآخر مرة كوريثة للمجد الذي بدأت أصوات تصدّعه تُسمع مُنذ أن داست المُجنزرات الغريبة أسفلت أزقة المدينة التي بناها أجدادي والتي صُلب على أسوارها العتيقة.. الحلاج..

أخي جلس على يميني، وبيننا استراح على البلاط الإيطالي جيفارا، وأسدل عينيه باستكانة غريبة ذكّرتني بصورة أسدلَ فيها سَميّهُ، الثائر الجميل، عينيه في الأدغال مقتولاً ومن حوله صيادوه يبتسمون!

الزهور التي جمعتها هذا الصباح تتوسط المائدة، تبدو الآن شبه ذابلة.. الصحون الفارغة موزعة أمامنا ومن حولها الملاعق والشوك والسكاكين.. تقدّمت مملوكة بعد الإيماءة التي كانت تنتظرها منيّ وملأتها بحساء الخضار الذي فاحت رائحته فوق المائدة ونشرت شهية مُخادعة!

تناول سلوان ملعقته الأولى ثم رفع نظره باتجاه مملوكة برِضى ليُبدي لها استحسانه كما تعلّم مُنذ الصغر.. هي لم تستطع أن تتلقى هذه النظرة بامتنان كما كانت تفعل وتنتظر لتتمنى لهُ شهية طيبة، بل انسَلّت بهدوء نحو المطبخ لتتركنا أمام موتنا المُحيّر.. تناولت بيد ثابتة ملعقتي الأولى من طبق الحساء وكلي جهل ما إذا كان ضمن

محتويات الطبق بعض من السُم الذي تناوله أبي ذات يوم غابر، رغم ذلك انتابني شعور جارف بالتحدي منعني من الاهتمام بهذا السؤال المميت، فأي مُتعة بعد يجلُبها العيش وسط مجاميع بشرية مُلتاثة العقل كسكان هذه المدينة!

لم أكن أرغب في الكفّ عن التهام المزيد من الحساء إلى أن انتهيت منه تماماً كما فعل قبلي سلوان.

وما كدنا نُنَحّي الصحون الفارغة جانباً حتى أحضرت لنا الأطباق الرئيسية التي لم أركز عليها للوهلة الأولى، فقد كُنت ما أزال أدوّر طرف لساني في زوايا فمي لتعقب أثر طعم غريب استقر هنا أو هناك، لوهلة تهيأ لي أن ثمة شيئاً غريباً لكني لم أكن متأكدة، ربما يكون نوع جديد من البهارات التي تتقن مملوكة أسرارها، عكسي أنا التي لم أهتم بفن الطبخ ولم يكن من أولوياتي أبداً، وأصرَرت على البقاء خارجه رغم إلحاح أمي المُستمر. فبعد أن سافرت ماري الطباخة نحو الشمال لتموت في سهول الشمس، تولت مملوكة هذه المهمة وأثبتت أنها طباخة ماهرة..

بعد أن أنهى لساني لُعبة تعقّب أثر الطعم الغريب في فمي، بدأت أصغي بحذر لذبذبات أمعائي علّني أستشعر وجعاً يتسلل من حيث لا أدري، مغص! رغبة في التقيؤ! أو أي شيء آخر يُشير إلى اقتراب النهاية، لكن أيّاً من هذا لم يحدث، يبدو أن الأثر الوحيد كان في عقلي وليس في مكان آخر من جسدي، حتى كدت أقهقه من الفزع!

الوجبة الرئيسية مُكوَّنة من قطع اللحم المشوي مع الخضار.. مُنذ زمن بعيد كان أبي هو الذي يتولّى في العادة عملية تقطيع اللحم وتوزيعه علينا، وبعد وفاته أخذَ سلوان على عاتقه هذه المهمة، أو نحنُ أوكلناها له اعتزازاً بالدور الذكوري في عائلتنا. لكن بعد عودته من أرض الموت لم يعد يفعل ذلك، رفض ذلك وبعناد غريب.. في هذا المساء كُنت أريد أن أراه يفعل ذلك مرة أخرى، وربما أخيرة، فأنا أبدو هذا المساء كالمحكوم عليه بالإعدام الذي يفعل كل شيء للمرة الأخيرة، طلبت منهُ برقة أن يفعل ذلك، في البداية بان عليه الارتباك والتردد، لكنه نظر في عيون جيفارا الأقرب إليه مني ومن أي كائن آخر، وعلى ما يبدو استمدّ منه الشجاعة ففعل ذلك وإن افتقد الرشاقة التي كان يتمتّع بها في السابق. أفرحني ذلك، وللحظة خاطفة فكرت بالتراجع عن مواصلة تنفيذ الخطة الجهنمية التي يبدو وكأننا نسير على دروبها كالمنوَّمين أو المسحورين.. نظرت نحو مملوكة التي كانت تضع يدها على فمها لمنع شهقة من الانطلاق، فهي أيضاً للحظة نسيت دورها وتعاملنا كُلنا أيضاً للمرة الأخيرة وكأننا ننتمي إلى بعضنا البعض كما في العهود السابقة!

ملأ طبقي باللحم والخُضار، ثم ملأ صحنه. رحنا نأكل بشهية ملعونة.. شعرت بأنني أشتهي الموت وأتمناه.. رسول الموت «مملوكة» وضعت طبقاً على الأرض أمام جيفارا يحوي بعض العظام التي يُحبها وبدأت اسمع طرطقتها تحت أسنانه وهو في

أتمّ السعادة.. لم نتبادل، سلوان وأنا، الحديث أثناء الأكل. فقط، هو، أبدى بعض المُلاحظات عن جودة الطعام الذي اعتنت بطهوه جيداً هذا المساء مملوكة.. تناولت بعدها القهوة العربية، أما هو فقد فضل تناول بعض الفاكهة. كنت أريد الانتهاء من هذا العشاء الجنائزي الذي طال وأنا أداعب في خيالي أمنية تشبه السراب المُخادع بأن يكون كل هذا مُجرد كابوس تُرابيّ كالذي ابتلع المدينة بعد الاحتلال، وبأنه سينتهي قريباً!

تمنيت للكل مساءً سعيداً وصعدت إلى غرفتي متشبثة بظلال الأمنية السرابية، وبأن الغد سيحمل لنا أملاً حقيقياً بالحياة.. ذات يوم قبّلني الأب فريدون من جبيني وهمس لي بصدق مؤثر:

« زمن المُعجزات لم ينتهِ»..

تمددت على فراشي البارد بكامل ملابسي التي قررت النوم بها خشية أن يراني الناس بعد موتي بملابسي الداخلية! لكني لم أتمكن من إغماض عينيّ، فالترقب والتوجّس حاربا كل رغبة في النوم.. قفزت من الفراش وخاطر من الهلع يحتل كل مسامة في جسدي.. «مملوكة لم تضع لي السُم بل وضعته فقط لسلوان!».. لكن كيف يُمكن لها أن تفعل ذلك ونحن تناولنا الطعام نفسه! لقد وضعته في الفاكهة التي لم أتناولها، فهي تعرف أني لا أحب تناولها بعد العشاء! لكن لماذا لا تُريد أن تشملني بكراهيتها التي عجزت عن معرفة مصدرها!

لا أعلم كم ساعة مضت وأنا على هذه الحال من الإنصات إلى أعراض الموت.. حواسي مُستنفرة ومُستفَزّة.. تناهى إلى سمعي أصوات غريبة مُنبعثة من الطابق الأسفل. اقتربت من باب غرفتي ووضعت أذني عليه لأستطيع تفكيك أسرار هذه الحركات التي تشبه خُطى الموت، والتي بدأت تعلو غير مُبالية بجزعي مصحوبة بهمهمات وأصوات إنسانية أو شيطانية فأنا لم أعد أفرّق بينها، كل الذي شعرت به هو الفزع الذي بدأ يَتسلقني كشجرة لبلاب. الشيء الوحيد الذي لا أزال أثق به أن مملوكة قادرة على تدبير كل شيء بدون إثارة أي لغط أو ارتكاب أي خطأ.. تجرّأت على فتح الباب قليلاً لأعثر على تفسير ما لسر هذه الأصوات المُبهمة التي تتصاعد من أسفل الجحيم، لكني لم أنجح، فالإبهام كان يسيطر على كل شيء في هذا القصر مُنذ أن وصلتنا الطلقة التهديد..

أغلقت الباب وعُدت إلى فراشي، تمددت بنفس الطريقة الغريبة السابقة، أغمضت عينيّ وحاولت النوم!

الحقيقة أني أردت النوم لكي لا أكون شاهدة على الجريمة التي ارتكبتها، أو الإلمام بتفاصيلها التي تتولّى مملوكة لملمتها بدقتها المعهودة. الشيء الوحيد الذي حملته إلى النوم معي هو صور وجوه تلك الزُمرة التي جاءت تتوسّل خطبتي.. فميزة ليل هذه المدينة عدم الصُراخ عند ارتكاب الجرائم، والنوم على أكبرها..

كانت آخر صورة تترنّح في مُخيلتي المُثقلة، هي صورة

الشاهدَين على ذبح القديس يوحنا من خلف الشباك في لوحة كارافاجيو! هل يحمينا الحزن من الذنب؟

فكرت بمصير كلبنا الوفي جيفارا الذي استغربت عدم صدور أي صوت منه. لماذا، وهو الذي يتحسّس من الغرباء، لم يصدر أي صوت رغم كل هذه الجلبة التي تحدث هناك، في العالم السُفلي الذي تتسيده مملوكة؟

الهزيمة

(فيلاسكوز)

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

على غير مألوف عاداتي، لم أفتح عينيَّ بسرعة بعد أن أفقت من حالة كانت أشبَه بالنوم.. أبقيتهما مُغمضتين خوفاً من رؤية واقع جديد لم أكن أريد رؤيته، أردت أن أسدَّ أذُنيَّ لكي لا أسمع صوت الفجيعة ذات الفحيح العالي.. حاولت أن أتذكر بسرعة أين أنا وأين كُنت.. هل نمتُ حقاً!

لم أعرف قبل هذا الصباح أن الكوابيس تعيش في منطقة رمادية ما بين اليقظة والنوم.. كفِراش من الأشواك المؤذية، أخوضُ فيها مُرغمة ويقيني أنها قد سَمّرتني على صليبها بشكل مؤلم. منطقة شائكة يُكثر فيها وخز الأسئلة الشيطانية..

عالم الفجيعة الذي دخلته سُدّت بواباته خلفي مُنذ اليوم الأول لانتهاء حقبة وبداية أخرى، مع وصول الرصاصة التي عنونت بفظاظة لزمن الغوغاء.. شيء آخر أفقده إلى الأبد، النوم ملء الجفون! لكن ما الذي أستطيع القيام به أمام مُسلسل الهزائم الشبيه بشلال هادر أهوج يقتلعُ كل الثوابت التي آمنت بها!

أدرت عينيّ بسرعة في أرجاء المكان، مسحت السقف،

والجدران، والباب، وكل الأشياء الأليفة التي أعرفها بحثاً عن إحساس ضائع يمنحني ولو قدراً ضئيلاً من الأمان.. كل شيء في مكانه أو لا يزال.. «العيش بلا قيم مثل العيش في مزبلة».. لا أدري لماذا تذكّرت كلمات أبي المُدوّية التي كان لا يكفُ عن ترديدها كلما استشعر الضيق من السوقية التي أغرقت حياتنا.. أغمضت عينيَّ مرة أخرى وأنا أقاوم رغبة دفينة بالنزول الاختياري إلى القاع.. قاع القذارة الذي طالما ترفّعنا عليه وتساميناً.. بي رغبة إلى تجربته، إلى التمرغ فيه، إلى عصر كلمة «قذارة» حتى آخر قطرة فيها وأشرب!

لم أعد قادرة على تجاهلها أو الترفّع عنها! أصبح للقذارة مَزايا، تُغري الجميع بالانسحاق فيها مع إحساس بفرح هستيري وثنيّ الطقوس.. عجلنا الذهبي! القذارة التي تُرافقنا مُنذ زمن بعيد، كُنت أرقبها وهي تتمدّد في كل مكان، كل يوم، ولسذاجتي أوهمت نَفسي بقدرة الترفّعُ عنها.. لم أكن أتخيل أبداً أن هوس الابتعاد عنها يمنحها القدرة على العناد والإصرار على التمدد. القذارة لا تنتظر من أحد أن يختار النزول إليها، فقدرتها على التسلق هائلة، خاطفة.. توسع فينا المنطقة الشائكة على ضفاف نهر المدينة المُستسلمة للقذارة!

نبّهني الضوء المُتسلل من بين فتحات الستائر إلى أن الوقت هو الصباح.. لكنه كان صباحاً لا يلبق بالشمس البغدادية المعروفة بجرأتها ونورها المُبهر، شمس تُقلّص ظلال الأشياء إلى حد

التلاشي بوقوفها العمودي الشامخ إلى أن تُحيلنا إلى مخلوقات بلا ظلال!

إنها هذا الصباح تُرسل شُعاعاً كامداً، مَكلوماً، بلا روح، حتى تكاد تبدو عاجزة عن الإضاءة.. حزين ضوؤها ويشبه قَدرَ المدينة الذي يقودها في دروب المذابح.. عازفة عن ممارسة دورها الأزلي، ضوؤها مُنكَّسٌ، ومهزوم، يبدو وهو يُصارع التراب القادم من العدم أنه داخل في معركة محسومة سلفاً لصالح خصمه.. ضوء يليق بالمصير الغامض الذي انتهى إليه سلوان وجيفارا..

تذكّرت تفاصيل لوحة فيلاسكوز المُعلّقة على جدران الصالة الكبرى، اللوحة التي صورَ بها إله الحرب الشجاع، الفتى الجميل.. «مارس».. ليس كما اعتاد الرسامون الآخرون على رسمه، إذ يبدو هنا شيخاً مُتعباً خائر القوى، خاض آخر معاركه الأسطورية وها هو مُنهارٌ يتوسل الموت أن يُخلصه!

مرة أخرى أصابني قلق هستيري فرُحت أحرّك عينيَّ في جميع الاتجاهات، كنت أبحث عن شيء لا أدري ما هو. كنت أهرب من التفكير بما حدث ليلة الأمس، بل كانت بي رغبة للتأكد بأني لا أزال على قيد الحياة! على الرغم من أن كلمة «حياة» تبدو غير مُنسجمة مع هذا الضوء الذي يرسم ظلال الموتى والراحلين والمقتولين..

حرّكت لساني أمسح به شفتيّ المُتيبستين المالحتين اللتين لم تعرفا طوال حياتي سوى تكشيرة استعلاء مَزمومة ورثتها كلعنة

عباسية مُنذ سبعة أجيال.. وشفتَا الأب فريدون اللتان كانتا لي بمثابة الثمرة المُحرّمة، أتلذّذ بها ولا تهمّني كل التحذيرات!

شفتاي كانتا كأرض بور لم يمر عليهما شفف الماء مُنذ انهيار أسوار بغداد تحت سنابك الاحتلال ومرور المُحتلين من تحت عباءات العلقميّين الجُدد.. سحبت لساني على الفور إلى داخل حلقي الأكثر تيبُّساً فداهمني الاشمئزاز والنفور من قدرتي على مُراكمة كل هذا القدر الكبير من الملح المُرّ على شَفتيّ! حاولت أن أغلق عينيّ مرة ثانية، لكني ارتعبت من فكرة العودة إلى تلك المنطقة الشائكة التي يُكثر فيها وخز الأسئلة الشيطانية..

الأصوات المُبهمة التي أقلقني همسُها العالي بالأمس، ازدادت هذا اليوم صلافة وبدت غير مُبالية بوجودي.. كان في ذلك استفزاز لآخر قواي التي رفعتني وأجلستني على حافة السرير.. أنا الأخيرة في سلالة تمضي نحو الهلاك!

الأصوات نبّهتني، إلى أني أقف على أعتاب التحول الكبير، حقبة الفوضى العدمية التي تُريد ابتلاعي.. وإزاحتي! أصغي إلى رطانة الأصوات القادمة من الأسفل، أبحث عن صوتها الذي كان يعلو بين الحين والآخر على بقية الأصوات الثعبانية حتى يكاد أن يتحوّل إلى صوت يشبه صافرة إنذار تُعلن عن اقتراب الكارثة.. صوت يحفر في الروح مسالك مجهولة تبدو غير قابلة للردم. أعرفه جيداً، صوتها.. لقد اكتسب مؤخراً رنة جاحدة تشبه أسناناً

حديدية صدئة!.. أرهف السمع أكثر لألتقطُ تفاصيل الكلام، فأفشل في ذلك لكثرتها وتعددها..

إنهم هنا في الطابق الثاني! الفحيح يقترب.. أصواتهم تُنذر بالشر المُستطير.. نهضت كالملدوغة من الفراش وأنا لا أدري كيف يُمكن لي مواجهة زلزال التحدّي الزاحف نحو آخر حصوني! أطرافي، تحت خطر التحدّي، لم تعد تتحايل عليّ. نظرت بعيون مفتوحة على اتساعها نحو فراشي الذي غادرته للتو وأقف إلى جواره، أتساءل ببلاهة أربكتني.. من الذي كان نائماً هنا.. أنا؟

التُراب الناعم لا يزال يتسلّل ويتكدّس بخبث مُقرف، طبقة فوق طبقة، عقارب الساعة تُشير إلى العاشرة صباحاً.. التفتُ نحو المرآة الكبيرة المُعلّقة على الجدار بحركة غريزية، فكدت أطلق صرخة استغاثة، لكن حبالي الصوتية المخنوقة خذلتني ولم تُطلق العويل المُنتظر.. الملح المُر المُتكدّس على شفتيَّ تسرب إلى روحي وأوقف كل وهج محسوس، لمن هذا الوجه المُعلَّق على سطح المرآة أمامي؟

لولا الثوب الأزرق المدريدي الذي كُنت أرتديه مُنذ الأمس لما تعرفت على نفسي.. مَرّرتُ يدي عليه برفق لأتأكد منه ومني.. ألمسُ بهاءه القديم، فأنا لم أعد أختار من ملابسي المُعلّقة في خزائنها سوى القليل منها، أما البقية فهي تشبهُ ذاكرة رقمية تُشير للمناسبات والأيام والتواريخ التي اشتريتها بها أو ارتديتها، تبقى

مُنتظرة دورها لكي ألبسها في يوم قد لا يأتي، لتعاود تفعيل العلاقة السرية بينها وبين جسدي.. لكن هذا الوجه لمن؟.. لجدتي..؟ لأمي..؟ أو ربما لإحدى أخواتي، بل ربما لكل إناث العائلة وحتى رجالها.. سبعة أجيال مُوثّقة؟ الوجه الوحيد الذي أبى الحضور واستعصى هو وجه جُلنار.. ذاك الوجه المُتمرّد الدائم العزوف، الحالم بالتفرّد، المُصرّ على أناه المُغرّدة خارج السرب! الوحيدة التي اكتشفت مُبكراً السر فقررت الهروب من لعبة التَناسخ الفجّة هذه.. سمعت أن لها ابنة، كم أتمنى ألا تكون قد حملت ملامحنا غير المُتعَبة وغير المُطارَدة، وأن تعيش أبداً خارج الدائرة العباسية!

تحركت نحو باب الغرفة التي لم أكن أرغب بمُغادرتها، بقائي فيها يُخفّف من مخاوفي ويُبقيها في الخارج.. عُزلة مُريحة تقيني عذاب مواجهة الحقد المُرعب الذي بدأ بالتحرك لابتلاعنا! لكن خوفي من أن يقتحم أحدهم عليّ غرفتي كان أكبر، وهذا ما دفعني للخروج ومواجهة الخطر هناك وليس هنا!

اقتربت من حاجز السُلم ببطء، فرأيتهم! أناس غرباء كُثر يتجوّلون بوقاحة في باحة القصر. يتكلّمون بأصوات عالية ويتبادلون الضحكات الداعرة التي تتفجر هنا في رِحاب مملكتي كما القنابل الذكية الدقيقة التصويب ليُصيب ضررها عُمق روحي.. توقف شبح امرأة في وسط البهو ورفعت رأسها مُباشرة نحوي، إنها تلك المرأة ذات النظرات الوقحة التي جاءت ذات يوم تخطبني لزوجها «المُناضل!».. البذاءة نفسها.. كلا.. بل زادت فيها مساحة

التشفّي مع طوفان من المشاعر العدائية التي أدهشتني وأخافتني قُدرتها التدميرية الواضحة!

تراجعت إلى الوراء خطوتين حتى أخرج من دائرة نظراتها التي لم أعد أطيقها. أحاول تجنّب فحيح ابتسامتها، أحاول تجنّبهم جميعاً، عدم سماع أصواتهم.. اندفعت بسرعة نحو الأعلى، نحو سطح القصر الفسيح، فهناك سأكون وحدي تحت السماء. سيختفون عن عينيّ وتخرج كلماتهم التي تشبه المسامير المُتشظية من أذنيّ.. كُنت أريد الابتعاد عنهم بأي ثمن، أن أشطبهم بكبرياء أحمق ورثته. أن أواجههم بسلاح الازدراء.. أنا لا أملك أيّ سلاح غيره..

فتحتُ الباب فداهمني الضوء الكامد إياه، السابح في ذرات التُراب الباردة، تكوّرت إلى جانب الباب وتقيأت الجميع.. تقيّأت ذلك العشاء الأخير.. وتقيّأتهم. لون القيء أصفر ممزوج بفقاعات بيضاء تتفجر الواحدة تلو الأخرى، ليتماهى المزيج في النهاية بلون القذارة..

شعرت بارتياح من يُلقي عن كاهله عبء ثقيل، صوت مملوكة الذي يُذكّر بصفارة الإنذار لم يعد يصل إلى هنا.. خرجت من دائرة الشر التي نصبتها لي نظرات المرأة السمينة الوقحة.. شعاع الشمس المريضة الباهت بدا مُريحاً فجأة! الضوء الذي لم يعد قادراً على إنارة المدينة أو مُقاومة التراب الهابط من كل مكان.. التُراب يتكاثف كأنه يُصرّ على تذكيري بالعدم.. اقتربت من سور السطح المصنوع

من الحديد الأسود الذي تتخلّله نقوش نباتات خرافية. سورٌ صُمّم على نمط الشُرفات الباريسية.. هنا وهناك بعض الأغراض المُهملة التي لم أرها من قبل، فأنا لم أصعد إلى سطح القصر مُنذ سنوات بعيدة، ربما مُنذ أن كنت طفلة! يا إلهي كم مشى فوقي الزمن!

ألقيت نظرة من هذا العلوّ على المدينة التي بدت غريبة بالنسبة لي، كانت أشبه بمائدة تملأها فضلات الأكل المُتعفّن.. وبشرها يبدون كحشرات تتدافع في أحشائها! فاجأني حجم الخراب الذي حط عليها. خراب ظلّ يتراكم عهداً بعد عهدٍ تماماً كما يتراكم التُراب عليها الآن يوماً بعد يوم! الرغبة في القيء لا تزال تراودني مع أن جوفي أصبح خالياً من كل البقايا عدا بقايا المنظر الحزين للمدينة الهرِمة..! هل هذه هي فعلاً المدينة التي كُنت أرفض هجرتها؟ هل من المعقول ألّا أشعر بكل هذا الخراب من قبل، واكتشفته الآن فقط.. الآن، وأنا أستعد لإلقاء نظرة الوداع عليها؟ مدينة تتهيأ للتواري بين دفات الكتب بعد أن سلبوا وفجّروا كل تماثيلها ونُصبها التي تروي حكايتها!

اقتربت أكثر من السور الحديدي لأرى الشارع المُحاذي لبوابة القصر.. بشر كُثر ساعون في كل الاتجاهات كأسراب النمل، تبدو حركتهم بلا معنى أو هدف.. فوضى مُطلقة.. أكاد ألحظ مشاعرهم الموحشة كفضلات مُقززة، مشاعر متوحّشة تنتشر هنا وهناك، تصرّفاتهم تذكّرني بتصرّفات تلك الوحوش في هذيانات سلوان! ترى هل كان سلوان يهذي أم إنه كان يعبّر عن نظرته لهؤلاء الذين

ماتت مشاعرهم؟ اللعنة ترافقهم كما ظلالهم.. إلى أين تذهب المشاعر بعد أن تموت؟

من الأعلى يبدو التُراب وهو يتساقط عليهم يُخفي ملامحهم فيبدون هلاميين غير حقيقيين، لكني أعلم أنهم موجودون بكثافة تملأ الشوارع والأزقة والأفق، لكن بلا أي أثر! حتى داخل أبوابهم نصف المُشرعة، ونوافذهم المُغلقة، تسيل مشاعرهم كما الفضلات إلى حيث لا أعلم.. حشود، حشود، حشود تُنافس الصفر في عدميته.. وماذا عنّي أنا؟!

بغداد من هذا العلو المُريح تبدو كالمُدن الأسطورية التي تحمّلت القسط الأكبر من غضب الرب فدخلت متون الكتب المُقدسة كأنموذج للمُدن الملعونة.. لنا فيها آثار محفورة.. أما اليوم فإنها تبدو مثل وليمة تنهش فيها الكلاب ويذيقها الموت كأس الهوان علّها تصحو لنفسها.. دموعنا كدموع التماسيح، مُظلِّلة..

كم أتمنى أن أكسو جلدي بغطاء يمنع عني طوفان الرُخص.. الكتابة هي جلدي الأخير الذي يمنحني القدرة على المواجهة، والكلمات هي المشاجب التي أعلّق عليها صورة تاريخ مضى وتمنحني قدراً مُريحاً من الإنسانية المُفتقدة في هذه المدينة المقزّزة.. مُنذ زمن بعيد تحتمي عائلتنا بالكلمات، بسحرها، بأحاجيها، بأسطحها المُتراتبة، ببلاغتها المُدهشة، بأسرارها العميقة التي لا تمنحها إلا لمن يعشقُها. نعبر السطح الأول التافه

الذي تركناه للآخرين لنغوص في جمالية بيانها النابع من أعماق الذاكرة الذي يؤرّخ لهذه المدينة التي بَنَيناها من الشعر والفن والجمال، ورصدنا تحولاتها.. ووجدانها.. وصوفيّتها الفريدة..

من هذا العلوّ المريح، ألقي نظرة أخيرة على المدينة المُحتضرة التي بالكاد تعرفتُ عليها، لقد توسَّعت كثيراً، وغزاها الجهل والفقر وقلة الذوق.. خطايا معمارية لا تمتّ لنا بصلة، أخافُ تلك الأحياء التي تُبنى وتتسع وتتكاثر كما المرض المعدي.. لم نقترب منها، بل نكتفي بأحيائنا القديمة المُهملة، التي لا يزال ينبض فيها نسغ عبّاسي وفيها سأترك رنين خطواتي كما فعل أجدادي..

القبح لم يعد معياراً يستوقف أحداً لأن الضدّ، الذي يبرز بشاعته ما عاد موجوداً، الجمال لم يعد مسألة يفكّر فيها هؤلاء السّاعون أمامي فلا يزعجهم كل ذلك القبح الذي يحيط بهم.. ابتلع الكل، حتى أصبحنا مُجرد امتداد للقبح المعمّم!

أحسّ بأن مدينتنا تبحث عن خط زلزالها الذي سيقودها إلى نهايتها المُحزنة، أشعر بالفقدان الذي يُرسّخ قناعة القبول.. ما عاد أحدٌ يخاف عليها من انهيارها المُحزن، من هزيمتها أمام الغزاة والخونة، هزيمة تشبه هزيمة «مارس» إله الحرب الجميل الذي شاخ، كما في لوحة فيلاسكوز المعلّقة في الصالة..

ما زال في أعماقي شيء من التحدي، ربما هو آخر ما أملكه من عزم، أنا سليلة البُناة الأوائل لهذه المدينة التي بُنيت بالكلمات

قبل الحجارة. أراها شاخت كما هو حال «مارس»، لكني ما أزال أحمل غار مجدها الذي سيبقى ولو كماضٍ!

نزلت إلى الأسفل بتصميم كاسح على كنس كل الحشرات التي تعيثُ بالقصر العريق عبثاً وتنشر رائحة العفن.. أنا ما زلت أنا.. رغم إدراكي بمحدودية قدرتي على المواجهة، ومعرفتي سلفاً بأن المعركة محسومة. قررت خوضها كأنني أقف إلى جانب سلوان في مواجهة الوحوش الخُرافية في صحراء الموت.. كما لو أنها معركة بين حضارتين، أو بالأحرى بين الحضارة والخراب!!

كما لو أن سلوان ذهب إلى صحرائه بعد أن تحرّر من الخوف، وها هو يعود لنجدتي وبصحبته نوح الذي أنقذه من تلك الوحوش التي تهابه.. يا إلهي ما أجملك يا سلوان.. أنت تسمعني إذاً؟ ها قد جئت لنخوض معاً حربنا الأخيرة لنضع خاتمة سلالتنا كما يليق! هيا إذاً لنواجه مصيرنا بشجاعة وهذا يكفي!

في الطابق الثاني كانت المرأة البدينة تتهيأ للدخول إلى جناحي الخاص.. لكنها فوجئت بي ورأت شرارات الغضب تنطلق من عينيّ، فتجمدت يدها على مقبض الباب وغارت ابتسامتها التي لا تفارقها خلف خوف استولى سريعاً على تقاطيع وجهها.. طردتها بقسوة وأنا أشعر بأن كل سُلالتي تقفُ خلفي. كان غضبي أسرع من خطواتي فراحوا يختفون من أمامي ويغادرون أروقة القصر.. اختفوا تماماً كما ظهروا.. لم أكن مُضطرة لقول أي شيء حتى أطردهم، كان غضبي كافياً ليتراجع هؤلاء الجبناء عن مواجهتي..

كنت أعرف أنهم سيعودون بسلاح الغدر والتخويف.. سيعودون كموجة عمياء عاتية تجرف كل شيء في طريقها إلى حتفها.. وقفت لبرهة أتنفس بعمق وأستعيد هدوئي.. لقد اختفوا.. اختفت رائحتهم النتنة التي لا أخطئها..

كلما تكثفت مشاعري أزداد إيغالاً بالصمت.. مُنذ طفولتي.. تعلمت كيف أبلع الكلمات وألجم العواطف، تعلّمت أن ألبس قناعاً صارماً لا يسمح لأيّ تعبير من النفاذ نحو الخارج.. كُنت في ذلك أقلّد جَدتي مريم، فهي لم تكن تسمح بأكثر من أن ترسم على وجهها الجميل ابتسامة مُحايدة يفسّرها كل واحد منا بشكل مُغاير وبحسب ما يشتهي. كانت غامضة، لكنه ذلك الغموض الخالي من أيّ خبث، فهي قلّما تغضب، ودودة يتكثّف في تصرّفاتها شلّال من العواطف نلمسها من دون أن تظهرها. قلّدتها من دون أن أعيّ مقدار تسللها إلى أعماقي واستقرارها الأبدي فيّ.. قلّدت طريقتها في الإصغاء حتى تبدو لمن يُحدثها بأنها عبارة عن آذان صاغية، لكني لطالما تساءلت عمّا إذا كانت تصغي فعلاً أم هي في مكان آخر بعيد لا يعرفه أحد سواها.. فقد كان صمتها المصغي أشبه بالخشوع!

زوجها كان يُحب صمتها هذا، بل يُصغي إليه بمتعة فائقة.. رأيتها دائماً مُتكاملة، وعشقت ذلك فيها إلى أن أصبحت نسخة منها بشهادة الجميع. كان هذا الإطراء يُسعدني على الرغم من أني لم أعرف أبداً بماذا كانت تفكر!

جدتي مريم.. كانت الأكثر غموضاً في العائلة، بدأتُ مُنذ

طفولتي بتتبع آثار خطواتها، وهي تتنقّل بين أروقة القصر برشاقة وخفّة فتراها حاضرة في كل مكان! رأيت فيها ما لم يستطع أحد غيري رؤيته، فهي تسحب وراءها كومة من الأسرار والطلاسم، إلى أن أصبحت امتداداً لها! عندما فارقت الحياة كان من ينظر إليّ على أنني مَن سيحلّ محلها، وهكذا كنت أنظر إلى نفسي حتى أصبحت الحفيدة والجدة في آن واحد.. تصرّفت على هذا النحو حتى بتُّ مستودع أسرار الجميع، وبالتالي كان عليّ أن أفكر بالحلول للمشكلات التي تصادفهم.. تواطأ الجميع على ألّا يُصبح مكانها شاغراً.. دفعوني لذلك وأنا ارتقيت إلى مكانها بسعادة.. من هذه المكانة تفهمت أسرار الخيبة التي استولت على بلقيس ورباب وزوجيهما عندما لمسوا حيرتي وأنا أروي لهم قصة وصول «الطلقة» التهديد، لأنهم هم من كانوا ينتظرون مني الحلول وليس العكس! ولم يُفكر أي فرد في العائلة طوال هذه السنوات بأني كنت أحتاج إلى المشورة!

لم يمضِ وقت طويل على وفاة جدتي حتى استطعت أن أحوز على إعجابهم الذي استخدمته لأفرض موقعاً مميّزاً ناظرةً إلى نفسي كوريثة لسلطة جدّيَّ. وهكذا تعاظمت سلطتي على الرغم من صغر سني.. أعتقد بأن الوحيدة التي كان يُمكن أن تُنافسني على هذه المكانة في القصر هي جُلنار.. لكن جُلنار اختارت الاختفاء!

أبي كان الأكثر سعادة كوني أصبحت الذكرى الحيّة لوالدته.. الحدود تلاشت تدريجياً بيني وبينها حتى بت لا أعرف تماماً من أنا!

لقد أورثتني أعزّ وأجمل ما كنت أراه فيها: ابتسامتها المُحيّرة.. السلاح الذي منحني وجوهاً مُتعددة.. المكان الوحيد الذي كُنت أتحرّر فيه منها وأشعر بأنها لا تُريد مرافقتي إليه هو غرفة عشيقي الأب فريدون.. هل كان يمكن لها أن تتفهّم ذلك! هل كان لديها عشيق يوماً ما؟

أحسّ أنه كان لجدتي دور في اختيار تلك اللوحات المعلّقة في الصالة الكبرى. هي المتأمّلة بصمت..لا يمكن أن نفهم الفن من دون التأمّل، ولا يكتمل التأمّل من دون الصمت. اختياري لدراسة الفنون التشكيلية طوّرَ لدي موهبة الصمت إلى أن أتقنت كل أسراره وتعلمت كيف أحوّله إلى قوّة، صارت اللوحات مفاتيحي السرية التي من خلالها ألجُ الأبواب المُغلقة.اللوحات تستغرقني، تبتلعني، تُبعثر مشاعري وتُعيد تركيبها بمفهوم جديد أكثر ألقاً.. تمنحني تلك القدرة على اختبار كل الأحاسيس: الفرح، والهدوء، والخوف، النزق والانخِطاف.. كل درجات سُلّم المشاعر التي يحتاجها الإنسان ليغوص في أعماق الوجود ويدرك قيمة الحياة. في نفسي أحسّ بأن المشاعر تُشكّل ملامح وجهي، تنعكس عليه وتترك في نفسي أثراً جميلاً، على الرغم من اعتقادي بأن ملامحي الخاصة قد ابتلعتها ابتسامة جدتيّ المُحيّرة!

اختفاء اللصوص من القصر أعاد لي الإحساس بامتلاكي لتلك الهالة. لكن هل سينفع ذلك مع هؤلاء الذين يقبعون في الظلام؟

مع هذا كُنت مُرتاحة لاختفائهم الموقت، وأعرف أيضاً أنهم في مكان قريب مني.. ينتظرون!

خرجت إلى الشُرفة المُطلة على الحديقة، كل شيء يبدو لأول وهلة على ما يُرام، على الأقل داخل حدود الرؤيا التي يمنحنا إياها التُراب الذي لا يزال يغطي وجه السماء ويُصرّ على خنق الحياة. أحملق فيه ببلادة، فأشعر بالعجز، بالعدم، وباللاجدوى.

أتجول في داخل غرف القصر شبه المنهوب على غير هدى، أطأ الأماكن التي لم أدخلها مُنذ زمن بعيد.. عند نزولي من غرفتي لم ألحظ اختفاء السجاد الأحمر الذي كان يُغطي درجات السُلم. نبّهني إلى ذلك صدى ارتطام حذائي بالبلاط العاري! كل تركيزي كان منصبّاً على النهّابين وليس على المنهوبات، أشياء اختفت هنا وأخرى هناك، لم يُدهشني ذلك فأنا أعلم أن عملية النهب قد بدأت.. أشعر بالألم وأنا أتفقّد ما تمّ نهبه. كل شيء أفتقده يُفتت قطعة من فُسيفساء ذاكرتي ويترك مكانها حفراً بشعة غير قابلة للردم! توجّهت نحو الصالة الكبرى، كُنت أخشى.. لغبائي.. على اللوحات السبع، لكني ابتسمت بمرارة وأنا أغلق الباب خلفي وأنظر إليها مُعلّقة في أماكنها.. ماذا يفعل هؤلاء باللوحات! لم يفكروا بسرقتها. إنها آخر ما يفكرون به، فالصحون والملاعق الفضّية والسجّاد، وحتى الثياب، أهم عندهم بكثير من كارافاجيو وماكس ليبرمان!

كان ظهري ما زال مُسنداً إلى باب الصالة المُغلق، وأنا أمسح

بنظراتي المُرتبكة الموجودات التي تُشكل ذكرياتي الثمينة.. عندما أفزعتني بضع طرقات خفيفة على الباب. طرقات بدت أشبه بطعنات سكين يُغرز في لحمي الحي. لأني كُنت أعرف اليد التي تحمل هذا السكين.. استدرت وفتحت الباب فكانت هي.. مملوكة، تبحث في عينيّ عن الفزع فيها. واجهتها بتلك النظرة الهادئة التي ورثتها من جدّتي، فبدا عليها الفزع. فزع غريزي يَصم العبيد والجبناء. فكيف يُنتظر من الإنسان الجبان أن يكون حراً، الجُبن لا يُطيق الهدوء في نظرة العدو.. وهذا شجعني على الإمساك بزمام المُبادرة فسألتها بصوت آمر: «هل أعددتِ الإفطار؟»..

ارتبكت أكثر، وظلت تنظر إليّ وكأنها تبحث عن جواب لسؤال لم تجرؤ على تمريره على لسانها. أحسست من نظرتها بأنها تريد أن تقول: «ألم يكن اتفاقنا أن أقتل سلوان لتختفين؟».. ولما جابهتها تلك النظرة انصرفت بسرعة..

كنت أتحرّك في القاعة، أنظر إلى تلك اللوحات التي شكّلت بدايات ذائقتي الفنية، وكانت السبب في اختيار تخصصي الجامعي. أفكّر في مصير ذلك الكنز إن انتقل إلى أيدي أولئك الرعاع الذين دمّروا كل التراث الفنّي لتلك المدينة بهمجية، تحت شعار أنهم يدمّرون إرث النظام الذي عذّبهم وشرّدهم.. ما كان يمكنهم أن يدركوا أن هذا تراث إنساني، ولا أنه يفيدهم حتى كوثيقة على ما قام به ذلك النظام والأنظمة التي سبقته.

حين أنظر إلى ذلك التاريخ، منذ أن تمّ سحل الوصي على العرش، وبدأت سلسلة العنف الدموي الفظيع الذي ظلّ يتصاعد ليصل إلى المدى المرعب الذي نعيشه اليوم، أدرك أن لا مكان لمن هم مثلنا، ولا للذين يتميّزون بالرقّة والحساسية التي يتمتع بها الفنانون والشعراء والمبدعون الذين تم تشريدهم في أربع أقاصي الأرض، ومَنْ أعاده حلم الدولة الديمقراطية التي وعدنا بها الاحتلال وكل الذين جاؤوا محمولين على دباباته، أصابه مرض الغثيان الذي أشعر به، وما عاد قادراً على الشفاء.

رأيت بعض صور العائلة مرمية على الأرض. غمرني حنين للارتماء في مُحيط أعرفه، أثق به، يُلبّي حاجتي لطمأنينة مفقودة.. لوجوه أعرفها وآلفها، وأعرف لغة التخاطب معها!

كان صندوق الأبنوس الأسود المُرصّع بأحجار الكهرمان الذي جلبته والدتي من آخر سفراتها إلى الاتحاد السوفياتي مفتوحاً. أمسكت بيد مُرتعشة من شدة الشوق، صورة منها فراحت تتراقص أمامي أشباح الماضي الحبيب.. أحياء وأموات.. كنت أشمّ رائحة كل منهم. رائحة بددت الكراهية التي احتلتني وأنا أنظر إلى اللصوص في قصري.. غابت الكراهية! هل الكراهية شعور أصيل أم مُكتسب؟ ضحكت من تفاهة السؤال، فآخر ما أحتاج إليه الآن هو التفكير في سؤال فلسفيّ من هذا النوع!

الصورة كانت بالأسود والأبيض، في بيت ما، في زمان ما، كأني لم أرها من قبل! أم أني نسيت؟ لا شيء مكتوباً على ظهرها:

أبي مع مجموعة من الأشخاص.. من هم؟.. لماذا لم نرهم طوال حياتنا؟.. الشخص الواقف إلى جوار أبي في مثل عمره آنذاك، بداية عشريناتهم أو أقل بقليل، أمامهما يجلس شخصان آخران أكبر سناً.. ترتسم على شفتَيْ أبي ابتسامة ودودة، شعر رأسه أسود وكثيف ممشّط بطريقة تضفي عليه شيئاً من الفحولة الفجّة.. لم أره يُصفف شعر رأسه هكذا طوال حياتي وحياته معنا، يبدو أنه توقف عن هذه العادة بعد الزواج من أمي التي كانت تكره كل ما هو فجّ، في عينيه قوة غير عادية، ثقة، وأمل في المستقبل، جرأة تصارع عدسة الكاميرا التي ينظر إليها بثبات. عيونه جذابة كأنها تقول أيّ أنثى تستطيع أتصمد أمام عينَيّ؟

الشخص الواقف إلى جواره يبتسم للمصور بطريقة أكثر دفئاً وأكثر هدوءاً، أقصر من أبي ببضعة سنتيمترات، أما الشخصان الجالسان فكانا مُتجهّمين، أحدهما يرتدي الملابس البغدادية الشعبية التقليدية، نافد الصبر، والآخر كان أكثر تقطيباً من الجميع وأكبر سناً.. الكل في انتظار ذاك الصوت الذي كان يصدر عن الكاميرات أيام زمان لتخليد اللحظة التي لم ولن تتكرّر أبداً.. أبي كان الأكثر أناقة وجاذبية، إنه أصغر مني الآن!

لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بمرضه الطويل المؤلم الذي انتهى بموته.. أمي رفضت وقتها إتمام الطقوس الدينية الواجبة لتغسيل الجثة على الطريقة الإسلامية والصلاة عليها، خارج القصر.. وقررت إتمام هذه الطقوس هنا.. في ذاك اليوم البعيد

الحزين، ذهبت بالصدفة إلى المخزن المُلحق بالقصر، فرأيتهم ورأيته للمرة الأخيرة.. كان عارياً مُسجى على طاولة مُنخفضة، لم أرها بعد ذلك! الرجال من حوله يغسلون جسده ومقرئ يُرتّل القرآن بصوتٍ يحمل أسىً غريباً وكأنه يعرف أبي شخصياً.. ما إن رأوني حتى ارتفعت أيديهم في وجهي كأنهم لا يريدون لي أن أرى ما يفعلون، وارتفعت أصوات غليظة تأمرني بالمُغادرة فوراً.. أصابني الهلع من منظر جسده النحيل العاري الخاضع لهذا الطقس الحزين، لم يكن هذا الجسد لأبي. كم كان المنظر حزيناً! بعدها اعتراني شعور بالاغتراب، ظل مُسيطراً عليّ حتى بعد أن أخرجوا جنازته من القصر على وقع بكائنا الصامت الذي غطّت عليه أصوات تكبير مدوّية.. انزويت في ممر الحديقة الطويل لا أدري ما الذي يُمكن أن أفعله. يد أمسكتني من كتفي وأمرتني أن أتبع حشود المُشيعين.. امتثلت للأمر وسرت مع السائرين مع قناعة غريبة استحوذت عليّ بأن هذا المُحمول في النعش ليس أبي بل جُثة شاحبة لا إرادة لها، جثّة غير قادرة على احتواء صورة أبي التي في مُخيّلتي، أبي، الرجل الأنيق، الساحر، الذي كانت ابتسامة منه كافية لزرع أفقي بالأمان.. تماماً كما هو هنا في الصورة التي بين يدي!

في الصالة الصُغرى حيث تُعلق على جدرانها صورنا جميعاً، صورة له بعد التخرج من الجامعة، وفيها يبدو شاباً يافعاً يتأهب لالتهام الحياة. أمي كانت تقول عنها: «هذه الصورة هي السبب الذي جعلني أقبل الزواج منه..».

أمسكت بصورة أخرى ألوانها مالت إلى الاصفرار.. جدي إسماعيل باشا وزوجته مريم وحدهما، يبتسمان بوداعة توحي بالترف وتُلقي عليهما ظلالاً من الظرَف.. أرستقراطيان بكل القياسات. لم تترك جدتي شيئاً للصدفة، بدءاً من الوقوف أمام الكاميرا مروراً بالملابس وانتهاءً باختيار المكان ونوعية الأثاث المُنتقى كخلفية للصورة.. لعل عملهما الدبلوماسي الطويل علّمهما هذا الإتقان وكيفية التعامل مع العدسة.. لا أذكر الآن يوماً رأيتهما فيه وهما خارج هذا التناسق الذي يبدوان عليه في هذه الصورة، كانا أقرب إلى حالة العشق من حالة زوجين.. خلفهما على الرف الذي يعلو المدفأة الخشبية المحفورة في الجدار، ساعة رملية لم يبق من رمل جزئها العلوي سوى القليل، ربما كانت تُشير إلى ما تبقى لهما من زمن!

جدي وجدتي يبدوان في غاية الأناقة التي ينقُصها المرح. في نظراتهما استعلاء طبيعي، شخصان لا يسمحان أبداً للمشاعر المُلوّنة بالاقتراب منهما، هو كان يبدو على كامل الاستعداد لتحويل كل المشاعر الرخيصة التي تصادف عالمهما إلى أعمدة من الملح.. قاموسه الأخلاقي يبدو فاضحاً في جو الصورة، الدموع ضُعف مرفوض بشكل قاطع، إبداء اللهفة رُخص، الحب مُمارسة لا ميوعة، الابتسام شعور وليس فتحة تَشقُّ الفم بلا معنى.. قائمة حفظناها عن ظهر قلب وأتذكرها الآن، أتذكرهم بكل الحنين!

في صورة أخرى لأبي وأمي، كانا يقفان وقد تركا مسافة بينهما.

أبي لم يضع يده اليُمنى حول خصر أمي، كما فعل جدي مع جدتي، هناك خيط من الفراغ يفصل بينهما ويُسبغ نوعاً من الإبهام على عموم الصورة، لا أثر لأي نوع من الابتسامات، بل إن فمَ أمي يميل بخفّة نحو أسفل اليمين. أعرفها جيداً، كانت هذه الحركة سلاحها للتعبير عن الازدراء.. لكن ممّن؟ هذا الازدراء جر خيطاً قاتماً طغى على باقي تفاصيل وجهها الجميل وبدت أقرب للصرامة، كأنها تؤدي طقساً عائلياً ثقيلاً تجاه الأجيال القادمة! أما عيناها، فكما عرفتهما وحفظتهما تملكان نفس الألق! عندما ماتت وغابت عني تلك العيون الدافئة شعرت بأني كبرت كثيراً، وأن عيونهما كانت تحفظ شبابي.

بدا لي أبي في الصورة كأنه على وشك إلقاء موعظة أخلاقية من النوع الذي اعتدنا أن نسمعه منه عندما يُزعجه تصرف منا أو يرى ميوعة لا تليق بنا كأسياد لهذه المدينة، وكان هذا من هواجسه المُلّحة!

لملمت الصور وأعدتها إلى مكانها وأغلقت الصندوق الثمين كأني أضع ختماً أبدياً على كل الماضي الذي أصبح.. الآن.. يؤلمني ويُشعرني بالخيانة..

مُنذ السقوط المُدوي لمدينة أجدادي تحت خناجر الغرباء، وأنا أشعر برقعة باردة تتمدد في عالمي الداخلي وتتوسّع بشكل وحشي لتشمل كل ما حولي، وذاكرتي، وحماقاتي... إحساس غربتي يزداد ضراوة من جراء البرد الذي تنشره هذه الرقعة

الغامضة كمرض موجع.. صمت مسكون بهواجس غير مفهومة لهُ صوت قرقعة الانهيار، أشهد تحول بقايا الجمال إلى قُبح كاسح، ينزح قلبي إلى أماكن تتكوّم فيها القيم التي ورثتها وتتحوّل إلى حُزمة من التفاهة.. أتحوّل إلى طاقة شريرة وأعطي موافقتي على اختفاء سلوان الأبدي كشيء فائض عن الحاجة! ولا أشعر بالندم! فمن يعِش بين الأوساخ لا بد أن يتسخ.. لا أخص أحداً أو فئةً.. اجتاحتني عوامل التعرية ولا شيء يوقف السيول..

تكرر الطرق الخفيف الشبيه بطعنات السكين الغادرة على باب الصالة.. انتظرت ففَتحت مملوكة الباب من دون أن تُريني وجهها، وحده صوتها تسلل إلى جو الصالة وهي تقول بهمس يكاد لا يُسمع: «الإفطار جاهز..». تلك الطبقة في صوتها الذي ألفته مُنذ الصغر، جديدة عليّ. إنها تحمل كراهية صافية ترقى إلى حدود الكمال! فكرت إن كان هناك شيء آخر تُخفيه في ثنايا صوتها المُتحوّل لكني فشلت، فهذه المملوكة لم أعد أعرفها كما عهدتها مُنذ البدايات البعيدة عندما كانت لا تخطئ مرة في مناداتي بـ«الخاتونة».. ثم بعد عيد ميلادي الثاني عشر، اختفت تاء التأنيث وأصبحتُ «الخاتون».. وإلغاء تاء التأنيث كان، وللغرابة، تعبيراً عن كوني صرت أنثى واكتمل نضوج جسدي. شعرت حينها بالسعادة فاللقب الجديد كان إيذاناً بالولوج إلى عالم الكِبار الذي كُنت أتوق إليه.. أمي، كعادة النساء، في عوائلنا كانت كاهنة التقاليد وراعيتها، فالنساء هنّ المؤتَمنات على التقاليد والأسرار، وهي التي نبّهت

مملوكة إلى ذلك، فاللقب يرسّم المسافات والحدود بين الأدنى والأعلى.. «الألقاب تحمينا من الآخرين»..هكذا كانت أمي تُردد باستمرار..

منذ أن صرت «الخاتون» لم أسمعها مُطلقاً تُناديني باسمي المُجرَّد «غصن البان»، وظل ذلك عصياً على لسانها إلى حد الآن.. الآن قررت أن تبتلع مملوكة كلمة «خاتون» فاكتفت بمُناداتي بضمير التخاطب «أنتِ»، ولم تجرؤ إلى حد الآن على مُناداتي باسمي رغم أن كل شيء قد تغير وكل المؤشرات تُشير إلى أنها ستكون سيدة القصر الجديدة!

الإفطار عادة يكون في الشُرفة، لكن استمرار تساقط التراب جعلها تُعدّه في صالة الطعام.. اتجهت إليها وأنا أحضّر نفسي للمزيد من المفاجآت التي لم تتأخر، فمملوكة أعدت المائدة لشخص واحد! أجل، سلوان قد اختفى مُنذ الأمس، وعلى الرغم من معرفتي لهذه الحقيقة المؤلمة التي ساهمتُ في صياغتها، إلا أن منظر المائدة المُعدة لشخص واحد أصابني بوجع في أمعائي، وراودتني رغبة في التراجع، لكني لم أشأ أن أفعل ذلك وهي تُراقبني بفضول كبير حيث كانت تنتظر على غير عادتها، تقف قرب الباب ونظراتها تحفر في أعماقي لتتلمّس مشاعر الفجيعة وآثار الحُزن الذي أجدتُ إخفاءه عن عيونها المُتربّصة..

استنجدت بكل ما أملكه من إباء، وبما تعلّمته من جدتي في إبقاء تفاصيل وجهي عصية على الطارئين المُتطفلين.. شددت قامتي وأنا

أكاد أسمع صوت أمي يأمرني ألّا أتراخى وألّا أظهر التردّد، على الرغم من أن ظهري كان يدفعني للانحناء من شدة الحزن.. مشيت إلى مكاني وعلى وجهي نفس الابتسامة المُحيرة التي أورثتني إياها جدتي مريم والتي تعرفها مملوكة جيداً.. فكانت كما البصقة في وجه خيانتها ومعها كل أولئك الذين أحضرتهم لمشاركتها تلك الخيانة.. اختفت بسرعة بعد أن أدركت أنها لن تستمتع برؤيتي مُنهارة أو راكعة.. شعرتُ براحة لاختفائها من أمامي.

أعرف أنها ستعود.. وسيعودون.. فهم هناك في أماكنهم المُظلمة يتربصون وينتظرون.. كُنت بحاجة إلى التفكير، المُهلة تتقلص بأسرع مما أستطيع حياله أي شيء، لا يمكن إيقاف تدحرج الساعات والأيام.. هنا لا أستطيع أن أفكر، فرغماً عني عيناي تسمرتا على مكان سلوان الفارغ، أنتظر دخول جيفارا وهو يهُزّ ذيله بمرح..

هل فعلت الصواب؟ هل قتل إنسان بدافع عدم تعريضه للهوان، يختلف عن القتل لأسباب أخرى؟ رأيتهم جميعهم، الملك، والوصي، وجدّي، وجدتي، وأبي، وأمي، وكل الذين اختفوا... جلسوا حول الطاولة وراحوا يتجادلون حول السؤال الذي طرحته..

ما كانوا ينظرون إليّ. كأني لم أكن موجودة.. وقفت وقلت: مهما يكن قراركم، الأمر قد تمّ.. تركتهم وحملت بيدي فنجان القهوة وغادرت..

أغلقت الباب خلفي وجلست مقابل لوحة فيلاسكوز. التراب حوّل كل شيء في الصالة إلى لون أصفر فاتح، وأضفى على وجه الإله المُحارب في لوحة فيلاسكوز وضوحاً باهراً، حيث تجلّت تفاصيل الهزيمة النهائية، كما رآها الفنان في ذاك اليوم البعيد الذي رسمها فيها.. وقفت بلا تردد أتأمل «مارس»، إله الحرب الجميل، لكن الخائر القوى شبه المُستسلم الذي ينتظر الموت باستكانة لا تُلائم ما قرأناه وعرفناه عنه.. شُبه عارٍ، على رأسه خوذة الحرب التي تُلقي بظِلالها على وجهه فتُخفي معالمه، آخر ما تبقّى لهُ من مجد، ينظر في الفراغ وكأنه ينتظر قاتله، يدخل عليه وقد عقد العزم على عدم المُقاومة، على الإذعان لقرار مجمع الآلهة الذي تخلّى عنه. أدوات قتاله التي صاغت أسطورته الجبارة، مُلقاة على الأرض أمامه وفوقها درعه الشهيرة. لم يعد إله الحرب قادراً على الحرب..

أتأمل مصيبة «مارس» وأتذكر كلمات والدي التي كان يكررها كلما وقعنا في أزمة: «مَنْ رأى مصيبة غيره، هانت مصيبته عليه»..

صدى الأصوات يصل إليّ رغم الباب المغلق.. أعرف أنهم عادوا، أنهم يأتون فيحملون ما يمكن نهبه ثم يذهبون.. تتراءى لي مملوكة توزّع المغانم، فهي تعرف التفاصيل وقيمة كل قطعة في البيت.. أتساءل إلى متى ستحميني هيبتي عندها قبل أن تقتحم القاعة وتطردني، أو تسلّمني سبيّة إلى «المناضل»..

مجرّد الفكرة تجعلني أحسّ بأنني سأتقيّأ.. لا بدّ إذاً من الفرار.

لكن إلى أين.. بالتأكيد ليس إلى بيت بلقيس ولا إلى بيت رباب. لن أبدو، أو بالأحرى لا يمكنني أن أبدو، ضعيفة ومهزومة أمامهم! لا بد من المحافظة على بقية كرامتي، أنا التي رتبت مقتل سلوان حتى لا تُهان كرامته.

كهمس شبحٍ مُحب وسط ملكة الخراب.. خطرت على بالي ماري الطباخة.. فكرة جعلت دقات قلبي تتسارع.. ليس أمامي سوى بيت ماري! أجل.. فما زالَ مفتاح بيتها عندي، أحتفظ به هناك في صندوق صور العائلة الذي أودعته أمانة عندنا لحين عودة أحد أبنائها من المهجر.. تعرف أنهم لن يعودوا لكنها كانت تأمل في إبقاء الحكاية المسيحية حيّة في مهدها.. لكن يا ماري كلنا كنا نأمل أن يحدث هذا يوماً ما! أما اليوم، أي مجنون يُفكر بمُغادرة ملاذه الآمن والعودة إلى أرض الضِباع!

المفتاح كان في مكانه، فوق صور العائلة.. أمسكت به وضغطت عليه بقوة وكأني أفرك مصباحاً سحرياً عثرتُ عليه!

أراحتني فكرة اللجوء إلى بيت ماري الطباخة بعد مُغادرتي القصر الإجبارية.. لا أستطيع وقف مملوكة ولا الذين وراءها من مُسلحين ونهّابين.. كما لا أستطيع فهم الإصرار الداخلي الذي يعتصرني ويجبرني على البقاء في هذه المدينة، هل هو الفضول برؤية نهايه المدينة، هل هو التشفّي برؤية الدمار وهو يمحق الكُل، أو هو أملٌ واهمٌ باستعادة أمجاد الماضي؟ هل هو الجُبن من بدء حياة جديدة بعيداً عن كل هذا الرُكام، أم الخجل من المدن التي

كنتُ أدخل إليها مثل الأميرات والآن عليّ دخولها كلاجئة! ما الذي يربطني بمدينة لم تعد تعترف بغار المجد الذي سلمتني إياه عبر سبعة أجيال؟

خرجت من الصالة وأنا مُصممة على تنفيذ الفكرة التي هبطت عليّ في قمة يأسي وإحباطي.. اتجهت نحو بوابة القصر.. في العادة كان جيفارا يلحق بي حتى آمره بالعودة..

أشعر بأني مُراقبة من قبل عيون لا أعرف أين هي، وعليّ ألّا أظهر أيّ شيء يوحي بالضعف، أخرج بخطىً ثابتة لأني أعرف أن مملوكة تراقبني من أحد الشبابيك لترى مشيتي المتعثّرة من الخوف! لن أترك لها صورة انتصارها تلك.. سأترك لها حيرتها ودهشتها.. بل وخوفها مني.. عليهم اللعنة جميعاً.

مُنذ أن وصلتني الطلقة النارية ذات الحز الأحمر في الظرف العادي وأنا لم أغادر القصر، يبدو كل ذلك وكأنه زمن بعيد جداً.. أول ما شدّ انتباهي بعد أن أصبحت في الشارع، هو حركة الناس السريعة وغير المُنتظمة.. مُشاة يعبرون الشوارع ولا يبالون بسرعة السيارات المجنونة التي تطلق صوت مُنبهاتها الجهنمية في جميع الاتجاهات كلعنات تُصبّ على رؤوس البشر، أصواتهم عالية، يتبادلون كلمات تحمل في طياتها كل تفاصيل القسوة والخشونة، في معظم كلماتهم سباب وإيحاءات جنسية رخيصة مُهمتها تفريغ اللغة من عمقها الإنساني النبيل، كلمات تتساقط من أفواههم كما الخشب والحجارة، ثقيلة، لا تُحتمل، ترفع في وجهي قُفاز

التحدي الذي لم أعد أملك في مواجهته سوى الاحتقار. يسيرون بسرعة وهوج لأنهم يُريدون العودة إلى بيوتهم بأسرع وقت ممكن، فهنا لا يضمن أحد حياته في شوارع الموت التي باتت ملعباً للقتل الذي تمارسه عصابات مُسلحة تتحكم في كل مفاصل حياة البلد وتتصارع على مغانم السلطة..

تذكرت أشجار الكالبتوس التي كانت على جانبَيْ الطريق، أين اختفت ومن الذي قطعها! عدد من الأطفال يسيرون وسط التُراب، ويعرضون في الشارع بضائعهم التي وضعوها على صناديق كرتونية يسهل الهرب بها إن حدث تفجير أو اشتباك بين العصابات المُسلّحة.. قمصان صينية، أمواس حلاقة، سجائر، صابون، أمشاط، نظارات شمسية، محارم ورقية.. أحدهم كان يكوّم أمامه حفنة من الرصاص، نظر نحوي عندما مررت من أمامه وابتسم لي بلطف لا يلائم بضاعة الموت التي يُروّج لها!

السيارات تتحرك بفوضى تدل على عدم وجود قانون للسير العام، كُل شيء، قيادة المركبات أصبحت مُرتبطة بالحالة المزاجية لسائقها، لكنهم جميعاً متفقون على إطلاق أبواق المُنبّهات في حالة من العدائية تعكس اليأس العام المُسيطرة على الجميع.. الشوارع مُزدحمة بالبشر، معظمهم رجال وأطفال وصبيان، أما النساء فمعظمهنّ ملتفات بالسواد يحتمين به من نظرات التهديد بالاغتصاب إن ظهرت منهنّ زندٌ أو رجل، والويل لمن تتجرّأ على السير وحيدة في الشارع!

أسير مسرعة لأحتمي من النظرات.. لا بد لكي أصل إلى هناك من عبور الشارع المُزدحم بالغرباء.. بيت ماري يبعد عن القصر مسافة عشرين دقيقة سيراً على الأقدام، تذكرت البئر المزروعة على حوافها النباتات الجميلة، وأشجار الرمان والبرتقال والليمون الذي لا تأكل منه ريجينّة. تذكرت النخلة الشامخة في أقصى الحديقة الصغيرة.. استعدتُ ذكرى جلساتي الخَفيّة مع صديقتي العاهرة، لي هناك أيضاً ذكريات تحميني من كل هذا العبث الهادر الذي سيطر على المدينة المُستباحة.. لا أحد سيُفكر بطردي من بيت ماري الطباخة، لم يعدْ أحد من أبنائها وإلا كُنت أول من يعلم فها هو المفتاح في جيبي. أداعب أمنية شريرة أتمنى فيها ألّا يعود أحد منهم.. على الأقل في هذا الوقت!

أقترب من بيتها وأنا ممتنة للتراب العابق في الجو لأنه يمنحني حاجزاً يَفصلني عن الجميع ويسترني عن عيونهم الفضولية التي تحاول أن تخترق حاجز التُراب والتحديق بي لاقتلاع ما تبقى من طمأنينتي.. مرة أخرى أشعر بغربة حادة لها مذاق حاذق.

بدأ طيف بيت ماري يلوح لي شيئاً فشيئاً، فرحتُ لرؤية بوابته الحديد الضيقة المصبوغة باللون الأخضر.. سأكتفي بالضروري وأغلق هذا الباب عليّ إلى الأبد.. حتى أخواتي لن أخبرهنّ بهذا.. سيسألونني عن قبر سلوان، ماذا يُمكن أن أقول لهم: لا أعرف!.. لا أريد أن أعرف!.. من أنتم لتسألوني؟

مددت يدي نحو جيبي وضغطت على المفتاح، كانت يدي

مُتعرّقة من شدة الانفعال، هذا شأني عندما أتخذ قراراً كبيراً.. لم أتوقع أن يكون بيت ماري هو خلاصي، وملاذي، وجنتي الموعودة. هناك حيث ذكرياتي لا تزال منثورة في زواياه، حيث فرقعت ضحكاتي حتى الدموع مع ريجينّة التي أعترف الآن بأنها كانت الأقرب إلى قلبي، أو ربما إلى نفسي، من كل الأصدقاء الذين عرفتهم في حياتي. ريجينّة التي وصلت بيني وبين الأب فريدون، عشقي الوحيد.

بيت ماري الذي يُذكّرني بزمن لم يكن يشغل بالي فيه سوى الانغماس في المتع المُتاحة، زمن كانت لا تزال فيه أمي على قيد الحياة وتنتظر عودتي إلى القصر وفي عيونها الأسئلة المُريبة التي لم يكن يُجيد صياغتها بمتانة سواها. تصوغها بذكاء كأميرة بغدادية حقيقية، زمن كانت فيه مملوكة غير ذلك المسخ الذي تركته خلفي في القصر..

على بعد أمتار قليلة، وقبل الدخول إلى الجنة الموعودة والارتماء في حضن الخلاص، استوقفتني امرأة مُتلفّعة بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها وجرّتني لتمنعني من التوجه نحو البوابة الخضراء. لم أشعر بالخوف بل بالدهشة من هذا التصرف، لكن عندما نادتني بلقب «الخاتون» وكشفت عن وجهها عرفتها على الفور.. إنها حَنّة قريبة ريجينّة.. ابتسمت، فأنا أعرفها على غير ما فاجأتني بتلك الملابس.

حَنّة التي كانت فتاة تتفجر شباباً وجمالاً، حتى إني كنت أغار

منها بملابسها التي كانت دائماً على إيقاع آخر صرعات الموضة، وكانت معظم البنات يحسدنها على الحرية التي تتمتع بها من أهلها ومحيطها، بقدر ما يحسدنها على جمالها. الصورة مُغايرة تماماً الآن. لقد غطت وجهها وجسدها بالسواد الكالح الذي لم يُبقِ من جمالها سوى أثر خفيف من خلاله تعرفت عليها.

لم تترك لي حنّة فرصة لأسألها عن أي شيء، بل جرتني بفظاظة كدت أعترض عليها لولا رغبتي بمعرفة آخر أخبار ريجينّة، وإن كانت قد حققت أمنيتها بتسلق برج إيفل واحتساء شيئ من العرق هناك والتمتع من ذاك العلو الشاهق بمنظر المدينة الساحرة: باريس.

ـ «إلى أين أنتِ ذاهبة؟»، سألتني.

ـ «إلى بيت ماري!».

أشرتُ إليها بالمفتاح الذي كنت أخرجته من جيبي وأقبض عليه بيدي.. لكنها لم تتوقف بل استمرّت تجرّني، وقالت بسرعة وبأنفاس لاهثة من شدة الانفعال:

ـ انه مكان خطر لا تذهبي إليه.

كُنت أعرف أن بيتها في نفس العمارة التي كانت ريجينّة تسكن فيها. تركت يدي وطلبت مني أن أتبعها لتشرح لي كل شيء.. تبعتها بانقياد وتوجّس.. انسلّت بسرعة من خلال بوابة العمارة التي كان يفترش مدخلها رجل كهل يبيع علب السكائر وأشياء

أخرى لم أنتبه إليها.. تسلّقت سُلم العمارة خلفها وأنا مُستسلمة لها وألمٌ حادٌ صار يلمع في رأسي لخوفي من أن يكون بيت ماري غير آمن!! فإلى أين سأهرب؟

ما إن فتحت باب الشُقة واطمأنت إلى إغلاق الباب جيداً حتى بادرت إلى رمي عباءتها السوداء على الأرض. كنت أقف في وسط غرفة معيشتها التي كانت مكدّسة بالحقائب الملأى وأخرى لا تزال مفتوحة تنتظر أن تُحشى بأغراض شتى.. نظرت إليها مُستفهمة. أدارت رأسها في جميع الاتجاهات على عادة ريجينّة قبل أن تبوح بسر ما، ثم لوّحت بذراعيها بحركات غير مفهومة وقالت بحزن يقف على حد البكاء: «إننا نستعد للمُغادرة!». لم أسألها عن الأسباب فهذا سؤالٌ لا معنى له. لقد لفتتني صيغة الجمع في الضمير «إننا»، فسألت: «من أنتم؟»..

قالت: «أنا وإبني توما.. لقد غادر أغلب المسيحيين هذا الحي الذي استولت عليه العصابات المُسلحة ولم يعد لنا مكان فيه»..

ـ « إلى أين؟»..

ـ«إلى السويد.. اليوم ذهب توما إلى المنطقة الخضراء للحصول على التأشيرات اللازمة للهجرة».. سألتها مرة أخرى وأنا أتحسّس الجزع الذي بدأ يتسلل إليّ من هذه المفاجأة:

ـ « متى تسافران؟».

فتحت عينيها بدهشة، لعل غباء أسئلتي قد فاجأها.. قالت وهي تُشير إلى كل الأغراض والحقائب المُنتشرة على الأرض:

«بأسرع وقت مُمكن.. غداً ربما، إن سارت الأمور على ما يرام»..

رسمت علامة الصليب على وجهها المُرتعبْ وقالت برجاء وكأنها تُحدّث نفسها:

«أدعو الرب أن يعيد ابني سالماً. هذه المدينة أصبحت مثل الغول، تبتلع أبنائها»، وأعادت رسم الصليب ثلاث مرات متتالية هذه المرة ثم نظرت بتضرع يمتزج بالخوف إلى صورة السيدة العذراء المُعلّقة على الحائط.. نظرت نحوي ثانية وكأنها تذكّرت شيئاً منسياً..

«لماذا كنت تذهبين إلى بيت العجوز ماري؟»..

سألتني وهي تُنزل إحدى الحقائب الثقيلة عن الأريكة وتدعوني للجلوس. لكني بقيت واقفة وقلت:

«تعرفين أن ماري طلبت مني الاعتناء ببيتها، وقد مضى عليّ بعض الوقت لم آتِ لألقي نظرة وأهتم ببعض مزروعاتها التي قد تكون لم تمت بعد، خاصة وأني منذ سقوط المدينة صارت حركتي صعبة، ولم أستطع المجيء».

نظرت إليّ نظرة كمن يقيسني من أعلى إلى أدنى، وبالعكس.. كان في نظرتها نوع من الاستخفاف، وقالت بنبرة من يحدث طفلاً أو شخصاً أبله:

« ألا تدرين ماذا يحصل في بغداد؟ ألا تعرفين أن العصابات المسلحة صادرت كل بيوت المسيحيين التي هجرها سكانها،

وهي تهدّد كل يوم البقية الباقية منهم حتى تجبرهم على الرحيل وتستولي على بيوتهم.

ألا تعرفين أن بيت ماري قد تحول إلى مركز لإحدى العصابات المُسلحة؟..».

«متى حدث هذا؟»..

ضحكت بمرارة وأجابت ساخرة:

«يبدو أنك لست من هذا الحي.. لقد بدأ الأمر فور سقوط بغداد! في البداية كانوا يأتون فقط في الليل مُستترين بالظلام، لكن بعد فترة وجيزة استولوا عليه وعلى كل الدور الفارغة من أهلها، في البداية جاؤوا بحجة اجتثاث البعث. ثم تبعهم آخرون وآخرون»..

أخفضت صوتها وقرّبت فمها من أذني خوفاً من أن يكون أحداً يسترق السمع، وقالت:

« الكلُ يعلم بأنهم حولوه إلى مركزٍ لهم، أو بالأحرى إلى وكر. يأتون إليه بالفتيات والفتيان المخطوفين من أهاليهم الأثرياء، يبقون فيه لفترة مُحددة، بعدها إما يطلقونهم مقابل فدية، أو تتم تصفيتهم وإخفاء أجسادهم. في الليالي نسمع أصوات استغاثة الفتيات اللواتي يتم اغتصابهن! لماذا تعتقدين أنني أرتدي هذه الملابس الكريهة والعباءة الجرباء؟ أفعل ذلك حتى لا يطمع بي أحدهم ويسحبني إلى وكر الموت هذا!».

أذهلتني هذه الأخبار.. أين كنت منها؟ لماذا لم أعرف شيئاً عن

الذي يحصل بالقرب مني.. مملوكة لم تعد تنقل إليّ هذه الأخبار لأنها جزء من منظومة الخراب التي استولت على المدينة. إذن القصر، وأنا، جزء مما شُرّع نهبه!

قلت وأنا أكاد أحدث نفسي:

«هل تحول بيت ماري الجميل إلى مأوى لهؤلاء القتلة؟ هل هذا معقول!!»..

انتفضت حَنّة بعصبية وغضب ووقفت أمامي قائلة:

« لقد رأيتهم بعينيَّ ولم ينقل لي ذلك أحد.. كنت أزور قريبة لنا سافرت إلى السويد، عندما مررت بالقرب من بيت ماري. لاحظت وقوف سيارة من نوع غريب لم أرَ لها من قبل مثيلاً. في ما بعد صار الجميع يعرف اسمها: الهامر.. كانت سيارة بلا أرقام.. تصوري سيارة تسير في شوارع بغداد بلا أرقام! نزل منها شابان مُسلحان ملثمان ينظران حولهما بعدائية أجبرت كل المارة على خفض رؤوسهم وعدم الاقتراب منهم، إلى أن أعطى أحدهم إشارة بيده، فنزل منها شخص آخر مُسلح يسحب بيده اليسرى فتاة في منتصف العشرينات على ما قَدَّرت..

تعثّرت المسكينة قليلاً قبل أن تضع قدميها على الأرض بثبات، فهذه السيارة اللعينة مرتفعة وليست مثل السيارات العادية، فانكشف ذيل ثوبها وبان جزء من سيقانها وهي، كأنها كانت تعرف مصيرها، لم تكلّف نفسها بتغطيتها أو سحب ثوبها نحو الأسفل.. كانت شُبه مُغيَّبة.. الحقير الذي سحبها من يدها، دفعها بقوة نحو الباب الذي

فتحه أحدهم.. شلّني مشهد الفتاة المغلوبة على أمرها.. سالت دموعنا، أنا وقريبتي التي كنت أودعها، فنحن نعرف أي مصير ينتظر هذه المسكينة، لا تتصوري يا خاتون ما حدث بعدها، في لحظة خاطفة التفتت الفتاة نحونا، نحن اللواتي كنا ننوء تحت عبء رعبنا، تلاقت عيوني بعيونها.. يا مسيح.. يا عذراء!، لن أنسى هذه النظرة طوال حياتي، صدقيني المشهد كان مؤلماً أكثر مما يُحتمل، لكن الآن لم أعد أشعر بالحزن.. الحزن ترفٌ لم أعد أجد له وقتاً.. لم يبق من المشهد في خيالي سوى ظهرها الذي توارى خلف الباب وثلاثة مُسلحين يتبعونها، وهي مستسلمة وقد كفّت عن المقاومة..».

وضعت يدها على صدرها وكأنها تضغط لتهدّىء نبضات قلبها. فكرت أن أضمّها لكني لم أستطع أن أتحرّك.. المفاجأة أذهلتني.. بيت ماري لن يكون ملجأً لي! ماذا سأفعل؟

بقيت أنظر إليها وأنتظر أن تكتمل الحكاية التي أعرف نهايتها، مع إحساس بشيء بارد يسري في عروقي بسرعة ضوئية، إحساسٌ بالضعف والعجز أمام الكارثة! يا إلهي وأنا التي كُنت ذاهبة بقدمي إلى وكر القتلة.. أي مدينة هذه، كيف امتلأت بهذا القدر من البشاعة والقسوة؟

غابت حنّة قليلاً لتعود بعدها بقدح من الماء وفنجان قهوة وضعتهما أمامي وهي تنظر نحوي بشفقة آلمتني كثيراً، فلا بد أن مظهري الخارجي كان يُرثى له مما جعلني أستحق شفقتها!

« أشربي قليلاً من الماء».

وضعت يدها على يدي التي كانت لا تزال ممسكة بمفتاح بيت ماري.. وقالت بصوت حنون وقد بدأت تُدرك مأزقي:

«لقد أصبحت المدينة طوع الضِباع والقتلة، ما الذي يُبقيكِ إلى حد الآن فيها؟ لقد كُنت أعتقد بأنكِ قد غادرت البلد كحال الكثيرين من الأثرياء»..

نظرت نحوها ولم أستطع الإجابة عن سؤالها، الكلمات كالأشواك في فمي..

«لقد ساعدتِ ريجينّة على السفر، لماذا لم تذهبي أنتِ؟»..

ذكّرني ذكر اسم صديقتي بشيء من ألق الحياة الماضية، ارتشفت بعض الماء وسألتها عن ريجينّة.. «إنها بخير.. لقد اتصلت بي مُنذ حوالى الشهر وسألتني عنك كالعادة، فقلت لها إنكِ سافرتِ.. لم أكن أعرف، بل لم أكن أتصوّر، أنكِ لا تزالين هنا.. التقيت مرة بخادمتكم مملوكة، وسألتها عنكِ فأخبرتني بأنكم جميعاً قد هاجرتم!»..

هذه الأفعى كانت تُخطط لعملية إخفائنا مُنذ زمن بعيد إذاً، وليس مُنذ وصول الطلقة التهديد.. لمّا طال صمتي، خفضت حنّة صوتها وقالت بخبث امرأة:

«هو لا يزال في العراق..!»..

نظرت إليها وأنا أعرف تماماً من الذي تعنيه، وعلى ما يبدو أن السؤال ارتسم في عينيّ بطريقة غبية أضحكتها، وقالت:

«لقد غادر إلى سهل نينوى. بعد إعدام الرئيس السابق أصبحنا كمسيحيين صيداً سهلاً لكل من هبّ ودبّ من رُعاع المُتطرفين.. على الرغم من أني لا أفهم لماذا ذهب نحو الشمال، فحسب معلوماتي لم يبقَ الكثير من المسيحيين هناك أيضاً.. فقط بعض العجائز وعدد قليل من غير القادرين على الهجرة، فنحن في طريقنا إلى التلاشي والانقراض كما الديناصورات، وكأننا لم نعش فوق هذه الأرض أكثر من ألفي عام.. ها نحن نصبح أثراً بعد عين كما يقولون في الأمثال.. هكذا هي الدنيا.. غدّارة!»..

أعاد إليّ خبر بقائه في العراق بعض الشعور بالأمان.. هكذا عرفته وهكذا سيبقى، نبيلاً.. آه مني، الحمقاء، لا أزال أحبه وغير قادرة على تخيل رجل آخر في حياتي غيره..

أعادت لي القهوة العربية القوية شيئاً من التركيز الذي افتقدت إليه، وقبلت السيجارة التي قدمتها إليَّ حنة.. كنت ساهمة صامتة. وفي وضع كالذي نحن فيه، أنا وحنّة، نحتاج إلى الكلام لنهدّئ قلقنا.

راحت حنة تسرد لي ما حصل للمسيحيين، وللكثير من المسلمين أيضاً، في حي البتاوين. سمعت أشياء ما كنت لأتصوّرها عن أناس أعرفهم، بعضهم كنت معهم في الجامعة.. وعن أشخاص كنت أكنّ لهم بعض الاحترام تحوّلوا إلى زعماء عصابات تقتل وتنهب...

من جهتي أخبرتها بما حصل معي، وبأنني هاربة جئت على أمل

الاختباء في بيت ماري.. أخبرتها بكل شيء..كان الكلام وسيلتنا للتخفيف من حجم الألم.. مرة أخرى تذكرت عبارة أبي «من رأى مصيبة غيره...».

عبّرت كل واحدة منا عن تعاطفها مع الأخرى.. قالت كلمات خفّفت عني الغضب من قذارة الخيانة التي مورست عليّ من أقرب الناس.

«لا تعودي إلى الدار.. لن أدعك تفعلين ذلك.. سيقتلونك ويدفنوكِ في الحديقة الكبيرة.. إنهم نوع من البشر لا يردعهم إيّ وازع أخلاقي! انظري إلينا كل جريمتنا أننا ولدنا مسيحيين، فأصبحنا نهباً لكل من تطاوعه نفسه على اقتراف الجريمة.. ستبقين معي هنا إلى أن نتدبر حلاً..».

أمسكت يدها وأنا أشعر بامتنان حقيقي، فأنا لم تكن لدي رغبة في العودة إلى القصر، وأظن أني لا أستطيع.. لكني لم أكن أريد أن أشكّل أي عبء عليها أو على سواها. فقلت بتردد:

«كلا لا أستطيع أن أحمّلكِ هذا العبء، أشكرك جداً..».

أمسكت بيدي وضغطت عليها بقوة، نظرت في عينيّ وقالت بما يشبه التعنيف:

« ألا تُدركين الخطر المُحدق بكِ.. لن يكتفوا بأخذ القصر منك، سيقتلونك أو يجبرونك على الزواج من هذا الحمار الذي تجرّأ عليكِ. في كل الأحوال، وفي مثل هذه الساعة لا تستطيعين العودة..

في هذه الأثناء سمعنا طرقاً قوياً على الباب.

سرعان ما تغيرت سحنتانا فالطرق على الباب غير مأمون العواقب هذه الأيام. لكنه كان ابنها توما. صرخت أمه في وجهه وهي تعنّفه لأنه طرق الباب بهذه الطريقة. لكنه ضحك وراح يلوّح بأوراق السفر وعلى شفتيه ابتسامة النصر.. لم تبادله حنّة فرحته. نظرت نحوي نظرة محمّلة بالمعاني، فهي لم تكن تتمنى أن تُنهي مسيرة ألفي عام من تارخها في أرض الرافدين، هاربةً من دون أن ترتكب أيّ ذنب..

الجحيم

(هيرونوموس بوش)

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

زخّات من الرصاص قطعت سكينة الفجر، ثم راحت الرشقات تتحوّل إلى إطلاقٍ متواصل مع مشاركة أنواع أخرى من الأسلحة. لم يكن غريباً أن يحدث هذا في المدينة المُستباحة، لكن ليس بهذه الكثافة ولا بنوعية الأسلحة. هذا العنف لم يحدث بعد أن تمّ احتلال المدينة، فحينها سكتَ كل الرصاص!

قفزت من الفراش في حالة من الهلع أتساءل.. أين أنا؟

فجأة رأيت حَنّة تقف أمامي ووجهها يحمل نفس علامات الهلع التي على وجهي.. الهلع يمنع الكلام، إما أن تصمت أو تصرخ! اخترنا الصمت، ننظر إلى بعضنا من دون أن نلقي حتى تحية الصباح. ماذا نقول! صباح الخير؟ اكتفينا بتبادل نظرات الاستفهام، غارت الكلمات وسط النار المُشتعلة في الخارج والتي يُمكن في أي وقت أن تمتد إلى هنا.. في غرفة نوم حَنّة!

كانت أذرعنا تتحرّك وحدها مع كل زخة رصاص أو انفجار، وعيوننا ترسم علامات الاستفهام في الهواء، وفي وجهينا الرعب، وفي رأسينا العصابات المُسلحة وخطف النساء والمال المنهوب الذي أسال لُعاب هذه الحيوانات المُتعاركة!

نتحرّك قليلاً، نختلس النظر إلى باب الشقّة الذي نتوقع اقتحامه في أي لحظة ليندفع من ورائه مسلحون مُلثَّمون يطلقون النار في جميع الاتجاهات.. لا أدري لماذا هم دائماً ملثمون، فكرت بسخف اللثام الذي يلجأ إليه المسلحون في هذه المدينة، بالتأكيد هم لا يخشون أحداً ولا يخافون ضحاياهم! ربما يضعونه لأنه يُلقي المزيد من الرعب في رَوْعنا، نحن المنهوبين والمغتصَبين، أم إنها من تقاليد القتلة في كل زمان ومكان، تقاليد قائمة على الغدر! إنها الستار الأخير للجبناء الذين يستلذّون بالقتل من وراء اللثام حارمين ضحاياهم من آخر أمانيهم.. أن يتعرفوا على هوية قاتليهم!

انتظرنا أن تهدأ أصوات القذائف والرصاص المُنهمر من كل الاتجاهات تراودنا رغبة بلهاء في التعوّد عليه! لكن يبدو أن الموقف أكثر تعقيداً مما تصورنا عندما بدأنا نُميّز صوت العجلات العسكرية وسيارات الهامر ذات الصوت المُنفّر وهي تنطلق بِسُرعة شيطانية تلائم وقع خطوات الموت الذي يحصد الأرواح في هذه المدينة بمتعة، ولأتفه سبب!

هنا لا تكون المُطاردات بين «الخير والشر»، بين الشرطي واللص، فهذه المدينة يحكمها فقط صفوف من اللصوص ومن خلفهم صفوف أخرى من المُنتظرين. مُنذ الاحتلال والمدينة تُسرق جهاراً نهاراً أمام أعيننا، كل منا أخذ دوره ما بين سارق ومُساهم ومُتفرج، بين مُصفّق وناحب، بين مذهول وخائف.. لم

يجرؤ أحد على الوقوف في وجه هذه الفاجعة.. أخذ الاحتلال الأمريكي العصا من الاحتلال التركي الساكن في الذاكرة البعيدة في لعبة تاريخية نحن ضحاياها لأننا ضعفاء.. نصّبوا علينا مَنْ يتقاسم معهم نهبنا وصمتنا.. زرعوا الإرهاب ووصفونا، جميعاً، بالإرهابيين!!

وقع انفجار قريب هز أركان العمارة التي يُشكل أغلب سكانها بقايا حضارات وأديان وادي الرافدين.. اقتربت حَنّة منّي وعلى وجهها خوف ورغبة في النواح على شيء لا تعرفه.. نعرف جيداً أن باب الشُقة لن يصمد كثيراً أمام كل هذه الانفجارات الهوجاء التي تعصف به، وإن صمد فإنه سينهار تحت وقع الأقدام الهمجية، وستبرز رؤوس الأسلحة الفتّاكة المُصوَّبة نحونا مصحوبةً بصراخ حيواني ينطلق من أفواه مُلثّمة، وكلمات ما بين عربية فجة وأمريكية أكثر فجاجة.. ما الذي يحدث في هذه المدينة التي لم تتوقف عن إلقاء حُممها الأبابيلية فوق رؤوسنا! اقتربت مني أكثر وأمسكت بيدي الباردة كالثلج، فأشعرني هذا ببعض الارتياح، حَنّة تبدو أكثر تماسكاً مني، فهي مرّت بهذه التجربة من قبل.. أجلستني على حافة الفراش، واقتربت هي بحذر من الشباك الذي يطل على الشارع.. أرعبتني فكرة إصابتها بعيار ناري طائش، فصرخت بها أن تبتعد عن الشباك.. الكلمات التحذيرية من فمي، كَسرت حاجز الخوف وألقت على جو الغرفة البارد شيئاً من دفء إنساني..

نظرت نحوي وعلى وجهها ما يشبه البسمة:

«أحاول أن ألقي نظرة لأعرف ما يجري في الشوارع تحت!».

«كلاب مسعورة تنهش بعضها البعض.. ماذا تتوقعين؟».

«لعلهم الأمريكان وهم يُطاردون المُقاومين!».

«هُنا في البتاوين!».

«إنهم في كل مكان».

«في هذه المدينة لا يوجد مقاومون، الخائفون فقط...».

رجوتها أن تبتعد عن النافذة وتأتي إلى جواري.. جلست بجانبي واحتضنتني فشعرت بنوع من الطمأنينة واللذة والأمل. لكن الطمأنينة تمزقت بعنف زخّة الرصاص الذي اقتحم الغرفة من النافذة التي كانت حَنّة تقف خلفها.. رصاص اندفع عميقاً في خوفنا ونقله إلى حالة من الهستيريا.. رسم على حائط الغرفة المقابل للسرير الذي نجلس عليه متلاصقتين شبه قوس من أربعة ثقوب..

سحبتني بعنف وانبطحنا على الأرض، وجهي ملتصق بالسجادة الشرقية الرخيصة، فشممت رائحة التراب وتذكرت سلوان.. توالت زَخات الرصاص المُنفلت مخترقاً كل حوائط ونوافذ العمارة مُذكراً إيانا برعونة الموت العبثي القابض على خناق هذه المدينة، تاركاً وراءه في كل مرة نفس الرائحة وصور عديدة لسلوان تبدأ مُنذ الولادة حتى الممات وهي تزداد وضوحاً، حتى بدا لي وكأنه المصلوب بدل السيد المسيح في الأيقونة المُعلّقة

على الجدار .. عصف الرصاص عبثَ بالستائر البالية المُعلقة، والثقوب التي أحدثها فيها بعثت رائحة الحرائق التي بتنا نعرفها جيداً منذ سقوط صنم ساحة الفردوس بعد أن تم تحريرنا، ثم ها هي رائحة الحرائق يبعثها الذين يريدون تحريرنا مرة ثانية! رائحة ممزوجة برغبات بربرية للإبادة والتلذذ بالقتل.. أزيز يصم الآذان ولّدَ لديّ الرغبة في الانسحاق التام بالأرض التي أنبطح عليها، بأن أتحوّل إلى نقش بلا معنى على سجادة شرقية رخيصة مهلهلة. أن أنشدَ الموت السريع، بلا عذاب، بلا عواء، من دون أن أرى عيون مُطلقي الرصاص.. ما جدوى الإصرار على العيش وسط جموع راغبة في العيش بلا هدف.. ينساقون بسعادة بلهاء نحو الموت..

حَنّة لم تطق البقاء طويلاً ممددة على الأرض، فهناك أمرٌ آخر يُقلقها.. توما، ابنها الذي لم تسمع منه أي صوت! هبت واقفة بسرعة خاطفة واتجهت بلا أي مبالاة نحو باب الشقة، فتحت الباب وخرجت مُندفعة صوب الشقة المجاورة التي تسكن فيها قريبتها والتي كان بابها مشرعاً أيضاً..

غابت لفترة وأنا لا أزال مُنبطحة على السجادة أشم رائحة التراب والقذارة.. لم أكن خائفة فهنا أقصى ما يمكن أن يحدث هو الموت برصاصة طائشة، وهذا لا يخيفني، بل أرى فيه حلّاً لدوامات الأسئلة الوجودية التي تفتك بي.. لا أشعر بأي رغبة في النهوض، لا أشعر بالجوع، ليس عندي أي رغبات.. أراحني الشعور بالتحوّل إلى كومة من اللحم المُبتذل الذي يجد سعادته القصوى بالالتصاق بالقذارة

والذوبان التام بها.. لم يعد يصلني سوى صراخ حَنّة التي ترشقُ بجملها السريعة باللغة السريانية التي لا أتقنها.. وأنا أشعر بالأمان مع حَنّة، أرتاح معها أكثر مما في القصر.

سوريالية وغرابة الوضع الذي حُشرنا فيه، استحضرت إلى ذهني لوحة الرسام الهولندي (هيرونوموس بوش) تلك اللوحة التي صوَّر فيها الجحيم، ومع ذلك سمّاها «حديقة المُتع»..! والتي ربما لا تزال مُعلقة على جدران الصمت في الصالة الكبرى في القصر ولم تُنهب بعد!

لقد صوّرَ في تلك اللوحة الفوضى التي توعد بها الرب عِباده العُصاة.. الجحيم الذي لا يُطاق، ذاك الذي لم يستطع أن يصوره بكل هذا البهاء العبقري سوى ذلك الهولنديّ المهووس الذي سخّر حياته وموهبته الخارقة لرصد تفاصيل الجحيم التي كان يراها في أحلامه وعاش معها إلى آخر أيامه، حتى أودت به إلى الجنون! المخلوقات المُعذَّبة، البشر المحترقون، أدوات الجحيم وحرّاسه الغلاظ وصُراخ المُعذبين الذي لا ينتهي.. كل ذلك رسمه بألوان جذابة كأنه كان يُريد الاختباء خلف الألوان ليُداري خوفه الفظيع.. ألوان تُغري بالارتماء في الجحيم، في وسط كل هذا العذاب! في النهاية لم يعد يرى على الأرض سوى مخلوقات تسعى لتصير وقوداً لنار عظيمة بشّرت بها كل الأديان.. جهنّم تحوّلت في أعماله إلى غاية تضاءلَ الإيمان خلف بواباتها العملاقة الرهيبة التي لن ينجو منها أحد..

تَذكُّر اللوحة المُعلقة هناك على جدران القصر بكل تفاصيلها الدقيقة التي أعرفها جيداً، أعاد إليّ بعض الوعي بهويتي التي بدأت بالتلاشي رغماً عني.. من أنا، ولماذا أنا هنا؟..

لقد أنساني مهرجان الموت في شوارع المدينة كُل شيء، حتى صرت أرى أن وجودي هنا في بيت حَنّة هو الشيء الطبيعي، وأن القصر وتاريخ العائلة الذي أحمله فوق كتفيَّ هي أشياء وهمية.. تخص شخصاً غريباً لا أعرفه!

أصابني التماهي مع القذارة بالخدر اللذيذ، حتى إن عودة حَنّة إلى شقتها أشعرني ببعض الانزعاج خصوصاً أن كلامها المليء باللعنات الثقيلة عاد إلى استخدام اللغة العربية وإن كانت تنطقها بلكنة سريانية شيّقة.. نظرَتْ نحوي بدهشة ممزوجة بالسخرية، لقد اعتقدت أني ما أزال نائمة على الأرض لأني خائفة، لم تُدرك البعد الآخر الذي ألهمني تأمّل جحيم هيرونوموس بوش وقذارة السجادة الشرقية..

ـ «لقد خرج توما مع ابن خالته لمعرفة سرّ الجنون الذي استبدّ بالحي».

رسمَت على صدرها علامة الصليب ثلاث مرات خاطفة وهي تختلس النظر إلى صورة السيد المسيح المُعلّقة على الجدار والتي نجت من رشق الرصاص، كأنها تطلب المغفرة عن خطاياها التي لم تبح بها بعد، لكي يحمي الرب ابنها الذي تصرّف برعونة غير مفهومة وخرج إلى الشارع المليء بالخطر والموت.

فكرت وأنا أنهض وأنفض الغبار عن فستاني وأستعيد هويتي (غصن البان آخر طلاسم هذه المدينة).. ماذا عساه يكون السبب في كل هذا الرصاص المنهمر من كل الجهات، هل هي عصابات تنهش بعضها البعض.. أم هيَ كما قالت حَنّة مواجهة بين المقاومين والمُحتلين! لكني لم أشأ الدخول في حديث معها حول هذا الموضوع الذي لا أجد معنى للخوض فيه، وفي النهاية لا نعرف أي شيء كما العادة!

استمر التراشق بين الأطراف الشبحيّة المُتقاتلة وإن بحدّة أقل طوال النهار وفترة الظهيرة، كان يُمكن التنبؤ بنهايتها، فصوت الرصاص بدأ بالتراجع لكنه لم يسكت فنشعر بأن الرغبة بالقتل لا تزال عالقة في الجو ولها رائحة عفنة.. الصمت الطويل جعلنا نقوم بأشياء لا معنى لها، البقاء فترات طويلة في الحمام، احتساء القهوة رغم عدم التلذذ بها، تبادل الابتسامات الخائبة، التحديق بالفراغ، فقدان القدرة على التفكير بالغد... إلى آخر قائمة البلادة.

توما ومن معه من شباب العمارة، أخرجوا أسلحتهم الخفيفة المُضحكة ووقفوا خلف بوابة العمارة على أمل حراستها من اعتداء الغرباء، فمصادمات كهذه تُولد بعدها موجات أصغر من عمليات السرقة. هناك دائماً من هو مُستعد لسرقة جاره في هذه المدينة، والكل يعرفون أن هذه العمارة يسكنها بقايا أقوام وادي الرافدين، فهي إذاً بلغة الغوغاء.. هدف سهل، بل ربما مشروع!

بين والحين والآخر كان توما يصعد إلينا وعلى شفتيه اليافعتين

ابتسامة انفعال، كمن يعيش مُغامرة في فلم أمريكي عنيف ويتماهى مع شخصيات وأبطال هوليوود المُزيَّفين.. في عينيه نظرة رضا وحنان، لا يستطيع أن يكتم فرحه بالهجرة غير مبالٍ ببقاء السلالة التي مضى على وجودها أكثر من ألفي عام، أو بالتاريخ الذي سيتركه وراءه، كل شيء وصل إلى حدود التلاشي وهو لا يُريد أن يتلاشي.. مثله مثل أبناء جارتهم ماري الذين هاجروا من قبله تاركين أمهم تنسحبُ بحزن نحو السهل العريق، مُفضلة الموت بين عظام أسلافها، وتركوا بيتهم للمجرمين الذين حوّلوه إلى وكر يسترُ قذارتهم، لم يعد بيت «ماري ويونس» يعني لهم شيئاً، يعتقدون بأنهم ضمنوا المستقبل.. أو يأملون!

أخشى عليه من القتل.. حاولت أن أستبقيه أطول فترة ممكنة بيننا، بعد أن رأيت نظرة أمه التي تتوسّل إليه، وأن أقنعه بسخافة فكرة حمل السلاح أمام جيوش الميليشيات المُدججة بأحدث الأسلحة الأمريكية الفتاكة، لكنه لم يكن يريد أن يتخلى عن «واجبه» في حمايتنا وباقي سكان العمارة كما قال! مُقتنعاً بلعب دور الحامي ومتشبثاً بدوره الهوليودي السخيف!

الإنسان حيوان مطواع، نحن هنا أثبتنا صحة هذه النظرية، فمع مرور الوقت خَبت عندنا أي رغبة في المقاومة أو التحفز أو حتى الفضول لمعرفة ما يجري في الخارج.. حَنّة كانت تدخل بين الفينة والأخرى إلى مطبخها الصغير لتمدنا بالقهوة العربية أو الطعام، ولكن بعد أن طال الوقت ومللنا القهوة، قررت رفع سقف النسيان

بأن نشرب كؤوس العَرق.. أحضرت ما تيسّر من البرّاد، ثم قدمت لي كأساً يطفح من حوافها السائل العجيب، في البداية ترددت لكني لم أستطع عدم مجاراة تلك السيدة التي أجارتني في أصعب اللحظات. وضعت الكأس على فمي ثم أعدته، فلم تكن بي رغبة في التراخي أو فقدان الحذر، لكني قررت تعديل مزاجي بعد أن رأيتها تدفع بمحتوى كأسها بحركة واحدة إلى داخل جوفها راسمة على جبينها تقطيبة ذكّرتني بريجينّة يوم كُنا نحتسي العَرق معاً في حديقة ماري.. علّقت حَنّة بعد أن رأتني وأنا احتسي الكأس بمرح:

« أفضل دواء في وقت الشدائد!».

بادلتها مرحها وضحكها، ثم مع مرور الوقت رحت أشرب بنفس الطريقة الخالية من اللياقة والتي كنت عرفتها من قبل مع نديمة أخرى!

اخترنا البقاء في غرفة النوم لأنها الأكثر تحصيناً برأيها من بقية الغرف.. افترشنا الأرض وجلسنا على السجادة إياها.. انتظرنا توما قليلاً حتى انضمّ إلينا أخيراً وأخبرنا أنه تمكنَ من التقاط بعض الأخبار عن سبب الجنون الذي لا يهدأ في الخارج، فالإشاعات والأقاويل تتطاير في سماء هذه المدينة بسرعة قياسية وتنتشر كما الأوبئة المُميتة في القرون الوسطى..

« يقولون إن عصابة مُسلحة كانت ترتدي ملابس الحرس الوطني لكنها في حقيقة الأمر تابعة لإحدى الشخصيات المُهمة، والمُتحكمة في عنق المدينة، قد استولت على بنك في منطقة

«الزوية» القريبة. سَطتْ على ملايين الدولارات، وخلال هربها اشتبكت مع عصابة أرادت حصتها من المسروقات، الضحايا كثيرون.. يقولون إنه تمّ قتل موظفي البنك، جميعهم!».

خالجني الشعور المُخجل بسبب تلك اللامُبالاة، إذ لم تثِر فينا الحكاية أيّ غضب. حَنّة تأكل وتشرب وتُصغي باهتمام إلى ما يرويه ابنها المُنفعل والذي ربما كان يتوق إلى المُشاركة في هذه المعمعة.. تنظر إليه بفخر وعلى شفتيها ابتسامة اعتزاز كونه أتاها بالخبر اليقين.. وتوما يبدو وهو ينقل إلينا التفاصيل المُبالَغ فيها وكأنه يروي تفاصيل فيلم سينمائي مُشوّق لا يحدث إلا على الشاشات البيضاء في دور السينما التي احترقت بعد الاحتلال.. وأنا أدفع باللقمة إلى فمي وأنني على طهو حَنّة، وأرفع كأسها! وأستمع بلا مبالاة إلى توما وهو يروي لنا تلك المقتلة التي راح ضحيتها أولئك الموظفين الأبرياء..

بدا لي أننا كجموع بشرية نعيش هنا، قد وصلنا إلى درك الحيوانات البدائية. صرنا بلا أدنى مشاعر.. تناقض صارخ يذكرني بلوحة الهولندي المهووس بالتفاصيل المُرعبة فأستحضرها أمام عينيّ، وكأن هيرومونوس يقول لي: «لست أنا المخبول الذي تعلّق بالجحيم وظلّ يرسمه إلى النهاية، بل أنتم المجانين، الذين ترتضون العيش فيه.. أنا اكتفيت بتصويركم!»..

«هذه مُدننا ونحن مُعذَّبيها»، رسالة جَدي الذي علّقَ اللوحة مُنذ دهر بعيد على جدران قصره قد وصلت.

انضمت إلينا قريبة حَنّة وجارتها، مُنى، وهي امرأة تعيش مع حنّة كأنهما في بيت واحد. وقد أخبرتني حنّة أنها فقدت زوجها في آخر حرب دونكيشوتية خاضها الجيش المهزوم..

كل حديثها كان عن السويد، فقد حصلت على حق اللجوء الإنساني.. هي ما زالت شابة جميلة.. بدا لي أنها ما عادت تريد العيش مع الذكريات الحزينة.. وأن أقصى ما تتمناه هو الخروج السريع من لوحة هيرونوموس بوش..

نهضت عن الأرض التي لم أعتد الجلوس عليها وعلى شفتي ابتسامة تائهة تخالطها رغبة في البكاء..

نظرتا نحوي باستفهام والأسئلة مُعلّقة على أطراف ألسنتهم، فقلت:

« الآن أستطيع العودة إلى القصر».

نهضت حَنّة بسرعة أرغمتني على التراجع إلى الوراء خطوتين، وهي تُردد بإصرار يشبه الأوامر «مستحيل!».

أردفت مُنى بالسرعة نفسها وهي تشير بفزع نحو النافذة التي تهشّم زُجاجها والستائر المثقوبة، وقالت:

«لا يمكن المجازفة بالخروج الآن، خصوصاً لامرأة مثلك.. كل الاحتمالات واردة، انتظري إلى الغد..رجاءً، لا تضعينا في هذا الموقف الحرج! لا نستطيع تحمّل المزيد من النّدم».

قالت ذلك وتبادلت مع حنّة نظرة الرجاء تلك.. اقتربت حنّة

مني وأمسكت يدي برفق وهي تشعر بمأزقي.. هَمست لي بكلامٍ لم أستطع مقاومة رقّته، كانت كأنها مَلاك أتوق إلى الارتماء في أحضانه.. وختمت كلامها بالقول:

«لن نسمح لكِ بالمُجازفة بنفسك.. سواء في الشارع، أو في ذلك القصر! امرأة وحيدة تذهب إلى وكر خدمها الذين سرقوها وطردوها من قصرها الذي نهبوه، في مدينة فقدت عقلها.. ماذا تفعلين!».

كنت أصارع نوبة البكاء التي تُريد أن تجرفني نحو البعيد، يدي ترتجف في يدها الثابتة. شَعَرَت بترددي، فاقتادتني من دون مُقاومة نحو الفراش، وقد نفرت دموعي التي أحاول دائماً حبسها. جعلتني أتمدد على الفراش ثم أشارت إلى قريبتها بالانصراف وخرجت وراءها.. لقد تركتني بنبل لكي أبكي وحدي.

Telegram: Somrlibrary

الغموض

(غويا)

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

كانت ليلة الأمس غير مألوفة بالمعنى الحرفي للكلمة.. الليلة الثانية لي في شُقة حَنّة التي لا أعرف شيئاً عن حياتها الشخصية فهي لا تقترب من الحديث عنها مع أنها تتكلم كثيراً.. وأنا لم أسألها عن أي شيء شخصي!

صحيح أننا اقتربنا إنسانياً من بعضنا البعض، لكننا بقينا عالمين مُختلفين يربطنا شبح امرأة أحببناها معاً.. ريجينّة!

كانت ليلتي مليئة بالكوابيس القصيرة التي تشبه شفرات مُرسلة من مكان قَصيّ وناءٍ، كوابيس مُرعبة جعلتني أستيقظ عدة مرات كالملدوغة.. أتصبّب عرقاً وأنتفض خوفاً.. تكررت في كوابيسي صورة غير واضحة لامرأة تشبه ساحرات غويا في لوحة «الساحرات الطائرات» المُعلقة على جدران الصالة الكبرى في القصر المنهوب.. تلك اللوحة التي رسمها الفنان الاسباني غويا الساحر في مرحلة غامضة لم يهتدِ أيّ من المُختصين بأعماله الخالدة إلى معرفة، أو تقدير، غايتها، خصوصاً أنها جاءت ضمن سلسلة من اللوحات المُشابهة والأكثر غموضاً وتعقيداً..

كنت أتمدد على فراش حَنّة التي لا أعرف عنها أي شيء سوى أنها ابنة خالة ريجينّة! الكوابيس أطارت النوم من عيوني، مع ذلك فضّلت أن أبقى في السرير، رغم القلق العام وكوابيس الليل غير المفهومة. فكّرت أن أصحّي حنّة التي أقلقني تصرّفها في تلك الليلة إذ كانت تقفز من فراشها بين الحين والآخر لتذهب نحو الشبّاك لتلقي نظرة على الشارع. لكني عدلت عن ذلك لأنها كانت تبدو في تلك اللحظة مستغرقة في نومها.

لم يكن أمامي سوى الغرق في أفكاري حول الاحتمالات التي سيكون عليّ مواجهتها بعد أن تسافر حنة ومعها ابنها، وجارتها مني.. كانت هذه الأفكار تقلقني فحاولت استبعادها عن طريق التفكير في الأحبة الذين اختفوا. حضر في ذهني ذلك الحوار مع جدي حول لوحة غويا التي كانت أثيرةً عنده، فرحت أستحضر أدق تفاصيلها في ذهني. وكانت واحدة من اللوحات المعلّقة في القاعة والتي أحفظ تفاصيلها عن ظهر غيب..

على خلفية سوداء كعين الشيطان تمثّل العدم والظلام.. رسم غويا ثلاث ساحرات يطرْنَ في الهواء. نصفهنّ العلوي عارٍ، يعتمرن طرابيش غريبة كأنما ليؤكد انتماءهنّ إلى عالم غارق في الإبهام ولا نملك إزاءه من معرفة سوى الخوف والإيمان. الساحرات يقمنَ باختطاف امرأة تحاول التخلّص أو التملّص منهنّ من دون جدوى، أنيابهنّ غير المرئية تنغرزُ في أماكن مُتفرقة من جسدها الذي يستعد للاستسلام. النور الغريب الشاحب، الذي يُذكّر بنور

بغداد الكامد المُترب، يأتي من جهة غير مفهومة وكأنه اتجاه لم يكتشفه أحدٌ بعد.. على الأرض تحت الساحرات الشريرات المُحلّقات مع ضحيتهنّ، حِمارٌ في حفرة، يقف مُنكّس الرأس، لا يجرؤ على النظر إلى الأعلى، وخائف..

كلما كنت أشاهد واحداً من أولئك الذين يتحدّثون عن الديمقراطية التي ستحملها لنا جيوش الاحتلال، أو أشاهد واحداً من الذين يمتدحون تلك المقاومة التي قامت ضدهم، أو واحداً من أولئك الذين يتحدّثون عن أمجاد العراق، أو... كنت أتذكر حمار غويا في لوحة «الساحرات الشريرات»..

بالقرب من الحمار – في لوحة غويا – رجلٌ يُغطي رأسه بغطاء أبيض ويمشي باتجاه النور الغريب كأنه مُصمِّم على الهروب وغير مُبالٍ برجل آخر مُنبطح على الأرض إلى يمينه. كل يبحث عن خلاصه وحده، يضع يديه على أذنيه لكي يمنع الأصوات المُفزِعة من الدخول فيه، ويبدو في أقصى حالات الرعب. هل كان يمنع صوت المرأة المخطوفة التي تؤكل أو يُمتصّ دمها فوقه أو أصوات الساحرات الفرحات بالطريدة؟ ظلّ الرجل الهارب باتجاه النور هو العلامة الوحيدة على حُب البقاء بعيداً عن كل هذا العالم المُرعب المُخيف الذي يتوعّدنا به غويا!

أعرف أن غداً، أو اليوم، فقد تجاوزت الساعة منتصف الليل بكثير، هو اليوم الأخير لي في القصر. وربما في هذه المدينة المتروكة لقوى الظلام التي تمكّنت منها..

قوى العالم السُفلي التي كانت ترفرف فوق المدينة كما صوّرها غويا من دون أن يعرف بغداد أو يضطر للعيش فيها بعد أن فتح الاحتلال صندوق بندورا!

ما بين نوبات كوابيسي في تلك الليلة.. وأنا أصحو وأنام، كانت حنّة تجري اتصالات مُريبة من خلال هاتفها النقال. وكلما رنّ الهاتف تخرج به بعيداً عني وتبدأ في الحديث باللغة السريانية التي لا أفهم منها شيئاً.. تتحدّث بصوت خافت وترتبك حركات جسدها وهي تنظر نحوي بتلقائية وكأني محور كلامها.. أنا غصن البان! راودتني شكوك مُبهمة تأرجحت ما بين القلق والتوجس واللامُبالاة.. فكرت أكثر من مرة، أن أستفهم منها عن سبب كل هذه الاتصالات لكني كُنت أحجم عن ذلك في اللحظات الأخيرة.. ليكن ما يكون، مملوكة سلمتني إلى «مُناضلها اللصّ» وماذا ستفعل حنة؟ هل تُسلمني إلى ما هو أسوأ.. لقد اكتشفت خلال هذا الأسبوع الغريب أني لا أعرف شيئاً عن هذه المدينة! ليس في رأسي سوى تاريخها الذي بنيناه نحن السلالة العباسية، أما سُكانها فشيء آخر أكثر التباساً من لوحة غويا.. فما الذي يُمكن أن تفعله نبيلة مثلي في مدينة استولى عليها الرعاع ولم يعد للنُبل فيها من مكان!

رغم كل تحركات حَنّة غير المفهومة، ورغم قلقي كنت أستبعد تلك الخيانة منها، فهي كانت حريصة على عدم إزعاجي وتلبية جميع طلباتي بكرم مؤثر.. آخر اتصال تلقته كان في السابعة صباحاً، تنبّهت لذلك مع بدء الرنين المُزعج لهاتف حَنّة النقال

الذي اختارت له رنّة أكثر إزعاجاً هو عبارة عن مُقدمة لأغنية مُطرب شعبي اشتهر بالنواح والغناء لقادة العهد البائد. مطربٌ كُنت أعتبره مؤشراً على انهيار الذوق العام..

هل يُمكن أن تكون كل هذه الاتصالات مع أصدقاء ومعارف وأقارب! هل تملك حَنّة كل هذا الكم الكبير من هؤلاء؟ أحياناً كان يطول حديثها مع «هؤلاء»، غير المرئيين، من دون أن تظهر على وجهها علامات الضيق أو الضجر أو الملل.. بماذا يُمكن للمرء أن يملأ كل هذا الوقت من الكلام! لكن لم يعد يهمّني شيء من أمور هذه المدينة التي أصبحت نهباً لمخلوقات غويا المُرعبة! اليوم هو اليوم السابع على وصول تلك الرصاصة.

لم أستطع النوم بعد هذا الفاصل الغامض من الاتصالات المُربكة التي أجرتها حَنّة بالقرب مني.. في الحقيقة لم أعد أرغب في النوم، بل بتُ أترقّب ظهور النهار حتى أعود إلى القصر لألتقط آخر تفاصيل الأيام السبعة الحاسمة التي تلت التهديد! تفاصيل مُتناثرة حاولت لملمتها لأملأ حكايتي ولأعرف من أنا! الواضح لي كالنهار الذي أشرق هذا اليوم من دون أن يُشوّهه التُراب، أني قد أجبرت على الدخول في متاهة مجنونة بدت كمعركة وقد خسرتها.. لكن لم يكن واضحاً لي، أي معركة كانت أو لماذا وجدت نفسي في معمعتها؟

هذه المدينة التي بناها الآباء الأوائل لم تسقط بسهولة طِوال عمرها المديد إلا بمساعدة الخونة الذين يتناسلون في أحشائها

كما ديدان الموت التي تستولي على الجثث بعد أن توارى التُراب.. فالمغول لم يدخلوها إلا بعد حصار طويل خُرق بخيانة ابن العلقمي، وها هم أحفاده يسلّمونها لمُغامرين أتوا من وراء المحيطات! إنَّ ظِلّ الصنم الذي تهاوى في ساحة الفردوس لم يختفِ مع اختفاء الصنم بل بقي مُهيمناً على المدينة المذعورة..! صحيح أني لم أحزن على سقوطه ومن معه، إلا أن سقوط المدينة بأيدي محتلين أحزنني.. صوت انفجارات الأمس بدا لي أنه يشبه صوت النبوءة السوداء!

عندما لاحظَتْ أني لست نائمة بل فقط مُمدة على الفراش، ذهبت حنّة إلى مطبخها الصغير، الذي تُخرج منه كل ما لذ وطاب، وأعدت مائدة الإفطار. ثم ذهبت إلى شُقة قريبتها لدقائق وعندما عادت أغلقت الباب علينا.. لم تستطع أن تخفي ارتباكها والنرفزة البادية عليها.. سألتها عن توما فقالت بهدوء إنه لا يزال نائماً بعد أن أمضى الليلة ساهراً على حراسة العمارة مع رفاقه! ابتسمت لها وأنا أُبدي موافقتي وتقديري لشجاعته وإن كُنا في الحقيقة، هي وأنا، نعرف أنهم ما كانوا ليستطيعوا منع وقوع الكارثة لو جرى اقتحام العمارة من قبل العصابات المُسلحة، لكن النيات كانت نبيلة..

مراقبة حَنّة وهي تأكل أو تتحدّث، يمنحني مُتعة وشعوراً مغشوشاً بأن كل شيء على ما يرام.. صارحتني أنها لا ترغب بالهجرة إلى السويد وأنها تفعل ذلك فقط من أجل ابنها الذي تخاف عليه أن يروح ضحية لأسباب لا تعرفها! شجعني بوحها

بشأن شخصيّ على أن أسألها، على غير عادتي، عن والد ابنها.. سحبت نفساً عميقاً وهي تهضم لقمة الخبز المُغمَّسة بالدبس العراقي.. ثم قالت.. إنه كان يعمل في محل لبيع الخمور، عندما قام دُعاة «الفضيلة» الجُدد، كما تسميهم، بتفخيخ المحل وتفجيره بمن فيه، فقُتِلَ على الفور ومن معه من عاملين وزبائن.. شعرتُ بحزنها العميق الذي ظهر من خلال دمعة تجمّدت في عينها.. لكنها، كأنما اكتفت من البكاء، أظهرت على شفتيها ابتسامة كانت أشد تعبيراً عن الحزن.

«تسعة أشخاص قتلوا ولم نعرف حتى الآن الفاعلين، فهذه المدينة تُسجل أسماء الضحايا فقط وليس القتلة..!».

أطرقت برأسي وصمتّ.. فالمواساة تبدو سخيفة. تشبثت بالصمت إلى أن وقفت وراحت تحمل الإفطار لتعيده إلى المطبخ.. أعدّت لنا القهوة العربية المُركّزة، وجلست إلى جواري وهي تنظر في عينيّ بطريقة أشعرتني بأنها تُريد أن تُبلغني ما هو أهم من أخبار الماضي.. وقالت بصوت مُنخفض حرصت على أن يكون واضحاً..

ـ لقد اتصلت به!

ارتعش جسمي من قمة الرأس إلى أخمص القدمين.. فضمير «هو».. لا يُمكن أن يعني إلا شخصاً واحداً.. هو!

لما رأت ارتباكي وسكوتي المُتواطئ واستمتعت به.. واصلت:

«لا يُمكن أن أدعكِ وحدك في مواجهة هؤلاء اللصوص

والقتلة بقيادة الأفعى مملوكة! لم أكن أتوقع هذا منها أبداً.. كما أني لا أستطيع مواجهتهم مثلك.. فنحن أضعف من ذلك، لهذا فكرت بالاتصال به طلباً للمشورة».. وسكتت..

كانت تعرف أنها لا تحتاج إلى تقديم إيضاح عمّن المقصود بالضمير «هو»، لقد أحجمنا عن ذكر اسمه الصريح وكان ذلك مُريحاً بالنسبة لي.. نظرَتْ ملياً في وجهي الذي استعاد هيئة الجمود المُحايد.. تحاول أن تستقرئ أي شيء.. ولما واصلتُ صمتي، أكملت بيأس:

«استطعت الحصول على رقمه في سهل نينوى..لم يكن ذلك صعباً عليّ (قالتها بفخر).. لا أخفيكِ يا خاتون أني فعلت ذلك مُرغمة، فأنتِ تعرفين أنه (دق قلبي بعنف شديد ما أن ذكرت ضمير الغائب أمامي).. ليس بالشخص العادي.. لكن عندما ذكرتُ لهُ اسمكِ، أصغى إليّ بكل انتباه ووجّه لي بعض التعليمات التي تخص سلامتك..».

هنا التزمت هي الصمت.. طال صمتها.. بدت مُصممة على أن أتكلم أنا هذه المرة قبل أن تواصل الحديث الذي يتعلّق بمستقبلي.. وبهِ! اكتشفت بلحظات أني ما زلت أحبه! اكتفيت أول الأمر بالابتسام لطمأنتها ولإيصال رسالة امتنان من دون كلمات..

«ولكن.. !».

«لا تقولي ولكن.. لقد أجرى هو من ناحيته الاتصالات

الضرورية وأخبرني فجر اليوم أن تأشيرة دخولك إلى ايطاليا ستصل اليوم ويُمكن لنا أن نذهب معاً إلى المنطقة الخضراء لوضعها على جواز سفرك..». ثمّ أردفت ضاحكة: «إذا لم تسرقه مملوكة بعد!».

ضحكتُ أيضاً، ولكنّي لم أتكلم.. فأكملت عندما لاحظت ترددي:

«بعد أن تضعي الفيزا على الجواز، نستطيع أن نسافر معاً إلى الأردن ومن هناك إلى أراضي الله الواسعة..».

منحتني معرفة استعداده للوقوف إلى جانبي شعوراً بالثقة وبالقدرة على التفكير كُنت في أمّس الحاجة إليهما، بل منحتني الإحساس بالفرح الذي لم يستمر طويلاً، فشبح سلوان فرض سيطرته عليّ بقوة.. لاحظت حَنّة اختفاء ابتسامتي فسألت بلهفة:

«بماذا تُفكرين؟».

نهضت من مكاني وأنا أعدل ملابسي:

«سأذهب إلى القصر..».

نهضت ماري، وقالت: «سآتي معكِ».

بعد أن ألقيت نحوها بنظرة امتنان على كل شيء، قلت:

«بل سأذهب وحدي، إنه مصيري وقدَري وأنا وحدي من يجب أن يواجه أولئك اللصوص..». وخرجت.

الشوارع كانت هادئة بعد أن تعبت على ما يبدو من القتال الذي سيطر عليها بالأمس.. الناس يسيرون بلا مبالاة عجيبة.. لا أحد

يعرف حقيقة ما جرى ولا عدد القتلى الذين سقطوا، لا أحد يعرف كمية المال المسروق ولا إلى أين ذهب.. كذلك أنا.. لا يهُمّني كل الذي حصل.. لم يبقَ في ذاكرتي سوى عنوان لجثث موظفين بلا أسماء في مصرف مَسروق..!

كنتُ أشعر بالثقة والخفّة القريبة من المرح والقدرة على مُواجهة الجميع.. سأضع على رأسي غطاء محبته ليحميني وأستعير نفس التصميم الذي جسّده غويا في لوحته الغامضة بشخص الرجل الذي يبدو مُصمماً على الهرب من شرّ الساحرات وهنّ يحملن جسد الفتاة.. أو جسد بغداد!.. هل يُمكن أن يمّحي كل هذا الشر الذي زحف علينا وتحل محله المحبة في زمن ما!!

في حوارٍ نادرٍ بيننا حول هكذا مواضيع، قالت لي بلقيس إنني لا أبذل جهداً لفهم الناس الذين يحيطون بي ويعيشون معنا في مدينتنا، وكأني أسكن في فقاعة، أراهم ولا أفهمهم. لا أمسّهم، ولا أشم رائحتهم.. هم غير حقيقيين بالنسبة إلي! أتمسك برفض لا يعرف التصالح... هل هذا صحيح؟ هل كانت معرفتي بهم ستغير من الأمور شيئاً؟

تبدو فكرة الموت اليوم قريبة جداً من تفكيري ولها قبول دافئ، فهو المُطلق الوحيد الذي يُغريني باللجوء إليه للخلاص من كل هذه القذارة المُحيطة بي التي أراها هنا على واجهة البنايات التي أمرّ بالقرب منها، على السيارات المُنطلقة بسرعة وهي تطلق أبواقها على نحوٍ كريه، على ملابس المارة، في الكلمات التي تخرج من

الأفواه، في الأغاني المُنبعثة من المُسجّلات والراديوات..! إنها دوّامة تحتفي بالقاع، لها قدرة هائلة على افتراس كل قيم الجمال في حياتنا، والتمدد.. العيش فيها يُرعبني أكثر من فكرة الموت التي تبدو جذابة بل وساحرة وتُغري بالخلاص! لماذا لم تضع الملعونة مملوكة السُم في عشائي أنا أيضاً! هل تُمنّي نفسها بالانتقام مني ومن عائلتي بإذلالي.. لكن لماذا كل هذه الكراهية؟

بدأت عضلات ساقيّ تخذلني كلما اقتربت من القصر الذي ستقع عليه عيناي بعد هذا المنعطف.. بل أصابني التردد لهنيهة ووسوس لي هاجس جبان بالعودة إلى شقة حَنّة.. الإذلال أكثر ما يخيفني وإلّا لماذا قتلت سلوان؟ استندتُ إلى الجدار قبل أن أقرر الاستمرار.. عليّ أن التقط بعض الأنفاس وأهدّئ من روعي..

أخيراً ها هو القصر المُشرعة أبوابه.. بسرعة خاطفة مسحت عينايَ كل جزء فيه.. لا يزال على ما كان عليه، لكنه فقد بريقه.. أو هكذا اعتقدت..!

مجموعة من الأطفال والمراهقين خرجوا من خلال البوابة الحديد وهم يحملون اللوحات السبع فوق رؤوسهم ويتضاحكون.. بُهرت للحظة بقدرتهم على الضحك وهم يسرقون.. انتقلت عدوى الضحك إليّ وأنا أراهم يسيرون الواحد تلو الآخر بوقاحة واللوحات فوق رؤوسهم كأنها سقوفٌ اقتلعوها!

اختبأت أنتظر ذهابهم، توجّهوا نحو سيارة نقل كانت تنتظرهم.. كوّموا اللوحات الواحدة فوق الأخرى بقسوة ومن دون مُبالاة كما

أثاث زائد على الحاجة أو مجموعة من الأخشاب أو الأقمشة البالية التي لا تصلح إلا وقوداً لحرائق أخرى يُشعلونها هنا وهناك قُرباناً للعجل الذهبي الذي سيأخذ الجميع إلى الهلاك!

ماكس إرنست، آرنولد بوكلين، ماكس ليبرمان، كارافاجيو، فيلاسكوز، هيرانيموس بوش، وأخيراً غويا.. يا إلهي! لقد أمضى جدي وجدتي سنوات طويلة في جمع هذه اللوحات الأثيرة على قلبه والتي منحت حياتنا معنىً وبهجة وأثارت التساؤلات والنقاشات والتأملات.. ها هي تُرمى في شاحنة، الأرجح أنها هي الأخرى مسروقة، تذهب إلى مصير مسروق كما هو حالي أنا، كما المدينة، كما ذاكرتها وتاريخها.. نظرت إلى السماء، تذكّرت قول أبي بعد الانقلاب على الانقلاب: «مُنذ الانقلاب الدموي على العائلة المالِكة، غابت سماؤنا الزرقاء الجميلة وحلّت محلها سماء رمادية عابسة..»، لعله على حق! صحيح أن التُراب لم يسقط هذا اليوم.. إلى حد الآن، لكنه ينتظر في مكان ما بين السماء العابسة وأرض المدينة المُستباحة..

لو كانت أمي مكاني لعلها لا تُبدي الحُزن الكبير على اللوحات السبع، بل ربما على أشياء أخرى، فهي لم تستوعب شغفي الشديد بلحظة الانبهار التي تُثيرها فيّ رؤية لوحة مُتكاملة، لم تحاول أن تفهم سّرَ فرحي وأنا أتقصّى ذاك الزمن الذي بدأ فيه الفنان وضع أول لون أو خط عليها، وهو غير موقن بأنه سيصل بها إلى تكريس خلوده الأبدي، ولا ذاك الزمن الذي تسقط فيه الفرشاة من يده على

الأرض لأنه لم يعد قادراً على إضافة أيّ شيء آخر إليها.. هل يعي الفنان ذلك مُنذ البداية! أمي لم تفهم حاجتي لتقصي الغموض الذي يثيره الغوص في حياة الآخرين للوصول إلى لحظة الوهج المُبهر، المسكينة، التي أشتاق إليها جداً، كانت تُريدني أن أكون رقماً مُحايداً ومُطيعاً في سُلالتنا التي أورثتنا الغرور الذي بدورهِ أنعمَ علينا بكل هذا العمى حتى صدّقنا أسطورة التسامح التي أوصلتنا إلى هاوية الانقراض..

انتشلني من هذه التداعيات والوهن الذي كاد يُفقدني القدرة على الحركة، اندلاع عشرات الأصوات المُكبرة من منائر دور العبادة وهي تدعو إلى الصلاة في آن واحد!.. لم تعد دور العبادة تترك فيّ أثراً سوى الخوف منها والشك الكبير، فالفتاوى الدينية في هذه المدينة تتطاير مثل حُمم بركان مُدمر تحرق في طريق تدحرجها الأخضر النادر واليابس الكثير.. الكل يود نسيان ما حدث بالأمس وإخفاء أسماء المقتولين إلى الأبد!

بعد أن تأكدت من مُغادرة اللصوص بمنهوباتهم، كان عليّ أن أقطع الأمتار القليلة الباقية التي تفصلني عن بوابة القصر المفتوحة على مصراعيها..

الأمتار الأولى التي توجّب عليّ مشيُها، تفصل البوابة الخارجية عن البوابة الداخلية وتمّر بالحديقة التي ازداد يباس أشجارها بعد أن توقف جواد، زوج مملوكة، عن العناية بالحديقة مُنذ أن وصلتني الرصاصة التهديد التي أصبح من الواضح الآن من الذي أرسلها..

هل انقطاعه عن العمل كان بأمر من زوجته، أم بانتظار أن يدخل القصر كسيد جديد بعد أن يتم طردي؟ أو لعلّه لم يكن راضياً عن عملية السرقة المدعومة بعنف دنيء من عائلة زوجته، فنأى بنفسه؟ لا أدري ولا أريد أن أعرف السبب.. لكن رؤية الحديقة المُتعطشة للماء والنباتات الميتة تُشعرني بألم مُضاعف.. كم كانت بديعة تلك الحديقة التي بدأ جدي بزراعة أشجارها حتى قبل أن يوكلَ إلى المستر بريان كوبر عملية بناء القصر..

واصلت السير في الممر الذي زرعنا على حوافه فرحنا، وذكرياتنا المُترعة. أنوار الحفل الباهر الذي راقبته من غرفتي ما زالت مُتقدة، صوت الجرائد التي كان يُقلّبها أبي على مائدة الإفطار، جُلنار وهي تطلي أظافر يديها هنا وتستمع إلى غناء فيروز.. هناك وقف الغراب الأسود ونعق ثلاث مرات وهو في طريقه إلى مقبرة الأرمن وأجبر أمي على زيارة ثلاثة مراقد ذهبية.. ضحكات سلوان وهو يركض هنا وهناك طفلاً جميلاً.. جثته المدفونة في مكان ما منها..

من هنا مرت أعداد من الرجال والنساء الذين ستبقى أسماؤهم محفورة في التاريخ مهما مرّت انقلابات واحتلالات..

وصلت إلى البوابة الداخلية وكانت مفتوحة، لم يهتم اللصوص بإغلاقها خلفهم، ولماذا يفعلون ولم يبق في القصر أي شيء يستحق السرقة،! لقد نَفّضوه وتركوه ملعباً للريح والتراب والذكريات التي أصبحت بالتبعية حزينة جداً.. الشر لا يهتم بلملمة آثاره.

لا أستطيع أن أتجاهل شعوراً ساحقاً بالخيانة وأنا أنقّلُ بصري بين الغرف المَنهوبة للقصر، إحساس يكاد يدفنني تحته من شدة وطأته التي لا تُطاق.. ما أقساهم وما أرخصهم، ما من شيء عندهم له معنى.. أيّ إفلاس أخلاقي مُريع!!

القصر المنهوب جعلني أحسّ ببرودة غير عادية فأنا لم أره على هذه الشاكلة من الفراغ المُخيف.. بدا حجمه أصغر بكثير من ذاك الذي أعرفه وأحفظه في ذاكرتي، مع إحساس بأني غريبة عنه.. كأني لم أولد ولم أعش فيه أبداً! ها أنا أقف في وسطه غريبة!

التُراب الذي تساقط طوال الفترة الماضية والذي لم تهتم مملوكة بإزالته ترك آثاراً فظيعة تمنح الانطباع الكاذب بأنه مكان بالفعل مهجور مُنذ الزمن البعيد الذي سلم فيه ابن العلقمي المدينة إلى المغول! شيء عتيق، حكاية قديمة.. أنقلُ خطواتي ببطء من مكان إلى آخر وأستمع إلى وقع أقدامي على البلاط المرمري الذي جاؤوا به ذات يوم غابر من إيطاليا خصيصاً لرصفه هنا، وأحسّ بأن أشباحهم تحيط بي.

لكني أقف هنا في قصري المنهوب، تاريخي المُستباح، أمشي على آثار زلزال لا أدري إلى أين يقودني..!

أين ذهبت كُل الأصوات التي كانت مخزونة هنا؟ في الماضي كُنت أعيش معها وبها وأعرف أنها لم تُبارح مكانها قط..

جيفارا.. لم يعد يكترث لوجود الغرباء في حياتنا أو يُكشّر عن أنيابه عندما يراهم..

فجأة خفق جناح فوقي.. «بافاروتي» ببغائنا العزيز مُطلَق السراح يتنقل ما بين الحديقة اليابسة والقصر الفارغ.. لقد تعرّف عليّ وأراد أن يجلب انتباهي، وقف على حديد السُلم المؤدي للطابق الثاني ينظر نحوي بخوف وقلق، ربما أراد أن يلومني لأني لم أستطع منع السارقين الذين نهبوا كل شيء ومنحوه حرية لم يكن يرغب بها.. ناديت عليه بما تبقى لي من صوت، كما كُنت أفعل في السابق، وهو الذي اعتاد أن يطير نحوي ويستقر على يدي الممدودة إليه، لكنه لم يكترث هذه المرة، بل لقد ضايقه صوتي فاستنفرَ قواه مُحلقاً دورتين في الفضاء الفارغ، معاوداً الخروج من البوابة المُشرعة نحو الحديقة اليابسة، وأنا قلقة عليه، لأنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه وسماء المدينة يطير فيها كل أنواع الجوارح القادمة من البعيد، ستقتله وتنتف ريشه الأبيض الجميل.. أو سيموت جوعاً وعطشاً كونه لم يعتد على تدبير أمر غذائه بنفسه وهو المُدلل.. ربما تعتني به الآن روح جدتي التي جلبته ذات يوم من البرازيل.

باب الصالة الكبرى مفتوح على مصراعيه، شيء لم أعتد رؤيته.. على الأرض، خلف الباب مجموعة من الأوراق الشخصية المُبعثرة وصور للعائلة مع جواز سفري، والفراغات التي تركتها اللوحات السبع كعيون تُفضي إلى الجحيم!.. هذا كل ما تبقى لي!

خرجت إلى الشرفة الكبيرة المُطلة على الحديقة اليابسة أتتبع آثار «بافاروتي» الذي اختفى إلى الأبد كما أعتقد.. أثناء بحثي اللامُجدي عنه، لا أدري لماذا ذكرتني الشمس الساطعة بذاك

الضوء الغريب الذي طغى على الحديقة فجر يوم الغزو.. لقد كان من النوع النادر، تماماً كما الآن! كثيف، لكنه خجول، كُنا نعرف أن المدينة ستنهار، كل الدلائل كانت تُشير إلى حتمية السقوط، المقاومة الهزيلة، القيادة الدونكيشوتية، لكننا مع هذا لم نرد أن نصدق! حينها وقفت على حدود الشرفة مع سلوان وجيفارا المُتوتّر ومملوكة الحائرة، التي ربما كانت قلقة على ابن أختها «المُناضل».. وقفنا نُبحلق في الأشجار الغارقة في الضوء الغريب بانبهار وتوجّس..

كانت مُجنزرات الاحتلال تتسلل رويداً رويداً في أوردة المدينة بخرائطها العمياء.. تحتل المسارب واحداً تلو الآخر بهدوء وبلا ضجيج، جيوش تستعد لملاقاة المدينة غير المُقاومة، المُستسلمة، المُختنقة، الخائفة.. ينتظرها للالتحام بها سماسرة وانتهازيون ومنافقون.. وقد تلبّسهم توتّر يشبه توتّر الضبع الجائع وهو ينتظر أن يشبع الأسد!

ماذا أفعل هنا؟ هل أريد فعلاً تفقّد كل غرف القصر في نظرة وداع أخيرة؟ ماذا يفيد؟ لقد تقاسم الاحتلال والغوغاء كل تاريخي أنا الواقفة على الحياد كأحجار الخطوط التي تفصل الخير عن الشر في هذه المدينة الفاتنة، والخائفة من تلك الضِباع التي ظل سلوان يحكي عن بشاعة توحّشها في بيداء هلوسته..

إنهم عائدون.. أعرف هذا.. ولا أريد رؤيتهم.

Telegram: Somrlibrary

الفهرس

الهذيان 7
الاختفاء 61
الحب 103
العَتمة 161
الهزيمة 191
الجحيم 233
الغموض 249

Telegram: Somrlibrary

زهير الهيتي

أيام التراب

اللوحات السبع، موزعة بتناسق جميل على الجدران.. أتساءل لماذا هذه اللوحات بالذات ولماذا تلك المواضيع الشائكة المقلقة التي تُثيرها؟..

هل كان جدي يشعر بالارتياح وهو يتأمل تلك المخلوقات الغريبة لماكس ارنست، التي تحاول التهام القديس انطونيوس!.. أو يتأمل «جزيرة الأموات» لبوكلن!.. أو سالومي في لوحة كارافاجيو وهي تشارك والدها في ذبح النبي يوحنا الذي يبدو مستسلماً لقدره، مضرَّجاً بدمائه على الأرض، وتحمل السلة التي ستضع فيها رأسه لترقص فيما بعد الرقصة الأشهر في التاريخ.. أين المنطق في اختيارات جدي..!

لم يخطر على بالي طرح مثل هذه الأسئلة في السابق، ولا أحد يذكر متى عُلّقت تلك اللوحات، فهي دائما موجودة وأصبحت مع مرور الوقت جزءًا من عمرنا الذي مرَّ من تحت إطاراتها المُذهَّبة وطبعت هويتنا الثقافية بملامحها. وبقي السر وراء هذه الاختيارات علامات استفهام ذهبت مع أصحابها إلى القبور. ولكني أعرف أن وجودها في حياتي هو الذي حفّزني على اختيار دراستي للفنون الجميلة، رغم معارضة أمي التي لم ترَ في تخصصيّ ما يُليق بتاريخ عائلتنا، وانتقاصاً من مكانتنا الاجتماعية. وقد منحتني دراستي للفنون التشكيلية القدرة على تحمّل قسوة وتَصحُّر الواقع والرقص بحرية في أحلام يقظتي على قمم الأعالي.. أشعر الآن أنني الحلقة الأخيرة في تاريخ هذا القصر، وتُشعرني هذه الصالة بالأمان وهذا ما أحتاج إليه حالياً..

لوحة الغلاف: فرنسيسكو غويا

ISBN 978-9938-886-82-5
9 789938 886825

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
تونس

مكتبة سومر